# النظام الاستبدادي

# وطرق معالجته في القرآن الكريم

الدكتور

**سعيد سليمان سعيد البرواري**

قال الله تعالى:

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}

(النساء: ٥٨)

# الإهداء

- إلى والديّ - رحمهما الله - ((**رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**)).
- إلى زوجتي التي شاركتني معاناة اعداد الرسالة.
- إلى أولادي راكر، هوكر، محمد، أحمد، زيكر.. ((**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**)).

# المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور انفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أنّ محمداً عبده ورسوله وبعد...

من خلال أية نظرة أو تحليل، لواقعنا الأليم الذي نعيشه يظهر لنا، أن فساد النظام السياسي المتحكم في جميع نواحي الحياة واستبداده، يعدّ من الأسباب الرئيسة لجميع ما تعانيه مجتمعاتنا المسلمة من ويلات، وتخلف، وفساد فكري، واجتماعي، واقتصادي، وأخلاقي.

والملفت للنظر أن ساعة السقوط تحين يوم يتسلم المسؤولية المستبدون، فيمارسون من موقع السلطة كل ما من شأنه إلحاق الضرر بالبلاد والعباد، من الاضطهاد والظلم، والترف والتبذير، والفسق والفجور، والاحتكار والاستغلال، ورفض الدعوات الإصلاحية واستخدام أقصى درجات القسوة والبطش ضدها...، واعتبار مبادئهم وآرائهم وتوجهاتهم ونظرتهم للحياة هي الصواب المطلق، قال تعالى:{**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**}(غافر: ٢٩).

ولقد أسهبت القصص القرآنية في الحديث عن النظام الاستبدادي متمثلاً بالظاهرة الفرعونية – رمز الظلم والاستبداد – كأنموذج للحاكم الظالم في التاريخ البشري في صراعه مع الحق الذي تمثله النبوة – رمز العدل والحرية – ذاكراً أهم صفاته وسماته وخصائصه، وأدواته وأسلوبه في التسلط والتحكم.

فالقرآن الكريم قد تحدث عن أشكال الحكم، منها النظام الاستبدادي متمثلاً في قصة فرعون، وكانت قصته، أطول قصة وأعمها وأكثرها تنويعاً، لدرجة أن الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذه المسائل، أكثر من التي تحدثت عن الوضوء والإرث والصدقات والزواج والطلاق والحج مجتمعة.

وهذا الأنموذج الذي قصّه علينا القرآن الكريم بأساليبه المتعددة؛ ما هو إلاّ عبرةٌ للشعوب جميعا ليعلموا أنّ الخضوع والعبادة لغير الله جريمةٌ، وأن الرضا بالظلم والذلّ سيكون عقباه في الدنيا الهوان وفي الآخرة الخسران، ويُعلِّم المؤمنين الصمود والتضحية في مواجهة الظلم والطغيان، وليكون عظةً للمستبدِّين والطغاة على حد سواء.

وما ذُكِر اسم نبي ولا ملك في القرآن الكريم كما ذُكِر اسم موسى (عليه السلام) المتصدي للتسلط الفرعوني، حيث ورد ذكره (١٣٦) مرة.

فالقرآن كتابُ هدايةٍ للبشرية، وتشريع شامل كامل، يتضمن كل ما تحتاج إليه البشرية في دينها ودنياها. ففيه العقيدة، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، سواءً كانت مدنيةً، أم جنائية، أم اقتصادية، أم سياسية، أم في السلم والحرب، أم المعاهدات والعلاقات الدولية، قال تعالى:{مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ}(الأنعام: ٣٨)، فهو دستور قويم وقانون متكامل للحياة الإنسانية، وهو يشتمل على أسرار التاريخ وفلسفته في قيام الدول والحضارات، وعوامل وأسباب سقوطها وهلاكها، فصرَّحَ بأنّ الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والطغيان، من عوامل سقوط وزوال القُرى -الحضارات والمجتمعات-، قال تعالى:**{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} (الحج: ٤٨)**، وكذلك الفساد والانحراف الأخلاقي والسلوكي، قال تعالى:**{وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ}(الأنبياء: ٧٤)**، وكذلك الترَف وظهور طبقات مستبدّة مترفة، قال تعالى:**{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}**(الإسراء: ١٦).

فلا يوجد أي مجال من مجالات الحياة الإنسانية إلا وتطرق إليه القرآن الكريم، ولأن نظام الحكم من القضايا الأساسية والمهمة في التاريخ، فقد تكرّر الحديثُ عن الظاهرة الفرعونية، كأنموذج لنظام حكم مرفوض في التصور القرآني.

ولأهمية الموضوع نقدم دراسة مفصلة لهذه الظاهرة من خلال القصص القرآني، التي هي كلها عبر ودروس، قال تعالى:**{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأوْلِي الأَلْبَابِ}**(يوسف: ١١١).

والنماذج التي ذكرها القرآن الكريم حول التسلط والاستبداد كما في الظاهرة الفرعونية وغيرها، لها دِلالة لابدّ من التوقف عندها أثناء التحدث عن النظام الاستبدادي، وعوامل تكوينه، ووسائله وأدواته، وعواقبه، وكيفية مواجهته، والعمل على تقويض حكمه، والتخلص منه.

فشكل الحكم يتعلق مباشرة بالإنسان وبكل جوانب حياته، وتأثيراته تظهر بشكل جلي وواضح في مسيرته في الحياة، فهو قضيةٌ حياتية مهمة، لا تنفكُّ عنه، ولا تنفصل عن حياته، في أي زمان ومكان.

وكأن القرآن يستشرف المستقبل ويرى بأن الأنظمة الاستبدادية الطاغوتية ستتحكم بالأمة، ففصّل الحديث عن هذه الظاهرة، تحذيراً للأمة من أن تقع تحت براثنها، وتعليماً لها للوقوف أمام جبروتها وسطوتها.

وأرجو أن أكون قد وفقت وقدمت ما فيه نفعٌ للناس، فان أصبت فبتوفيق الله تعالى، وما وقع من خطأ أو ذلل، فادعو الله أن يغفر لي، والله من وراء القصد.

# الفصل الأول

# ماهية الاستبداد وعوامله

## المبحث الأول: ماهية النظام

المطلب الأول: تعريف النظام والاستبداد لغةً واصطلاحاً
المطلب الثاني: الإطار التاريخي لنشوء الدولة والنظام
المطلب الثالث: أنواع الأنظمة

## المبحث الثاني: أسباب وعوامل الاستبداد (رؤية قرآنية)

المطلب الأول: شخصية الإنسان المُستبَدُّ بهِ وقابليته واستعداده لقبول الاستبداد
المطلب الثاني: شخصية الإنسان المُستبدّ، وأهم أسباب استبداده وطغيانه

## المبحث الأول: ماهية النظام

**المطلب الأول: الفرع الأول: تعريف النظام لغةً واصطلاحاً**
**الفرع الثاني: تعريف الاستبداد لغةً واصطلاحاً**

**المطلب الثاني: الإطار التاريخي لنشوء الدولة والنظام**
**المطلب الثالث: أنواع الأنظمة**

# المبحث الأول
## ماهية النظام

لكون الاستبداد يتشكّل على الأغلب في شكل نظام ارتأيت أن أوضّح ماهيـــة النظـــام مبيناً، تعريفه لغةً واصطلاحاً، ذاكراً الإطار التاريخي لنشوء الدولة والنظام، مع بيان أنواع الانظمة في المطالب الثلاثة الآتية:

## المطلب الأول
## تعريف النظام والاستبداد لغةً واصطلاحاً

فيما يأتي اشارة الى النظام والاستبداد لغة واصطلاحاً:

### الفرع الاول
### تعريف النظام لغةً واصطلاحاً

**النظام لغةً:**

أصل الكلمة من مادّة: " نظم: النون والظاء والميم، أصلٌ يدلُّ علـــى تـــأليف شـــيءٍ و تكثيفه. والنظام: الخيط يجمع الخَرَز " (١). والخيط الذي يُنظم به اللؤلؤ، ونظمت اللؤلـــؤ: أي جمعته في السلك والتنظيم مثله، ونظَم ينظِم من باب ضَرَبَ [يضرِبُ] (٢).

والنَّظْمُ: التأليف، وكل شيءٍ قرنته بآخر أو ضَمَمْتَ بَعْضَه إلى بعض. والهدي والعادة.

ونظام كل أمر: مِلاكهُ. والانتظام: الاتساق. والنظام: الهَديَةُ والسِّيرة. وليس لأمـــرهم نِظام أي ليس له هَدْيٌ ولا مُتَعَلَّق ولا استقامة... وتناظَمَتِ الصخور أي: تلاصقت (٣).

ونظم الأمرَ: أقامه ورتَّبه، وجعله خاضعاً لقانون أو قاعدة. وانـــتظم الشـــيءُ: تـــألَّف واتَّسقَ. وانتظم أمره: استقام. ونِظامُ الأمرِ: قِوامه وعِماده (١).

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين: معجم مقاييس اللغة، اعتنى به الدكتور محمد عوض مرعب والآنسة فاطمة محمد أصلان، ط١، ١٤٢٢هـــ - ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ص ٩٩٦ .

(٢) ينظر: الجوهري: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، مـــج ٥، ط٤، ١٩٩٠م، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٢٠٤١ . محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، عني بترتيبه محمود خاطر بك ، راجعته وحققته : لجنة من علماء العربية، ١٩٨١م، دار الفكر، بيروت - لبنان، (د. ط)، ص ٦٦٧ .

(٣) محمد بن مكرم بن منظور، أبو الفضل، جمال الدين، الإفريقي المصري: لسان العرب، نسقه و علّـــق عليـــه و وضـــع فهارسه: علي شيري، مج ٤، ط١، ١٤٠٨هـــ - ١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ص ١٩٦ . محمد بن يعقوب، مجد الدين، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، إعداد وتقديم: محمد عبـــد الـــرحمن المرعشـــلي، ط٢، ١٤٢٤هـــ - ٢٠٠٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ص ١٠٧١ .

ويأتي النظْمُ، بمعنى الجماعة أو الصفُّ من الجراد، والنِظام: الطريق، يقال: (ما زال على نظام واحد) أي على طريقة واحدة ([2]).

فالنظام لغةً: يدل على الترتيب والتنظيم والاتساق وإقامة الأمور، ويعني كل أمر يراعى فيه الترتيب والإرتباط والانسجام، ويتضمن معاني الطريقة والسيرة والعادة.

وكلمة النظام بعينها لم ترد في القرآن الكريم، ولكن وردت بمعناها ألفاظ مترادفة تعطي المعنى المتضمن للنظام، وعبَّر عنه القرآن بألفاظ متعددة مرّات كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر: الدين، المنهاج، وشريعة، السنّة، الطريقة ([3]).

ويقول المودودي في توضيحه للمراد من كلمة الدين في القرآن، أنه: القانون والحدود والشرع والطريقة والنظام الفكري والعملي الذي يتقيد به الإنسان. وإنّ الدين هو نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها الاعتقادية والفكرية والخلقية والعملية ([4]).

وأما في الاصطلاح: فقد عرّفه علماء الكلام بأنه، " وضع إلهي يُرشد إلى الحق في الاعتقادات والى الخير في السلوك والمعاملات " أو " أنه وضع إلهي سائق لذوي العقول، باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل " ([5])، وعرّفه الجرجاني ([6]) بأنه : " وضع

---

([1]) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط٤، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية - القاهرة، ص ٩٣٣ . جبران مسعود: الرائد، وبذيله منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، ط١، شباط/فبراير ٢٠٠٣، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ص ٨٩٨.

([2]) منير البعلبكي: المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة ٣٥، ١٩٩٦م، دار المشرق، بيروت، ص ٨١٨ . جبران مسعود: الرائد، ص ٨٩٨ .

([3]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٤، ص ٤٥٨-٤٦٢ . الجوهري: الصحاح، مج ٥، ص٢١١٧-٢١١٩ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١١٠٤ . جبران مسعود: الرائد، ص ٣٩٧ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٣٠٧ . الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٤، ١٤٢٥هـ ، انتشارات ذوي القربى، قم - إيران، ص ٣٢٣ . رشدي محمد عليان وقحطان عبد الرحمن الدوري: أصول الدين الإسلامي، ط٣، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، مطبعة الإرشاد، بغداد، ص ١٩-٢٠ . أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب: محمد كاظم سباق، المطبعة الهاشمية، دمشق، (د. ط ، د. ت)، ص١١٦-١١٨.

([4]) أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن، ص ١٢٥-١٢٩ .

([5]) رشدي محمد عليان وقحطان عبد الرحمن الدوري: أصول الدين الإسلامي، ص ٢٢ .

([6]) الجرجاني (٧٤٠-٨١٦ هـ / ١٣٤٠-١٤١٣م): علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني: فيلسوف من كبار العلماء بالعربية، ولد في تاكو (قرب استرآباد) ودرس في شيراز. ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور، فأقام إلى أن توفي. له نحو خمسين مصنفاً، منها: التعريفات، شرح مواقف الايجي، شرح كتاب الجغميني - في الهيئة - وتحقيق الكليات وشرح السراجة في الفرائض ورسالة في فن الحديث، وغيرها . خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط٥، أيار/مايو ١٩٨٠م، مج ٥، ص ٧ .

الهيّ يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول (ﷺ) " ([1]). وهو عند الفلاسفة القدماء: مجموعة وقائع تشمل العقائد والطقوس والواجبات والشعائر بذاتها. وهو: تدبير المقدس ([2]).

وإنّ كلمة «الدين» لم ترد في جميع ما ورد في القرآن الكريم من تفاصيل لقصة موسى (عليه السلام) وفرعون ([3]) بمعنى النحلة والديانة فحسب، بل أريد بها الدولة ونظام المدينة ايضاً. فكان مما يخشاه فرعون ويعلنه: أنه إن نجح موسى (عليه السلام) في دعوته، فان الدولة ستدول وإن نظام الحياة القائم على حاكمية الفراعنة والقوانين والتقاليد الرائجة سيُقْتَلَعُ من أصلِهِ. ثم إمّا أن يقوم مقامه نظام آخر على أسس مختلفة جداً، وإما ألا يقوم بعده أي نظام بل يَعُمُّ كلّ المملكة الفوضى والاختلال، قال تعالى:**{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}**(غافر: ٢٦) ([4]).

والمنهاج: ورد في قوله تعالى:**{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}**(المائدة: ٤٨)، وأصله: نَهَج الأمرَ، والمِنهاجُ والنَّهجُ: الطريقُ الواضِحُ، والخطة المرسومة.

---

([1]) الجرجاني: كتاب التعريفات، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص ١٠٥ .

([2]) هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية، مؤسسة الصالحاني للطباعة، الجمهورية العربية السورية، مج ٩، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٥٦٣ .

([3]) فرعون: لفظة فرعون في اللغة المصرية القديمة مركّب من كلمتين تعنيان «البيت الكبير». والتعبير القرآني لوصف حاكم مصر في زمن موسى (عليه السلام) بـ (فرعون)، و وصف حاكم مصر في زمن يوسف (عليه السلام) بـ (العزيز) واختيار تعبير(الملك)، فيه إشارة إعجازية، وأن هذه التعابير المختلفة ترجمات دقيقة لما كان يُستعمل في تلك الأزمنة السحيقة فتعبير (العزيز) و (الملك) أدق ترجمة لمن يقوم بذلك المنصب في حينه، وكذلك تعبير (فرعون)، إذ كان أهل مصر الأصليون – الأقباط – يفرقون بين الملوك الذين يحكمونهم فيها إذا كانوا مصريين أو غير مصريين، فالحاكم غير المصري الأصل كانوا يلقبونه بـ (الملك)، وأما إذا كان مصرياً – قبطيا – كانوا يلقبونه بـ (فرعون). ونرى أن القرآن الكريم استخدم تعبير (الملك) لحاكم مصر في زمن يوسف (عليه السلام) لأنه كان من الهكسوس (أقوام جاءت من الشرق) وحكمت مصر، واستخدم تعبير (فرعون) لقب ملوك مصر من القبطيين في وصف ملك مصر لكونه من القبطيين في زمن موسى (عليه السلام). فسمّى القرآن الكريم كل واحد بما كان يُسمى ويُلقب به في تلك الأزمنة السحيقة . ينظر: فاضل صالح السامرائي: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، عمان – الأردن، (د. ط ، د. ت)، ص ٧ . هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، طبعة ثانية منقحة ومزيدة، آذار/ مارس٢٠٠٢م، رياض الريس للكتب والنشر، ص ١٠٣ .

([4]) ينظر: أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن، ص ١٢٧-١٢٨ .

والشَرْعُ – الشِرعة والشريعة–، في اللغة: عبارة عن البيان والإظهار. وشرع للقوم: سنَّ لهم شريعة. وفي التنزيل:{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ}(الجاثية ١٨)، أي على دين ومِلَّة ومنهاج. وشِرعةٌ: مذهبٌ، منهاجٌ، عادةٌ، مِثلٌ ([1]).

والشِرعة أو الشريعة عرفاً: هي الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل وينسخ اللاحق منها السابق... أو ما شرعهُ الله لعباده من الدين، ونظامه وأحكامه ([2]).

والسُنَّة: الطريقة والمثال، والسيرة، وَسُنَّةُ اللَّهِ تعالى قد تُقَالُ لِطَرِيقَةِ حِكْمَتِهِ وَطَرِيقَةِ طَاعَتِهِ. وإذا أُطْلِقَت في الشرع فإنما يراد بها ما أَمَرَ به النبيُّ (ﷺ) ونَهى عنه ونَدَب إليه قولاً وفعلاً مما لم يَنْطق به الكتابُ العزيز، ولهذا يقال في أدلة الشرع الكتابُ والسُّنَّةُ أَي القرآن والحديث. والسُّنةُ: مشترك بين ما صدر عن النبي (ﷺ) من قول او فعل أو تقرير، وبين ما واظب النبي (ﷺ) عليه بلا وجوب ([3]).

والطريقة: الطّريق والسيرة والمذهب والعادَةُ والسَّبيلُ الذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ أي يُضْرَبُ، وعنه اسْتُعِيرَ كلُّ مسْلكٍ يَسْلكُه الإنْسَانُ في فِعْلٍ محموداً كانَ أو مذْمُوماً، قال تعالى: {وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}(طه: ٦٣)، أَي بسُنَّتكم ودينكم. والطريقة: يُراد بها هنا المذهب الديني، والنظام الإداري الفرعونيّان السائدان في مصر ([4]) حينئذٍ ([5]).

---

([1]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٧، ص ٨٦–٨٩. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٦٧٦ . الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٥٠–٤٥١. الجرجاني: كتاب التعريفات، ص ١٢٦. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٤٧٩.

([2]) الجرجاني: كتاب التعريفات، ص ١٢٧ . وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ٦، ص ٢١٤–٢١٨ .

([3]) ينظر: مصطفى الزلمي: أصول الفقه الاسلامي في منهجه الجديد. ط٢، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل– العراق، ص ٤٨–٤٩ . ابن منظور: لسان العرب، مج ٦، ص ٣٩٥–٤٠٢ . الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٢٩ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١١١٢–١١١٣. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٤٥٦. جبران مسعود: الرائد، ص ٥٠٢ . الجرجاني: كتاب التعريفات، ص ١٢٢ .

([4]) مصر: سميت مِصْرُ بمصر بن مصرايم بن حام بن نوح (عليه السلام)، وهي من فتوح عمرو بن العاص في أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)... وأرض مصر أربعون ليلة في مثلها، طولها من رفح والعريش إلى أسوان وعرضها من برقة إلى أيلة... وسكانها أخلاط من الناس مختلفو الأصناف من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وأرمن وحبشان وغيرهم، من مدنها: القاهرة، الأسكندرية، أسيوط، الفيوم، الأقصر، أسوان. ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، أبو عبد الله، شهاب الدين، الشهير بـ(ياقوت الحموي): معجم البلدان، مج ٥، ط٢، ١٩٩٥، دار صادر، بيروت– لبنان، ص ١٣٧–١٤٣ .

([5]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٨، ص ١٥١–١٥٧ . الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥١٨ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٨٣٢–٨٣٣ . جبران مسعود: الرائد، ص ٥٧٥–٥٧٦ . عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٨، ط١، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م، دار القلم، دمشق، ص ١٦٤ .

**تعريف النظام اصطلاحاً:**

هناك إشكاليات عديدة حول مفهوم النظام في الاصطلاح، لهذا وضع الباحثون تعاريف متعددة له، وبسبب متعلقاته من حيث فهم ظواهره وأشكاله وتأثيراته في الأبعاد المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... الخ.

النظام: كمصطلح عرّفته موسوعة السياسة: على أنه " مصطلح يطلق على الظواهر والعلاقات والبنى الاجتماعية بما يفيد تبلورها وانتظامها في قواعد ومصالح وقيم واتجاهات متمايزة. ويتضمن النظام – سياسياً – مبادئ وإجراءات ومؤسسات وأجهزة تنظيمية تعمل لتحقيق هدف أو مصلحة ما. وكثيراً ما يستخدم المصطلح في قاموس السياسة ليعني قيادة وتركيب وعقلية الحكم في بلد ما " ([1]).

وعندما يذكر النظام يتبادر إلى الذهن أن هناك عناصر متعددة يتألف منها وأن التفاعل بين هذه العناصر هو الذي يجعل منها نظاماً، لا مجرد عدد من الأشياء التي تجمعها المصادفة ولا تصل بعضها ببعض أية علائق ([2])، والترابط الموجود بين عناصر النظام، يعد أساس الإدامة لهذه العناصر. فهي تتغذى ببعضها البعض، ولا يمكن تصور هذه العناصر سوية دون وجود هذا الترابط، لأنه ترابط حركي، يجمع بين أجزائه ([3]).

وبهذا المعنى يمكن دراسة الحياة السياسية كنظام، فالتفاعلات السياسية في أي مجتمع تشكل نظاماً لحركة الحياة فيه والسلوكيات والتصرفات بشكل عام.

## النظام السياسي:

لكون علم السياسة ([4]) والذي يندرج تحته النظام السياسي ظاهرة اجتماعية، وحسب التحليل الاجتماعي الحديث فان تقسيم المجتمع يمكن أن يتم على ضوء وجود خمسة أنظمة رئيسة

---

([1]) عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٦، ط٤، ١٩٩٩م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مركز الطباعة الحديثة، بيروت – لبنان، ص ٥٨٢-٥٨٣ .

([2]) ينظر: صالح جواد الكاظم وعلي غالب العاني: الأنظمة السياسية، ١٩٩١م، مطبعة دار الحكمة، بغداد، ص ٥ .

([3]) ينظر جوتيار عادل محمود: شرعية النظم السياسية في الشرق الأوسط (العراق نموذجاً) دراسة تحليلية مقارنة، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية القانون والسياسة في جامعة صلاح الدين، أربيل، ٢٠٠٣ ، ص ٧ .

([4]) السياسة: ساس الأمر سياسةً: قام به، وسُوِّسَ الرجلُ أمور الناس: إذا مُلِّك أمرهم، وسوَّس له أمراً: أي روَّضهُ وذلَّله، وسُسْتُ الرّعيّة سِياسةً: أمرتها ونهيتها، وساس: أدّبَ، وساسَ الناسَ سياسةً: تولّى رياستهم وقيادتهم، والسياسة: القيام بالشيء بما يصلحه، أو تولّي أمر الناس وإرشادهم إلى الطريق الصحيح، أو هي: ما كانت فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي. أو هي: فن ممارسة القيادة والحكم وعلم=

تتفرع عنها أنظمة ثانوية، وهذه الأنظمة الاجتماعية الرئيسة هي التي يتكون منها المجتمع بكامله، وفيما يأتي اشارة اليها:

١. **النظام التكاثري:** وهو كل ما يتعلق بدراسة الأجيال وشروط تكاثرها ونموها.

٢. **النظام الاجتماعي الجغرافي:** يتعلق بعلاقة السكان بما يحيطهم من ظروف جغرافية ومعيشية من موارد طبيعية وكيفية تواجد الجماعات بالصورة المتفرقة أو المجتمعة.

٣. **النظام الاقتصادي:** وهو كل ما يتعلق بنشاطات السكان في الإنتاج.

٤. **النظام الثقافي:** وهو يتعلق بتوزيع وتداول التقنيات المتعارف عليها في المجتمع فضلاً عن التبادل وتوفير الحاجات والخدمات داخل المجتمع. (لغة + قيم أخلاقية + دين..).

٥. **النظام السياسي:** وهو ما يتعلق بموضوع دراستنا، وذلك باعتبار النظام الاستبدادي شكلا من أشكال النظام السياسي.

إن النظام السياسي جزءٌ من كلٍّ تندرج عند دراستهِ دراسةَ الجوانب الأخرى من النظام الاجتماعي العام كالجانب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتقاليد التاريخية والاعتبار التاريخي والآيديولوجيات السائدة وقيم المجتمع ([1])، والتطورات والتغييرات الحاصلة على كافة الأصعدة في المجتمع والدولة، فالنظام السياسي نظام متحرك والحركة فيه واقع إجتماعي.

عليه فمن الصعب تحديد مفهوم وتعريف محدد للنظام السياسي، فلا يوجد هناك في كتابات الباحثين في هذا الموضوع بالذات تعريف جامع ومانع كما هو مقرر في علم المنطق.

فالنظام السياسي في عرف الباحثين القانونيين يرادف مفهوم نظام أو شكل الحكم، فهو عبارة عن مجموعة من المؤسسات التي تبين نظام وأساليب ممارسة السلطة ([2]). ويُعرّف على أنه مصطلح : " يستعمل غالباً لوصف الترتيبات السياسية لمجتمع ما " ([3]).

---

=السلطة أو الدولة. أما علم السياسة فإنه جاء في تعريفه أنه العلم الذي يشير على نحو عام إلى دراسة المسائل السياسية، أو قد يستعمل هذا المصطلح لتمييز المؤسسات والعمليات السياسية عن دراسة الأفكار السياسية ولا سيما وصف تلك الجوانب من دراسة السياسة التي تستند إلى النظرية التجريبية والتي تطمح إلى انتاج معرفة ذات أسباب مثبتة. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٦، ص ٤٢٩-٤٣٠ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٥١٠ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٤٦٢ . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٣، ص ٣٦٢. جبران مسعود: الرائد، ص ٥٠٦-٥٠٧ .

([1]) ينظر: حسان محمد شفيق العاني: الأنظمة السياسية و الدستورية المقارنة، ص ١١-١٢ و ص ٢٢ .

([2]) ينظر: جوتيار عادل محمود: شرعية النظم السياسية في الشرق الأوسط (العراق نموذجاً)، ص ٨ .

([3]) جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ترجمة: سمير عبد الرحيم جلبي، ط١، ١٩٩٩، الدار العربية للموسوعات، بيروت – لبنان،ص ٣٤٠ .

**خصائص النظام السياسي:** للنظام السياسي ثلاث خصائص رئيسة، هي:

١- التفاعل بين وحدات النظام. ويكون فردياً أو جماعياً، مباشراً أو غير مباشر، ثنائياً أو متعدد الأطراف.

٢- الاعتماد المتبادل. بمعنى أن أفعال طرف يؤثر على بقية الأطراف أو أن التغيير في وحدة ما يؤثر على باقي الوحدات.

٣- التوجه نحو الحفاظ على الذات. فكل نظام يبني مؤسسات ويتبع ممارسات يقصد من ورائها أن يحافظ على وجوده ([1]).

فالخصائص الثلاث، إضافة إلى عنصر القوة - الإكراه والقهر - أو بعبارة أخرى عنصر السلطة والمتضمن لمعنى القوة، إذا لم تتوافر في أي تجمع بشري استحال عدّهُ نظاماً سياسياً، وهناك خاصية فريدة للنظام السياسي يمكن أن نضيفها، وهي: أن النظام السياسي يقوم أساساً على العلاقة بين الحكام والمحكومين، فالحكام يصدرون الأوامر والمحكومون يطيعون هذه الأوامر كرهاً وقهراً، وحيث لا يكون الإكراه والقهر كما يسميه ابن خلدون ([2]) لا يكون النظام السياسي ([3]).

**والنظام السياسي مجموعة عناصر، منها:** التنظيمات السياسية، والقواعد السياسية، والعلاقات السياسية، والوعي السياسي، وتفاعل هذه العناصر يجعل منها نظاماً، ويمكن أن تعد من عناصره أيضاً مؤسسات الحياة الاجتماعية، والنقابات المهنية، والجماعات، والقواعد، والوظائف، والأدوار، التي تتفاعل والإدارة السياسية تفاعلاً وثيقاً ([4]).

---

([1]) كمال المنوفي: أصول النظم السياسية المقارنة، ط١، ١٩٨٧، الناشر: شركة الربيعان للنشر والتوزيع-الكويت، ص٤١

([2]) ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨ هـ / ١٣٣٢-١٤٠٦م): هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، المالكي، الفيلسوف، المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، السياسي، ولد في مدينة تونس، تلقى علوم الفلسفة والعلوم الشرعية واللسانية فيها، وتقلد المناصب المختلفة في القضاء والسياسة والعلوم والخطابة، عاصر حكومات كثيرة، يعدُّ المؤسس الأول لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، بسبب مجموعة القواعد العقلية التي انطلق منها في دراسة أحوال الدول والناس والعمران في كتابه المشهور والمعروف بمقدمة ابن خلدون، ويعدّ من أحد أعظم المفكرين العالميين في مختلف العصور، كان فصيحاً، جميل الصورة، كثير الحفظ، بارع الخط، حسن العشرة، من مؤلفاته: شرح البردة، وكتاب في الحساب، ورسالة في المنطق، وشفاء السائل لتهذيب المسائل، وله شعر، توفي في القاهرة . الزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٣٣٠. السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مج ٢، دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، ص١٤٥-١٤٩ . جبران مسعود: الرائد، بذيله: منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص ١٤ .

([3]) ينظر: جوتيار عادل محمود: شرعية النظم السياسية في الشرق الأوسط (العراق نموذجاً)، ص ١١ .

([4]) صالح جواد الكاظم وعلي غالب العاني:الأنظمة السياسية، ص ٥ .

**علاقة النظام السياسي بالأنظمة الاخرى:**

من المعلوم أن النظام مع الإقرار بذاتيته – أي بعدِّهِ وحدة مستقلة – فإنه ذا علاقة بالأنظمة الأخرى ويتعايش معها ويتأثر ويؤثر فيها سلباً أو إيجاباً ([1]).

وعوامل البيئة المختلفة تؤثر وتتأثر فيما بينها ويتفق أغلب الفلاسفة والمفكرين على أن العلاقة بين النظم المختلفة لها أثر كبير، ويؤكدون على أثر البيئة على مؤسسات الشعوب المختلفة إلا أنهم يختلفون بعض الشيء من حيث المضمون، فمنهم من يغلب البيئة الاقتصادية، ومنهم من يرى أن هناك ارتباطاً ضرورياً للنظام السياسي بالوضع الاجتماعي: بمعنى أن النظام السياسي انعكاس للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية، والبعض الآخر يرى أن المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية تتحكم بالمؤسسات الاخرى (والسياسية منها) إلا أن هذا لا ينفي أنّ للنظم السياسية شيء من الاستقلال عن البنى الاجتماعية والاقتصادية، وفي حدود هذا الاستقلال تؤثر في الصراعات السياسية، أصالة عن نفسها وليس وكالة عن غيرها، وعليه لا يمكن تصور وجود نظام سياسي خارجاً عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي لمجتمعه ولو جزئياً ([2]).

فالعلاقة بين النظام السياسي والأنظمة الأخرى إنما هي علاقة تأثير وتأثّر وعلاقة ترابط ولا يمكن الفصل بينها، وذلك باعتبارها ظاهرة اجتماعية حياتية مترابطة، والعلاقات فيما بينها علاقات تكاملية، ويرى البعض بأن الأصل العام في النظم الاجتماعية هو النظام الاجتماعي الذي تنبثق عنه النظم الفرعية الأخرى: كالاقتصاد والسياسة. وهذه النظم مرتبطة ومتشابكة بعضها مع البعض الآخر ([3])، وعليه فالنظام السياسي جزء من النظام الاجتماعي العام وفرع منه.

## الفرع الثاني

## تعريف الاستبداد: لغةً واصطلاحاً

**الاستبداد لغةً:**

كلمة مزيدة أصلها من مادة: (بدَّ)، وبابه (ردَّ)، وهي مصدر من الفعل السداسي (استبدّ)، بدَّ يَبُدُّ – الشيءَ-: فرَّقه. والتبديد: التفريق، و(استبدَّ)-فلان- بكذا: أي انفرد به وتفرّد به، يقال: استبدَّ بالأمر، يستبدُّ به استبداداً، إذا انفرد به دون غيره. واستبدّ الأمر بفلان: غلب عليه فلم يقدر أن يضبطه، ومنه: (استبدّ به الهمُّ)، واستبدَّ بأميره: غلب على رأيه، فهو لا

---

([1]) ينظر: حسان محمد شفيق العاني: الأنظمة السياسية و الدستورية المقارنة، ص ٩ .

([2]) ينظر: جوتيار عادل محمود: شرعية النظم السياسية في الشرق الأوسط (العراق أنموذجاً)، ص ١٢-١٣ .

([3]) ينظر: حسان محمد شفيق العاني: الأنظمة السياسية و الدستورية المقارنة، ص ١٠-١١ .

يسمع إلاّ منه ([1])، و " استبدّ بكذا: انفردَ بهِ مستقلاً، والمُستبِدّ: من يأخذ في شيء ولا يتركه إلا بعد إتمامه" ([2])، و " استبد الأمير بالسلطة: أخذها لنفسه و لم يشارك فيها أحداً، و لم يستشر " ([3])، والاستبداد: انفراد بالرأي والأمر ([4])، والاستبداد: " هو غرور المرءِ برأيه والأنفة عن قبول النصيحة أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة " ([5]).

فالاستبداد لغةً: هو الانفراد والتفرد بالشيء أو بالرأي والأمر دون غيره، وعدم المشاورة وأخذ الشيء للنفس ومنع إشراك الغير، وقد يتجسّد في شخص أو مجموعة، فالفاعل مُسْتَبِدٌّ، والموضوع مُسْتَبَدٌّ به.

**الاستبداد اصطلاحاً:**

الاستبداد أو النظام الاستبدادي أو الحكومةُ المستبِدَّةُ يطلق على الحكم، أو النظام الذي يستقل وينفرد بالسلطة فيه فرد أو مجموعة من الأفراد، عن طريق الاستحواذ والاستيلاء والسيطرة دون خضوع لقانون أو قاعدة ودون مبالاة برضا المحكومين أو النظر إلى آرائهم.

والاستبداد أكثر ما يكون في حكم (الفرد) إذا لم يكن للسلطات المعاونة إرادة بجانب إرادته، أي الانفراد بكل مظاهر السيادة والسلطان ولا يقيم وزناً للتشريعات والقوانين القائمة والحدود المتعارف عليها التي تحدد المظاهر في الدولة، ويتبع ذلك أن يخلو الحكم المستبِدّ من أجهزة الرقابة على الحكم ومحاسبته أو أن تكون هذه الأجهزة معطلة بالفعل ([6]).

---

([1]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ١، ص ٣٣٧-٣٤٠ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٢٥٦ . الرازي: مختار الصحاح، ص ٤٣ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٤٢ . جبران مسعود: الرائد، ص٦٦ و ١٩٢ .

([2]) منير البعلبكي: المنجد في اللغة والأعلام، ص ٢٨ ، (مادة بدد) .

([3]) محمد هلال الخليفي: جذور الاستبداد في الحياة السياسية العربية المعاصرة: قراءة تاريخية في مفهوم الاستبداد وتفسيره وآليات تكريسه، مقال منشور في كتاب (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة ، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية)، ط١، تموز/يوليو ٢٠٠٥، ، لبنان – بيروت، ص ٢٨٤.

([4]) جبران مسعود: الرائد، ص ٦٦ .

([5]) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢م): طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، منشورات دار الجمل، ط١، كولونيا (المانيا)- بغداد ٢٠٠٦، ص ١٣ .

([6]) ينظر: نخبة من العلماء: معجم العلوم الاجتماعية، اشرف على إخراجه مجمع اللغة العربية بالتعاون مع مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة ومع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ط ، د. ت)، ص ٣٠ . ثناء فؤاد عبد الله: قراءة في أوراق اللقاء الرابع العاشر لمشروع دراسات الديمقراطية، خلاصة تنفيذية، منشورة في كتاب (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ١٣ .

وعرّفته موسوعة السياسة على أنه: " حكم أو نظام يستقل بالسلطة فيه فرد أو مجموعة من الأفراد دون خضوع لقانون أو قاعدة ودون النظر إلى رأي المحكومين " ([1]).

ويقول الكواكبي ([2]) في تعريفه للاستبداد بأنه: " التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى " ([3]). ويعرِّفه مونتسكيو ([4]) بأنه: " الحكم الفردي المطلق الذي لا يخضع لعملية ضبط أخلاقي أو رقابة دستورية، ويتأسس في جوهره على أهواء الحاكم ونزوعاته الشخصية. وتنبني شرعية هذا النمط من الحكم أساساً على الخوف " ([5]).

فالاستبدادية: نظرية سياسية أساسها: أن السلطة المطلقة يجب أن تناط بحاكم واحد أو أكثر، ويطلق هذا التعبير على الحكومة التي لا يحدّ من سلطانها قانون، فتتعسف في الأداء، وتستعين بالعنف لفرض سلطتها غير المشروعة؛ لعدم استنادها إلى قاعدة الحكم، فالاستبدادية هي حكم مطلق من حيث عدم الخضوع للقانون أو قاعدة، ومن أبرز مظاهرها في العصر الحديث الحركتان الفاشية ([6]) والنازية ([1]). ([2]).

---

([1]) عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص ١٦٦-١٦٧.

([2]) عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧١-١٣٢٠هـ / ١٨٥٤-١٩٠٢م): عبد الرحمن بن احمد بن مسعود الكواكبي، ويلقب بالسيد الفراتي: رحالة، من الكتاب والأدباء، ومن رجال الإصلاح. ولد وتعلم في حلب، وأنشأ فيها جريدة الشهباء فأقفلتها الحكومة، وجريدة الاعتدال فعُطلت، وأسندت إليه مناصب عديدة، وسجن، فرحل إلى مصر، واستقر في القاهرة وتوفي بها، له من الكتب، أم القرى وطبائع الاستبداد، وكان كبيراً في عقله وهمته وعلمه، يُعدّ من كبار رجال النهضة الحديثة. الزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٢٩٨ . عبد الوهاب الكيالي،: موسوعة السياسة، ج ٣، ٨٢٩-٨٣٠ . عباس محمود العقاد: عبد الرحمن الكواكبي (الرحالة ك)، ١٩٦٩، دار الكتاب العربي، لبنان-بيروت، ص ٥٥ .

([3]) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٠ و ١٣-١٤ .

([4]) مونتيسكيو، البارون دو لا بريد أى دو **Montesquieu** (١٦٨٩-١٧٥٥م): فيلسوف أخلاقي، مؤرخ ومنظّر ومصلح سياسي فرنسي، يعدّ أحد أبرز الفلاسفة السياسيين في القرن الثامن عشر، صاحب الكتاب المشهور ((في روح القوانين))، ونظريته في فصل السلطات هي القاعدة التي تقوم عليها الدساتير في العالم منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم، وله أيضا رسائل فارسية، و آراء عن أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم. ينظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٦، ص ٤٨٣-٤٨٥ . جبران مسعود: الرائد، وبذيله: منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص ٢٣٣ .

([5]) ثناء فؤاد عبد الله: قراءة في أوراق اللقاء الرابع العاشر لمشروع دراسات الديمقراطية، خلاصة تنفيذية، ص ١٤ .

([6]) الفاشية / الفاشيستية (**Fascism**): نظام أو حركة أو فلسفة سياسية تمجد الدولة والعرق وتدعو الى إقامة حكم أوتوقراطي (فردي) مركزي على رأسه زعيم ديكتاتوري، والى السيطرة على كل شكل من أشكال النشاط القومي، ويطلق اسم الفاشية بخاصة على نظام الحكم الايطالي في عهد موسوليني. أما اللفظة نفسها فمشتقة من اللفظة اللاتينية (**fascis**) ومعناها (الحزمة) أو مجموعة القضبان المحزومة على فأس وكانت الحزمة شعار السلطة في روما القديمة . من أهم ملامحها باختصار: النزعة القومية المتطرفة، الجنوح نحو التسلط والعسكرة والتحكم بالإنسان من خلال المنطلقات الأيديولوجية، وتمجيد الزعيم الذي تُعدّ إرادته قانوناً، وهي عقيدة غير عقلانية. ينظر: هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية، مج ٤، ص ١٠٥-١٠٦ . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٦، ص ٤٤٩-٤٥٠ .

**مصطلحات وتعاريف متشابهة ومتداخلة:**

يختلط مفهوم الاستبداد بعدد من المفاهيم والمصطلحات التي تبدو مترادفات بالرغم من الفروق الدقيقة، فيما بينها، ولكنها ليست جوهرية، والفاصل بين هذه المصطلحات كلها هو خيط رفيع، ولا يمكن ملاحظته إلا عن طريق الصفات الغالبة في كل واحد منها، فالاستبداد، والحكم المطلق، والأوتوقراطية ([3])، والدكتاتورية ([4])، والتوتاليتارية -الكُلِّيانية- ([1])، والطغيان، والشمولية، كلها مفاهيم متقاربة المدلول، وتشترك في مقومات واحدة.

---

([1]) النازية (**Nazism**): المرادف الأصلي للكلمة، هو: الاشتراكية الوطنية. وهي اختصار للكلمتين (**National**) وتعني الوطني، و (**Sozialismu**) ومعناها الاشتراكية. وهو مفهوم سياسي واجتماعي ذو أبعاد ومعنى. ولكنه انحرف عن أصله وأصبح ضرباً من ((الكليشيه)) يطلق على نظام الحكم الألماني بقيادة أدولف هتلر في الفترة ما بين عام **١٩٣٣**- وعام **١٩٤٥**. وهذا النظام أو المذهب النازي يقوم على جملة من الأفكار والمبادئ، جمعت من هنا وهناك، ومنها: فكرة تفوق العرق الجرماني، والنزعة اللاسامية، وتمجيد الحرب والعنف، ومفهوم الدولة المستبدة، بل التوتاليتارية. ينظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٦، ص **٥٤٥**-**٥٤٦** . إبراهيم دسوقي أباظة وعبد العزيز الغنام: تاريخ الفكر السياسي، **١٩٧٣**، دار النجاح، بيروت، ص **٣٨٥** .

([2]) ينظر: منير البعلبكي:موسوعة المورد: دائرة معارف انكليزية – عربية مصورة، ط١، بيروت ، **١٩٨٠**، دار العلم للملايين – بيروت، مج ١، ص **٢٥** . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص **١٦٦**-**١٦٧** . نخبة من العلماء: معجم العلوم الاجتماعية، ص **٣٠**-**٣١** . جوردون مارشال: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة: مجموعة من المترجمين (المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة)، مج ١، ط١، **٢٠٠٠**م، ص **١٥** .

([3]) الأوتوقراطية (**Autocracy**): لفظ يوناني-إغريقي- مركب من مقطعين: (**Auto**) الذات، و(**Cracy**) سلطة أو حكم، وتعني السلطة الذاتية، أي تركز السلطة في شخص واحد. ينظر: نخبة من العلماء: معجم العلوم الاجتماعية، ص ٨٤ . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص **٣٨٢** . عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، مصطلحات و مفاهيم، ط٢، **١٤٢٤**هـ-**٢٠٠٣**م، دار القلم العربي، سوريا- حلب، ص **٢١٨** .

([4]) الدكتاتورية (**Dictatorshp**): تعبير ترجع أصوله إلى اللاتينية، وهي آتية من لفظ (**dictare**) الذي يعني فَرَضَ، وهو نظام عرفته روما في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، فقد كانت جميع السلطات تنحصر بشخص الحاكم ويدعى (قنصل) أو دكتاتور **Dictator** ولمدة محددة بين ستة أشهر إلى سنة واحدة، بناءً على طلب من الشعب (مجلس الشيوخ). وعلى هذا فان نظام الدكتاتور في روما هو نظام دستوري يقرر في أثناء الأزمات، كحالة العدوان الخارجي، أو الثورة الداخلية، أو الانقلاب العسكري. على أن هذا الاصطلاح تطور فأصبح يدل على تركز السلطة في شخص واحد بحيث لا تقيده قيود قانونية أو دستورية أو عرفية، مع عدم وجود حالة طارئة أو مدة مؤقتة لحكمه، ويستند على مبدأ الاستئثار بالحكم المطلق وأسلوب القهر والبطش. ينظر: هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية، مج ٢، ص ٧٢ . و مج ٩، ص **٣٠٥**-**٣٠٨** . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٢، ص **٦٨٤**-**٦٨٥** . جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص **١٣٢**. احسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع، ص **٢٨٢** . محمد كاظم المشهداني: النظم السياسية، **١٤١١**هـ - **١٩٩١**م، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، ص ١١- ١٣ .

**فالحكم المطلق** يرتبط بالتفسير الثيوقراطي ([2]) لأصل الدولة، والذي يبرر سلطة رئيس الدولة وسيادته بإرادة سماوية ومشيئات فوق إرادة البشر، فسلطته مستمدة من سلطة الإله وأعمالُهُ لا رقيب عليها إلا الله ولا مسؤولية أمام أية هيئة أو قانون ([3])، فالحاكم لا يخضع للمحاسبة أو القانون ([4]). والحكم المطلق: عقيدة وشكل للحكم لا تفرض فيه قيود دستورية على سلطات المؤسسة المهنية، علماً بأنه في الكثير من الأحيان تبقى الكثير من الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية حرة من التوجيه المركزي وفي الحالات من هذا القبيل يكون الحكم المطلق مختلفاً عن الحكم التوتاليتاري ([5]).

**والأوتوقراطية أو السلطة الذاتية:** تطلق اصطلاحاً على الحكم الفردي والذي يتسم بتركز السلطة والقوة بيد شخص واحد، وممارسة السلطة السياسية عن طريق الإرادة الاعتباطية بدلاً من ممارستها عن طريق القوانين المعروفة. وفي استعماله إياها بعض الأحيان تحقيقاً لمآربه الشخصية، ويمارسها على نحو تعسفي، كما هو الحال على سبيل المثال في الأوتوقراطية الستالينية

---

([1]) التوتاليتارية (**Totalitarianism**) – الكُلّيانية –: مفهوم عرف العديد من التفسيرات والتأويلات، أولاً بدأ لوصف الأنظمة والحركات السلطوية في الثلاثينات من القرن العشرين، ومن ثم أصبحت تطابق لفظة السلطوية، وبعدها تعددت التعاريف ولكن أغلبها تركّز على موضوع التحكم بالإنسان من خلال المنطلقات الأيديولوجية. ينظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٥، ص ١٣٦–١٣٧ .

([2]) ثيوقراطي **Theocracy**: لفظ يوناني – أغريقي – مركب من مقطعين: (**Theoc**) إله أو رب، و (**Cracy**) سلطة أو حكم .ويعني الحكم الإلهي أو سلطة الرب. والثيوقراطية مذهب يقوم على تعليل السلطة السياسية لدى الجماعة على أساس الانقياد الديني، فالنظام الثيوقراطي: هو النظام الذي يستند إلى فكرة ونظرية الحق الإلهي التي تعدّ الله مصدراً للسلطة والحاكم بمثابة المفوض من السماء وبوصفه وكيل مباشر لمعبود لأداء دوره السياسي والديني، فالسلطة الزمنية تستمد مقوماتها من المشيئة الإلهية، ويتم اختيارها بعنايتها و بتوجيه منها. والدولة الثيوقراطية: دولة تتحكم في رقاب الناس أو ضمائرهم باسم الحق الإلهي وهي دولة الكهنة أو رجال الدين الذين يزعمون أنهم يمثلون إرادة الخالق في دنيا الخلق أو مشيئة السماء في أهل الأرض. و (دولة الإسلام دولة مدنية تحكم بالإسلام وتقوم على البيعة والشورى، والحاكم في الإسلام ليس له صفة مقدسة) وعليه من الضروري التمييز بين الثيوقراطية بصورها المختلفة وبين فكرة الخلافة أو الدولة الاسلامية، لأن الخليفة أو رئيس الدولة في الإسلام ينفذ الأوامر والنواهي الدينية، ولكنه يستمد سلطته من اختيار الأمة له. ينظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص ٩٢٨ . نخبة من العلماء: الموسوعة العربية الميسرة، ط٢، ١٩٧٢، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين، مصر – القاهرة، ص ٥٨٩ . يوسف القرضاوي: من فقه الدولة في الإسلام، مكانتها..معالمها، ط٣، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م، دار الشروق، ص ٣٠–٣٤ .

([3]) نخبة من العلماء:معجم العلوم الاجتماعية، ص ٣١ .

([4]) عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص ١٦٨.

([5]) جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ١٩ .

في الاتحاد السوفيتي السابق، والهتلرية في المانيا، وعيدي أمين في أوغندا، وفرانسوا دوفالييه في هاييتي ([1]).

**والدكتاتورية:** مصطلح سياسي يوصف به نظام الحكم الذي تتركز السلطة بمقتضاه في يد الدكتاتور أو الزعيم الذي يتفرد بمظاهر السيادة والسلطان، ويمارسها بحسب مشيئته ويهيمن بسطوته على جميع السلطات – التشريعية والتنفيذية والقضائية – ويملي القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية من دون أن تكون هناك مراقبة حقيقية على أداء نظامه أو معارضة سياسية في المجتمع، ويعتمد على استعمال أساليب القهر والبطش والتنكيل إزاء الشعب أو الفئة المحكومة بغية إخضاعها لمشيئة وإرادة السلطة الحاكمة، وهو نظام شخصي لا يرتكز على الشعب، ولا يعترف بالإرادة العامة، وهو لا يستمد هذه السلطات عن طريق وراثة العرش ولكن من نفوذه الشخصي وقوة أتباعه ومبلغ سيطرته الفولاذية، وذلك إثر ثورة أو انقلاب ([2])، أو يتولاها بطريق ديموقراطي يفضي فيما بعد إلى تركيز السلطة بيده ([3]).

والقاعدة التي يقدمها الدكتاتور لتولي السلطة واستمرارها، والعنف الضروري لمواصلة حكمه: هو الوجود المفترض للخلاف أو الخطر الخارجي، وهكذا فانّ الدكتاتورية وجه آخر من الحكم الاستبدادي ([4]).

**التوتاليتارية – الكُلّيانية –:** وتعني في مدلولها نظام الحكم الذي يخضع كل المنظمات رسمية كانت أم شعبية لهيمنة الدولة مع تبديد لروح المعارضة واستعمال مفرط للرقابة والدعاية وإشاعة لعبادة الشخصية واستخدام للارهاب في سبيل إحكام السيطرة التامة على شؤون الأمة

---

([1]) ينظر: عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص ٢١٨ . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص ٣٨٢ . نخبة من العلماء: معجم العلوم الاجتماعية، ص ٨٤ . جوردون مارشال: موسوعة علم الاجتماع، مج ١، ص ٢٤٩ . جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٣٧ .

([2]) الانقلاب: هو الاستيلاء على السلطة السياسية بأساليب عنيفة وغير شرعية، وغالباً ما تشترك فيها عناصر من القوات المسلحة. ينظر: جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٣٧٢ .

([3]) ينظر: هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية، مج ٩، ص ٣٠٥–٣٠٨ . إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، ص ٢٨٢ . نخبة من العلماء: معجم العلوم الاجتماعية، ص ٣٢ . مكتب الثقافة والأعلام، القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي: تعريفات ببعض المصطلحات، (د. ط ، د. ت)، ص ١٣٦ . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٦٨٤–٦٨٥ . محمد كاظم المشهداني: النظم السياسية، ص ١١– ١٣ . جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ١٣٢–١٣٣ .

([4]) جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ١٣٢.

وتسيير إقتصادها وسياستها وثقافتها في وجهة مفروضة شاملة ([1]). أو هي نظام سياسي لدولة ما، يتميز بالهيمنة الكلية على النشاطات الفردية من خلال تبنيها لأيديولوجية معينة ([2])، فهو مفهوم يطبق على النظام الذي يحاول ممارسة السيطرة التامة على جميع جوانب الوجود الاجتماعية ضمن سلطته ([3]).

**والطغيان:** يشير هذا المصطلح إلى علو الشيء وتجاوزه الحدود المعهودة، ومنه طغى الماء، أي تجاوز حدوده ([4]).

والطغيان: نظام حكم يحكم بالعنف دون مبالاة بالعدالة والقوانين. وربما عُدّ مفهومه من أقدم المفاهيم التي اختلطت بمفهوم الاستبداد. إذ استخدم للإشارة إلى أنظمة الحكم التي تسرف في استخدام القوة في إدارة السلطة، والسيطرة السياسية التامة بواسطة حاكم فرد ([5]).

**والشمولية:** من المفاهيم الحديثة التي تفيد معنى الاستبداد، وتتفق مع المفاهيم السابقة في سيطرة فرد أو مجموعة أفراد على الحكم، وتختلف عنها في أنه يسعى لصهر أفراد المجتمع في بوتقة أيديولوجية واحدة ([6]).

وأرى بأن الأنظمة الاستبدادية الحالية جميعها تتضمن كل مدلولات المصطلحات المذكورة، والمحور الذي تدور حوله هو: الانفراد بإدارة شؤون المجتمع من قبل فرد أو مجموعة، عن طريق الاستيلاء والسيطرة من دون وجه حق، مع استخدام القوة في إدارة السلطة، والعنف، والإرهاب لإحكام السيطرة، وعبادة الشخصية، والشمولية، وهذا يعني أن سلطاتها تمتد إلى كل نواحي نشاط أو حياة الفرد في المجتمع، فالممارسات كلها ينبغي أن لا تمارس بعيداً عن الدولة، وليس هناك فكر أو عمل خارج عن إطارها، وتعدُّ الحقوق والحريات حتى الطبيعية منها منحة من (**الحاكم**)..

وبوجه عام لا ضمان للعدالة مع الاستبداد، لان تحقيق العدالة والمساواة رهين بوجود القوانين ومدى ومبلغ التزام الحكام بها ([7]).

---

([1]) هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية، مج ٢ ، ص ٧٢ .

([2]) عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٥، ص ١٣٦-١٣٧.

([3]) ينظر: جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٤٥٦.

([4]) ينظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٢٠ .

([5]) ينظر: محمد هلال الخليفي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٢٨١-٢٨٢.

([6]) المصدر نفسه: ص ٢٨٣ .

([7]) ينظر: نخبة من العلماء: معجم العلوم الاجتماعية، ص ٣٢ .

والاستبداد كظاهرة اجتماعية سياسية لا يولد اعتباطاً ولا يتراكم جزافاً، وإنما تحكمه مجموعة معقدة ومتشابكة من الأسباب والشروط والظروف، يتداخل فيها الديني والفكري والثقافي، والذاتي والموضوعي، والسياسي والاقتصادي. فهو ثمرة مجموعة مركبة من القوى والبواعث المختلفة في طبيعتها، المتفاوتة في درجة تأثيرها، المتشكلة بظروف المكان والزمان ([1]).

## المطلب الثاني

## الإطار التاريخي لنشوء الدولة والنظام

إن اختلاف وجهات النظر وتعارض المصالح بين البشر من سنن الله في خلقه، فقد قال ((سبحانه وتعالى)):{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ،إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} (هود: ١١٨-١١٩)، وهو القائل:{وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (البقرة : ٢٥١).

والسبيل لحسم الخلافات إما أن يكون بالقمع واستخدام القوة أو الخضوع لحكم القضاء، وفي ظل القوة لا يأمن الإنسان على نفسه ولا عِرضه ولا ماله، فكان الخضوع لحكم القضاء، هو السبيل الأمثل.

والقضاء لا بُدَّ وأن يستند إلى قانونٍ أو أعرافٍ وتقاليد يتعارف عليها البشر أو يقومون بصياغتها، لكي تكون الحَكَم فيما بينهم عند حدوث الخلافات والمنازعات. وهكذا وفي ظل القضاء نشأ القانون.

فالقوانين والأعراف المتعلقة بحرية الفرد ومحافظته على حياته وترتيب علاقاته فيما بينه وبين مجتمعه وخاصة فيما يتعلق بالجماعة من حقوق وواجبات، والقوانين والأعراف المتعلقة بمعيشته – مأكله، مشربه، مسكنه، ماله– وكيفية الحصول عليها، كانت الأساس للنظام السياسي، ونشأتِ الدولة ضماناً لتأمين هذه الحاجات ولحَقِ الأفراد في التقاضي ([2]).

---

([1]) ينظر: محمد هلال الخليفي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٢٨٠ .

([2]) ينظر: تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٤ ، نحو الحرية في الوطن العربي: المكتب الإقليمي للدول العربية ، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي،٢٠٠٥، المطبعة الوطنية، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ص ١٤٧ .

وهنا يظهر بشكل جلي نزوع الإنسان نحو الانتظام والاتساق والتناغم مع بني نوعه، فالإنسان بالطبع كائن اجتماعي ([1])، فالنظام طبيعة فطرية في الكائنات الحية وقانون إلهي يسير مع الحياة جنباً إلى جنب فإذا انفصل عنها فقدت موازينها واضطربت أحوالها، فالنظام في الحياة الإنسانية ضرورة تفرضها الحياة ذاتها، وهي أمر ضروري لوجودها.

النظام دعامة أساسية ترتكز عليها الحياة الصالحة لبني البشر. وقد علّمنا الخالق ((سبحانه وتعالى)) من خلال آياته الكونية، ضرورة النظام في الحياة، فهو سبحانه أقام هذا الكون على نظام بديع جعل فيه كل شيء بقدر، قال تعالى:{**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**}(القمر: ٤٩). فلا بد للجنس البشري من نظام يسير على هديه، لينأى به عن الفوضى والاضطراب، فالنظام هو القانون الذي يربط بين إفراد المجتمع وفي ظله يعرفون ما لهم وما عليهم ([2]).

فكانت الأسرة هي البدء وبعد تكاثرها ظهرت البيوتات وكانت القبيلة، فأصبحت بحاجة إلى مجموعة من الأنظمة والقواعد لكي تستطيع إدارة شؤونها وتدبير أمورها والمحافظة على وجودها مع تحقيق الأمن الداخلي وضمان أمنها الخارجي.

القانون هو وليد ظروف متعددة ومتشابكة: دينية وفكرية وسياسية واقتصادية تحيط بالمجتمع الذي يحكمه. ولهذا فان الفهم الصحيح لحقيقة القانون السائد في مجتمع ما لن يتأتى إلا بالإحاطة الشاملة للعوامل التي أدت إلى تشكيل قواعده، وهي عوامل متطورة ومتصلة الحلقات تتدرج مع سنة التقدم والارتقاء ([3]).

فالقوانين والأعراف هي إحدى حلقات تنظيم المجتمع وترتيب أموره، ولهذا نرى استمرار الناس في العيش ضمن جماعات تتحكم فيها قوانين وأعراف مع كونها من وجهة نظر معينة على إنها تعد نوعاً ما كقيود وضوابط تحد من حرية الإنسان واستقلاليته، وإنّ استمرار الناس على العيش ضمن جماعات، فما ذلك إلا لأنهم وجدوا فيها فائدة ومصلحة واكتشفوا فيها خيراً تراءى لهم وكأنه مبرِّر لوجود الجماعة ولحياتهم المشتركة، وما لاشك فيه أنه لو لم تجد

---

([3]) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، والمعروف بمقدمة ابن خلدون، تحقيق وفهرسة: سعيد محمود عقيل، ط١، ١٤٢٦هـ -= =٢٠٠٥م، دار الجيل، بيروت، ص ٤٤ . أرسطو طاليس: السياسة، ترجمة: أحمد لطفي السيد، منشورات الفاخرية بالرياض بالاشتراك مع دار الكاتب العربي في بيروت، (د. ط ، د. ت)، ص ١٠٢ .

([1]) ينظر: حسن عبد الحميد عويضة: النظم الإسلامية والمذاهب المعاصرة/ دراسة مقارنة، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، دار الرشيد، الرياض، ص ٥-١٢ .

([2]) ينظر: هشام علي صادق: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، ط٢، ١٩٨٢، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ص٧.

الطبيعة الإنسانية خيراً في هذا النوع من الحياة فهناك احتمالات قوية في ألاّ تحظى أي وحدة سياسية بشيء من الدوام والاستقرار ([1]).

وإنّ عدم كفاية الحياة الفردية تدفع الإنسان إلى التعاون مع أخيه لتحقيق الاحتياجات المادية والمعنوية، والحاجة الإنسانية في نظر أفلاطون ([2]) هي المحور الذي يرتكز عليه وجود الدولة، ويشبهها بالفرد، فهي وحدة حية مكونة من طبقات كما يتكون جسم الإنسان من أعضاء. وكل طبقة تؤدي وظيفة خاصة وترتبط جميعاً ارتباطاً وثيقاً وتسعى جاهدة إلى غايات مشتركة. وهي أول تنظيم سياسي واجتماعي تدعو إليه الطبيعة ([3]).

وكان تطور الإنسان من المشاهدة إلى التحسس لما حوله من كائنات ثم إلى فهمها وتبادل المنافع معها سياسة... ثم إن تحول الإنسان – بفضل ابتكاره للأدوات واختراعه للآلات – من فردية العلاقة والمنفعة إلى جماعية العلاقة والمنفعة كان بدوره سياسة. وفي كل طور من أطوار التطور وفي كل مرحلة من مراحل التحول كان لابد للإنسان من التنظيم والنظام، وكان ذلك سياسة ايضاً ([4]).

فالمجتمع البشري لا بدّ له من نظام يدبِّر شؤونه، فالتجمع والاجتماع ضرورة حياتية، لأنه يستحيل البقاء في فوضى دون وجود قانون وحاكم، فالنظام والسلطة السياسية ظاهرة اجتماعية، لا يتصور وجودها خارج إطار جماعة، كما لا يتصور قيام الجماعة أو المجتمع بدون نظام وسلطة.

والنظام السياسي لا يمكنه أن يكون إلا نتيجة قرار جماعي سواءً كان عفوياً أم مبرمجاً. وبما أن الحالة الطبيعية [أي بدون قانون ونظام] لا تُحتمل، و بما أن رغبة القوة ورغبة الحياة،

---

([1]) ينظر: جوليان فروند: ماهي السياسة، مراجعة: عبد اللطيف قطيش، مقال منشور في الفكر العربي: مجلة الانماء العربي للعلوم الإنسانية، تصدر عن معهد الانماء العربي في بيروت، تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٨١م، العدد الثالث والعشرون، السنة الثالثة، ص ٣١٨ .

([2]) أفلاطون (٤٢٨ أو ٤٢٧ ؟–٣٤٧ ق.م.): فيلسوف ومفكر وسياسي مثالي إغريقي يوناني، ولد في أثينا ومات فيها. تلميذ سقراط، يُعدُّ هو وسقراط وأرسطو واضعي الأسس الفلسفية للثقافة الغربية. من أشهر محاوراته: كتاب ((الجمهورية))، وقد رسم فيه صورة للمدينة الفاضلة كما تخيلها، وله كتاب القوانين وكتاب رجل الدولة، ويعدّ مؤسس أول جامعة في العالم سميت بالجامعة الأفلاطونية، التي كانت تدرس فيها ثلاثة مواضيع، هي: الفلسفة والرياضيات والموسيقى. عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص ٢٣٢ . جبران مسعود: الرائد، ص ٣٧ .

([3]) ينظر: مصطفى الخشاب: النظريات والمذاهب السياسية، مطبعة لجنة البيان العربي، (د. ط ، د. ت)، ص ٣٢–٣٣ .

([4]) نيقولو مكيافللي: الأمير، ترجمة: خيري حماد وتعقيب: فاروق سعد، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ٣٦١ .

والحياة بسلام، تتناقضان [أو بالأحرى تتصارعان أو تتدافعان]، فان القدرة التقريرية الخاصة بالإنسان تأمر عندئذٍ ببناء «سلطة عليا» تكون غايتها فرض نظام يزيل العنف الطبيعي وتحل تسالم الجميع محل تغالبهم و تحاربهم ([1]).

علماً بـ " أن النظام السياسي يتفاعل والأنظمة الأخرى في المجتمع، بالرغم من ممارسته السلطة العليا فيه، ولا تعني هذه السلطة بذاتها إنفصال النظام السياسي عن البيئة الاقتصادية- الاجتماعية التي يتحرك فيها، ذلك أنه في المآل الأخير وليدها، فهي أساسه وهو البناء الذي يقوم عليها " ([2]).

## نظريات بدء تكوين الدولة ونشوء النظم:

هناك نظريات متعددة ومختلفة حول بدء تكوين الدولة ونشوء النظم، والقصد من النظم هنا هو (النظام) من حيث ممارسة السلطة، **ومن هذه النظريات:**

**١-نظرية التعاقد الاجتماعي – العقد الاجتماعي –:** تستند هذه النظرية على أن أصل الدولة راجع إلى فكرة التعاقد الاجتماعي، فهي عبارة عن تعاقد حرّ صادَقَ عليه الأفراد، واتفقوا بمقتضاه على أن يعيشوا مجتمعين، وقرروا أن يتنازلوا عن بعض من حرياتهم الطبيعية لإطاعة القوانين التي تصدرها الجهة المخولة بحكمهم سواء كانت فرداً أم هيئة (حكومة)، وتسمى هذه النظرية أحياناً بـ «النظرية الديمقراطية» لأنها ترجع أصل السلطة ومصدرها إلى الإرادة العامة لجميع المواطنين، وتقرر أكثر من ذلك أن السلطة لا تكون مشروعة إلا إذا كانت وليدة تلك الإرادة العامة أي إرادة الأمة.

**٢- نظرية الأصل الإلهي:** نظرية تقرر فرضيات بسيطة، ومنها أن الدولة كانت قد تألفت بشريعة الإله وحكامها يعينون بقدسية، وهم لا يخضعون لمحاسبة أي سلطة أو مرجع سوى الله. وهذه النظرية تعدّ أنّ الدولة نظام إلهي أوحي به لتحقيق الغاية من الاجتماع الإنساني.

**٣- نظرية القوة:** نظرية في شكلها البسيط تقول: إن الحرب هي التي أوجدت الملك. والدولة هي نتيجة لانتصار القوي على الضعيف، وهي نظام اجتماعي فرضه فريق غالب على فريق مغلوب خلال المراحل الأولى من تكوينها.

---

([1]) ينظر: فرنسيس واوليفر: تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط١، ١٩٨٤م، سلسلة غير دورية، تصدر عن مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ص ٧٤.

([2]) صالح جواد الكاظم وعلي غالب العاني: الأنظمة السياسية، ص ٧ .

**٤- نظرية سلطة الرجل:** النظرية هي كما يأتي: كانت العائلة وحدة المجتمع البدائي، ومنها انحدر الأصل من خلال المذكر، والذي كان الأب هو الأكبر في القمة بصورة مطلقة. وتنقسم العائلة المفردة إلى عوائل وهذه العوائل تتحد سوية تحت زعامة العائلة الأولى (الرئيس أو الأب) فتتكون القبيلة، ومجموعة من القبائل تكون الدولة. وباختصار الدولة هي امتداد للعائلة.

**٥- نظرية ولاية المرأة (سلطة المرأة):** هذه النظرية تقرر أنّ المجموعة البدائية لم يكن لها زعيم ذَكَر عام، وإنّ تلك القرابة بينهم يمكن أن تنحدر فقط من المرأة.

**٦-نظرية التطور:** وهي النظرية التي تقرر بأن الدولة إنما هي نتاج تطور طبيعي وحصيلة تاريخية، ونتيجة لتظافر عوامل متعددة، منها: الدين والوعي السياسي والقرابة والحرب... الخ.

والنظرية المقبولة عموما من هذه النظريات هي النظرية المعروفة بالنظرية التطورية، التي لا تعدّ الدولة نظاما مقدساً - الأصل الإلهي - ولا تدبيراً إنسانياً مقصوداً - التعاقد الاجتماعي - و لم تظهر فجأة، و لم تقم نتيجة القهر والإكراه، إنما جاءت إلى الوجود نتيجة لتطور طبيعي، فالدولة هي حصيلة تاريخية، ولا يمكن لأحد أن يعزي آثار بدء حكومة إلى وقت أو سبب معين، بل إنها نتيجة لعوامل مختلفة، تداخلت خلال عصور ([1]). وتعدّ هذه اقرب النظريات السابقة إلى الصواب وأقربها إلى حقائق الأمور ([2]).

ومنذ وجد الإنسان، والمجتمعات البشرية تمر بمراحل معينة من النمو والتطور والارتقاء والتدهور والسقوط والفناء، لأن من طبيعة الظواهر أن تحدث في ظل ظروف وملابسات محددة وفقاً لطريقة معينة فحيثما وجدت هذه الظروف والملابسات وجدت الظواهر.

ويقرر ذلك ابن خلدون في قوله: إن الحضارات والدول والحكومات لها أعمار وأدوار وأنها تمر بأربعة أدوار، وهي: البداوة والتحضر والترف ومن ثم التدهور الذي يفضي إلى السقوط والفناء ([3]).

فالإنسان لم يبدأ حياته في هذه الدنيا جاهلاً بالأمور، بل كان مطلعاً على الأسماء كلها، كما يقرر ذلك القرآن الكريم، قال تعالى:{**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**}(البقرة : ٣١)، أي علّم آدم أسماء جميع المسميات، وهو المعنى الحقيقي للاسم، والتأكيد بقوله: {**كُلَّهَا**} يفيد أنه علّمه جميع الاسماء

---

([1]) ينظر: ابدوريا: المدخل إلى العلوم السياسية - النظريات الأساسية في نشأة الدولة وتطور الأحكام والنظم والقوانين والدساتير في أهم دول العالم -، ترجمة: نوري محمد حسين، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، مطبعة عصام، بغداد، ص ١٣-٤٠ . ينظر: مصطفى الخشاب: النظريات والمذاهب السياسية، ص ١٩٣-١٩٤ .

([2]) مصطفى الخشاب: النظريات والمذاهب السياسية، ص ١٩٥ .

([3]) ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٨-١٦٣ .

و لم يخرج عن هذا شيء منها كائنا ما كان... وعلمه أحوالها، وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ([1])، فالسر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة. هو سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها رموزاً للأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان ([2]).

وقال تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}(البقرة: ٣٠)، أي " اذكر يا محمد لقومك قصة خلق أبيهم آدم، حين قال الله للملائكة: إني متخذ في الأرض خليفة، يقوم بعمارتها وسكناها، وينفذ أحكامي فيها بين الناس، وتتعاقب الأجيال من بعده في مهامه كلها حتى يعمر الكون " ([3]). وقال ابن مسعود (رضي الله عنه): " إنما معناه خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري... ويعني بذلك آدم (عليه السلام) ومن قام مقامه بعده من ذريته " ([4]).

ثم جاءت بعد ذلك مراحل تكوين الأسرة البشرية وتوفير مستلزمات الحياة ومقتضياتها من مأكل ومشرب ومسكن وأمن واستقرار، وكان هذا التحول يسير وفق قوانين التغيير في المجتمعات وهي بين مد وجزر في التقدم والتطور وتحصيل أدوات العلم والرقي، وفي الوقوع تحت وطأة الجهل والخرافة والأساطير وسيطرة الكهنة والمنجمين والسحرة.

## المطلب الثالث

## أنواع الأنظمة

هناك شبه تداخل وتشابك في التعريف وبيان المفهوم بين مصطلحات – الدولة والحكومة والنظام السياسي والمنتظم السياسي – في العلوم السياسية.

---

([1]) ينظر: الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، ص ٧٠ . محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، حققه: أبو حفص سيّد بن إبراهيم، ط١، ١٤١٣هـ–١٩٩٣م، دار الحديث، القاهرة، مج ١، ص ٨٠ .

([2]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ١، ط٣٤، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، دار الشروق، القاهرة، ص ٥٧ .

([3]) وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ١، ص ١٢٤ .

([4]) عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرّر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ج الأول، ط١، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص ١١٧ .

ولا توجد ضوابط ثابتة تميِّز وتفرِّق بين مصطلح وآخر، وهناك اختلاف كبير بين الباحثين والكُتّاب في هذا المجال حول محددات كل مصطلح، وكذلك الأنواع والأشكال المختلفة لها وذلك حسب المجال أو الممارسة لكل منها.

من الصعب إيجاد ضوابط ومحددات للمصطلحات بشكل عام، وذلك لكون التداخل والتفاعل بينها جميعا تداخل الجزء بالكل أو الكل بالجزء مع وجود التفاعل والتداخل بين مفرداتها والعناصر المتكونة منها وتأثُّر بعضها بالبعض الآخر .

" فالدولة هي سلطة عامة، والسلطة العامة حسب (نظرية مبادئ الحكم الدستوري) هي: البنية المعقدة للمؤسسات التي من خلال الادعاءات التاريخية، والقانونية، والأخلاقية، والفلسفية، تُجسِّد قيوداً ذاتية وتوزيعاً للسلطة والقوة وسلماً هرمياً معقَّداً من القواعد والأعراف التي تعمل على تنظيم السلطة مؤسساتياً وتنظيم العلاقات بين المواطنين والقوانين والمؤسسات السياسية " ([1]).

ويمكن تحديد الدولة بمعنى واسع بأنها كيان (سياسي – قانوني) يرمز إلى إقليم معين تقطنه مجموعة من السكان تؤلف مجتمعاً تحكمه سلطة سياسية أو حكومة، ويرتبط بعناصر الدولة هذه عنصر السيادة التي تعني حق الدولة في تقرير شؤونها الداخلية والخارجية كما تراها و بدون أن تتجاوز على حقوق الدولة الأخرى أو قواعد القانون الدولي ([2]).

وعرفته موسوعة السياسة بأنها: الكيان السياسي والإطار التنظيمي الواسع لوحدة المجتمع والناظم لحياته الجماعية وموضع السيادة فيه، بحيث تعلو إرادة الدولة شرعاً فوق إرادات الأفراد والجماعات الأخرى في المجتمع وذلك من خلال امتلاك سلطة إصدار القوانين واحتكار حيازة وسائل الإكراه وحق استخدامها في سبيل تطبيق القوانين بهدف ضبط حركة المجتمع وتأمين السلم والنظام وتحقيق التقدم في الداخل والأمن من العدوان في الخارج ([3]).

**والحكومة (Government)**: الهيئات أو المؤسسات التي تضع القواعد وتصنع السياسات وتنفذها في شكل قرارات تلزم مجتمعاً سياسياً معيناً – سواءً كانت دولة او مدينة او اقليماً او قبيلة أو أية منظمة أخرى – يتجسد في الدولة بالدرجة الأولى. وكما تعني الكلمة أيضاً نشاط الحكم أي وضع القواعد وتنفيذها وتقديم التحكيم بشأن تنفيذها ([4]).

---

([1]) أندرو فنسنت: نظريات الدولة، ص ٢٧٢-٢٧٣ .

([2]) ينظر: مكتب الثقافة والاعلام: تعريفات ببعض المصطلحات، ص ١٦٧ .

([3]) عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٧٠٢ .

([4]) عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ص ١٨٨-١٨٩ .

وعرفتها موسوعة السياسة بأنها: هيئة جماعية مكلفة بتأمين الإدارة السياسية للبلاد، وتنظيم وسائل هذه الإدارة وتحمل مسؤوليتها ([1]).

والحكومة تعبير يستخدم للدلالة على مجموع الهيئات الحاكمة أو المسيرة للدولة، وهي السلطات العامة الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية ([2]).

وتستخدم كلمة الحكومة بمعنى أضيق من ذلك، حيث يقصد بها الوزارة في الدول التي تأخذ بالنظام النيابي البرلماني، وباختصار فان الحكومة هي الجهاز الذي يمارس مظاهر السلطة في الدولة ([3]).

عندما نتحدث عن أنواع الأنظمة تتبادر إلى الذهن جميع الأشكال المتعلقة بالسلطة السياسية من غير التفريق بين أنواع النظام السياسي وأشكال الحكم، فالوحدات التي يتكون منها النظام السياسي، يمكن أن تضاف إليها أمور أخرى بمرور الزمن أو تظهر أشكال متنوعة ومختلفة بحسب الظروف الزمانية والمكانية وبحسب البنية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي تتغير وتتطور نتيجة التفاعلات والتداخلات البنيوية لمجتمع ما.

فالمراد بالنظام هو نظام الحكم الذي يسود دولة معينة. وتبعاً لذلك يكون هناك ترادف بين تعبير النظم السياسية والقانون الدستوري، ذلك القانون الذي يتضمن مجموعة القواعد التي تتصل بنظام الحكم في الدولة فتستهدف تنظيم السلطات العامة فيها وتحديد اختصاصاتها وكذلك العلاقة بينها كما تبين حقوق وواجبات الأفراد في الدولة، وعليه فالنظام السياسي هو كيفية ممارسة السلطة في الدولة ([4]).

وحصر النظام السياسي بشكل أو نظام الحكم سيؤدي إلى الخلط بين النظام السياسي والمنتظم السياسي لان هناك فرق بين التسميتين.

---

([5]) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٦٧ .

([1]) ثامر كامل محمد الخزرجي: النظم السياسية الحديثة والسياسات العامة (دراسة معاصرة في استراتيجية إدارة السلطة)، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دار مجدلاوي، عمان – الأردن، ص ٢٦٧ . ينظر: مكتب الثقافة والإعلام: تعريفات ببعض المصطلحات، ص ١٥٩-١٦٠ .

([2]) ينظر: محمد طه بدوي: أصول علوم السياسة /علم أصول السياسة – دراسة منهجية – ، ١٩٦٧م، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، الإسكندرية، (د. ط)، ص ٨٨-٩١ . ثامر كامل محمد الخزرجي: النظم السياسية الحديثة والسياسات العامة، ص ٢٦٧ . مكتب الثقافة والإعلام: تعريفات ببعض المصطلحات، ص ١٥٩-١٦٠. عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٥٦٧-٥٦٨ . جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ١٨٩ . مصطفى الخشاب: النظريات والمذاهب السياسية، ص ١٨٨ .

([3]) ينظر: ثامر كامل محمد الخزرجي: النظم السياسية الحديثة والسياسات العامة، ص ٢١ .

**فالنظام السياسي:** هو مجموعة المؤسسات التي تتوزع بينها آلية التقرير السياسي، بينما المنتظم السياسي يشمل كل الوحدات الرسمية – السلطات الثلاث – وغير الرسمية – الأحزاب السياسية وجماعات الضغط والفئات والجماعات الأخرى – الداخلة في صنع السياسة العامة للدولة ([1]).

**ويقصد بالحكومة:** شكل الحكومة أو نظام الحكم (**Rejime**): أي كيفية ممارسة السلطة العامة في الدولة، وهذا أوسع المعاني التي تطلق على الحكومة.

وهناك تصنيفات وأشكال متعددة للأنظمة وفق مبادئ ومعايير مختلفة، فمنها: ما اعتمدت على معيار عدد المشاركين الفاعلين في الحكم السياسي ويسمى بـ(النظرة التقليدية)، ومعيار النظام الاقتصادي لنظام الحكم، ومعيار مواقف السلطات من القانون والسياسة، ومن حيث خضوعها للقانون من عدمه، ومن حيث تركز السلطة أو توزيعها (معيار العلاقة بين السلطات)، ومن حيث تولي رئاسة الدولة، ومصدر السلطة والسيادة، وغيرها من المعايير ([2]). وهنا نذكر ثلاثة أنواع حسب المعايير الثلاث الآتية:

**أولا–(أنظمة الحكم) حسب النظرة التقليدية (معيار عدد المشاركين):**

عندما يعدد (أفلاطون) أشكال الحكم يضع بعض النقاط الأساسية للتمييز بينها، وهي:

١. عدد الذين يمارسون الحكم.
٢. هل هم فقراء أم أغنياء ؟. [أفقراء هم أم أغنياء]
٣. هل النظام قائم على أساس القهر أم على الرضا ؟
٤. هل النظام قائم على أساس الخضوع للقانون أم لا ؟

وبعدها ينتهي إلى التصنيف الآتي:

أ– حكم الفرد/المونوقراطية **(Monocratie)** ([3]): وهو حكم مَلَكِي عندما يتقيد بالقانون (مَلَكية دستورية)، وهو حكم الطغيان (حكم استبدادي) عندما يخالف القانون.

---

([1]) ينظر: ثامر كامل محمد الخزرجي: النظم السياسية الحديثة والسياسات العامة، ص ٩ .

([2]) ينظر: جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٣٩١ ، ثامر كامل محمد الخزرجي: النظم السياسية الحديثة والسياسات العامة، ص ٢٦٧ .

([3]) المونوقراطية (**Monocratie**): لفظ يوناني – أغريقي – مركب من مقطعين: (**Monos**) الواحد و (**Cratie**) سلطة أو حكم، وتعني: حكم الشخص الواحد، وهو نظام سياسي تكون السلطة الفعلية بيد شخص واحد، وهو نظام يتكيف مع

ب- حكم القلّة: وهو حكم أرستقراطي عندما يلتزم بالقانون، فإذا تم انتهاكه أصبح حكماً أوليغارشياً ([1]).

ت- حكم الكثرة: وهو حكم ديمقراطي **(Democrati)** ([2]) سواءً كان قائماً على أساس التزام حدود القانون أم العكس ([3]).

ويتحكم في هذا الترتيب القيمة المخصصة لكل نظام حكم، وبناءً على ذلك يكون أحسن نظام حكم عندما يكون الحاكم شخصاً واحداً ويتمثل ذلك في «الملكية». وتقل فاعلية

---

أي شكل من أشكال الحكم (رئاسي، ديكتاتوري، ملكي...). ينظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة ، ج ٢، ص ٥٦٣ .

([1]) الأوليغارشية: سلطة القلائل أو حكم القلة على وفق مصالحها ولاسيما من حيث جمع الثروة والمنافع أو نظام حكم الأغنياء، والقيمة الأساسية فيه قائمة على الثروة . أو حكم بعض الأسر التي تستأثر بالحكم بالرغم من عدم أهليتها أو أي شكل من أشكال الحكم يكون فيه الأمر لعدد قليل، مثل أفراد جماعات الصفوة التي تقصر نفسها على أفرادها وتملك السيطرة على مجتمع كبير، وهي إحدى أشكال إدارة الدولة الاستغلالية، ومن أشكال الحكم الأساسية التي حددها أرسطو، ويحمل هذا المصطلح على معنى الصورة الفاسدة لحكم القلة وسميت الصالحة (ارستقراطية). وحالياً يستخدم هذا التعبير لوصف الحكومات التي تعتمد على النفوذ الأجنبي، أو التي ليس لها رصيد جماهيري بحيث تعتمد على دوائر التأثير في السلطة مثل رجال المال أو الصناعة. فهي في الأساس حكم القلة. ينظر: جوردون مارشال: موسوعة علم الاجتماع، مج ١، ص ٢٥١ . إبراهيم دسوقي أباظة وعبد العزيز الغنام: تاريخ الفكر السياسي، ص ٣٤ . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص ٤١٥ . نخبة من العلماء: معجم العلوم الاجتماعية، ص ٢٣٨ . عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص ٢١٨ .

([2]) الديمقراطية (**Democratie**): لفظ يوناني – إغريقي – مركب من مقطعين: (**Demos**) الشعب و (**Cratie**) سلطة أو حكم، وتعني: حكم أو سلطة الشعب، وهو نظام سياسي – اجتماعي يقيم العلاقة بين أفراد المجتمع والدولة وفق مبدأي المساواة بين المواطنين ومشاركتهم الحرة في صنع التشريعات التي تنظم الحياة العامة. أو نظام حكومة يمارس الناس تحت ظلها سلطة الحكم إما مباشرة أو من خلال ممثلين ينتخبون على فترات من قبلهم، وتعرّف الديمقراطية عموماً، بالرجوع إلى المبادئ الاجرائية والجوهرية التي تبدو ضرورية لممارستها، وينبغي على من يتولون المناصب السياسية العمل من اجل مصالح الشعب، وأن يكونوا مسؤولين أمام الشعب الذي يمكنه أبعادهم عن مناصبهم، مباشرة عن طريق ممثليه، وينبغي أن تكون فرصة المشاركة متساوية، ويجب حسم الخلافات في السياسة على وفق مبدأ قرار الأكثرية، وينبغي ان تمنح مصالح مجموعات الإقليمية بعض الحماية للمحافظة على مجموعة من الحريات المدنية الأساسية، وعلى الحكومة ان تعمل عن طريق حكم القانون. وتتسم بعدة مواصفات، أهمها: مبدأ الانتخاب الحر والمشاركة الشعبية والتداول السلمي للسلطة، وتقبل التعددية، وحرية ابداء الرأي. وأساسه يعود إلى المبدأ القائل بأن الشعب هو صاحب السيادة ومصدر الشرعية. ينظر: جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ١٢٣-١٢٥ . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٢، ٧٥١ . إحسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع، ص ٢٨٢ . مكتب الثقافة والاعلام: تعريفات ببعض المصطلحات، ص ١٧٠ . ابدوريا: المدخل إلى العلوم السياسية، ص ٧٩ .

([3]) ينظر: عمر عبد الحي: الفكر السياسي في العصور القديمة، الإغريقي – الهلنسي – الروماني، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص ١٧٢-١٧٣ .

الحكم إذا كان الحكم في يد الأغلبية. ومن هنا يتضح رأي أفلاطون بأن المَلَكية هي أحسن أنواع الحكم وأن الطغيان أسوءها ([1]).

وأما (مونتيسكيو) والذي يعدُّ حلقة وصل ما بين الفكر السياسي القديم والحديث... فقد أقام تقسيمه للحكومات على أساس طبيعة ومبادئ الأنظمة، فهناك ثلاثة أصناف، للحكومات، وهي:

١. الحكومة الجمهورية: ([2]): وهي إما أن تكون حكومة جمهورية ديموقراطية للوصول إلى أحسن الفضائل ونتائجها، وإما أن تكون جمهورية أرستقراطية، والتي تهدف الاعتدال.

٢. الحكومة الملكية: وهي الحكومة التي تقوم فكرتها على الشرف.

٣. الحكومة الاستبدادية: وهي الحكومة التي ترتكز على فكرة الخوف ([3]).

**ثانياً–أنواع الأنظمة السياسية انطلاقا من فكرة العلاقة بين السلطات :**

لا توجد هناك قواعد محددة حول فكرة العلاقة بين السلطات وموضوع تداخلها أو فصلها، ولكن يمكن الاعتماد على الفصل النسبي بين السلطات – التشريعية والتنفيذية والقضائية – منظوراً إليه من زاوية العلاقات الموجودة وحسب التداخل والفصل بينها ومن حيث الممارسة العملية، تقسم إلى ثلاثة أصناف، وهي:

١) **النظام البرلماني** ([4]): العلاقة فيه بين السلطات قائمة على أساس المساواة والتعاون.

٢) **النظام الرئاسي:** الفصل بين السلطات قائم على رجحان كفة السلطة التنفيذية. لصالح الرئيس في كفة ميزان السلطات.

---

([1]) إبراهيم دسوقي أباظة وعبد العزيز الغنام: تاريخ الفكر السياسي، ص ٣٤ .

([2]) الجمهورية: شكل من أشكال الحكم، لا ينتخب فيه رئيس الدولة على أساس وراثي كما هو في النظام الملكي، بل إنه ينتخب أو يعين. ينظر: جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٣٩٥.

([3]) ينظر: حسان محمد شفيق العاني: الأنظمة السياسية والدستورية المقارنة، ص ٢٤ .

([4]) البرلمان (**Parliament**): كلمة مأخوذة من (**Parler**) وهي كلمة فرنسية بمعنى يتكلم. وكانت تعني: الجمعية التي تجري فيها المناقشات، وهي الدعامة الأساسية التي يقوم عليها النظام النيابي، ووظيفته في النظم البرلمانية هي إقرار القوانين والميزانية ومراقبة نشاط السلطة التنفيذية ومنحها الثقة أو حجبها عنها. و[تطلق على المجلس النيابي في الوطن العربي مصطلحات متعددة للدلالة عليه، سواءً كان منتخباً أو غير منتخب، مثل: المجلس الوطني أو مجلس الامة أو مجلس النواب أو مجلس الشعب أو مجلس الشورى] . ينظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص ٥١٩ . عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص ٢٣٩ .

وكل من النظامين البرلماني والرئاسي نوع من أنواع النظام النيابي الذي يقوم على مبدأ الفصل بين السلطات، إلا أنهما يفترقان عن بعضهما من ناحيتين رئيستين:

**الأولى:** النظام البرلماني يمكن الأخذ به في الدول الملكية والجمهورية على السواء، ولا يمكن الأخذ بالنظام الرئاسي إلا في الدول الجمهورية.

**والناحية الثانية:** السلطات في النظام البرلماني منفصلة عن بعضها انفصالاً جزئياً، وفي النظام الرئاسي السلطات منفصلة إلى أقصى درجة ممكنة من الناحية النظرية بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، وكل سلطة تمارس وظيفتها باستقلالية عن الأخرى.

٣) **نظام الجمعية النيابية أو (حكومة الجمعية):** هو النظام القائم على أساس جمع السلطات بيد الجمعية النيابية مع تفويض عدد أعضائها بمباشرة مهام السلطة التنفيذية. (الرجحان فيه يكون للسلطة التشريعية) ([1]).

**ثالثاً–أنواع الانظمة السياسية حسب ممارسة السيادة:**

السيادة هي قدرة استعمال السلطة المادية في الإقناع أو في القهر داخل المجتمع السياسي وذلك لتنظيم شؤونه المختلفة، وعلى الصعيد الخارجي هي سلطة الدولة في إنشاء العلاقات مع الدول الأخرى سلماً أو حرباً.

أو هي السلطة العليا التي تملكها الدولة لاتخاذ القرارات وتنفيذها، وتعني: استقلال الدولة مجسداً في حقها في أن تقرر بمحض إرادتها الحرة شؤونها الداخلية والخارجية واتخاذ القرارات المتعلقة بذلك وبدون أن تتجاوز على حقوق غيرها من الدول أو أن تخرق مبادئ القانون الدولي وقواعده ([2]).

وتختلف النظم السياسية في تطبيق مبدأ السيادة الشعبية من حيث الممارسة، فمنها ما تعتمد على مبدأ المشاركة الفعلية استناداً على وجود التصويت أي يكون مصدر سيادتها

---

([1]) ينظر: حسان محمد شفيق العاني: الأنظمة السياسية والدستورية المقارنة، ص ٣٣ . ثامر كامل محمد الخزرجي: النظم السياسية الحديثة والسياسات العامة، ص ٢٥٩–٢٦٠ .

([2]) ينظر: محمد طه بدوي: أصول علوم السياسة /علم اصول السياسة – دراسة منهجية –، ص ٩٠–٩١. حسان محمد شفيق العاني:الأنظمة السياسية والدستورية المقارنة، ص ٤٣ . مكتب الثقافة والإعلام تعريفات ببعض المصطلحات، ص ١٨٤ .

الانتخابات، ومنها ما لا تعتمد أصلاً في نشوئها أو ممارستها على التصويت، وعليه يمكن تقسيم الانظمة السياسية من حيث ممارسة السيادة إلى نوعين:

**النوع الأول: الانظمة التي مصدر سيادتها الانتخابات:**

ويمكن عرض ثلاث صور أو نماذج استناداً على وجود التصويت كمعيار تعتمد عليه النظم لتسيير شؤونها:

الصورة الأولى: الديمقراطية المباشرة أو المحضة (نظام الحكم السياسي المباشر): ويقصد بها ممارسة الشعب للسلطات بنفسه، عن طريق الاجتماع في جمعيات عمومية. وهذا النظام لا يتحقق عملياً إلا في مجتمع محدود السكان.

الصورة الثانية: الديمقراطية النيابية (النظام التمثيلي): ويقصد بها أن الشعب هو صاحب السيادة الأصلي ولكنه لا يمارسها بنفسه وإنما بواسطة من ينيبهم عنه. وقوامه برلمان يتولى وظائف الحكم كلها او بعضها وبصفة خاصة الوظيفة التشريعية.

الصورة الثالثة: الديمقراطية شبه المباشرة (نظام الحكم السياسي شبه المباشر): ويقصد به الإبقاء على الهيئات المنتخبة، مع الرجوع بين الحين والآخر إلى الشعب مباشرة، لاستطلاع رأيه، ومن ثم الإقرار بما يرتئيه الشعب، لإبراز الاعتراف بالسيادة الشعبية في ممارسة السلطة، وبطرق وحالات متعددة، وهي:

أ- الاستفتاء الشعبي: الرجوع إلى الشعب لأخذ رأيه في أمر من الأمور.

ب- الاعتراض الشعبي: الاعتراض على تطبيق قانون معين.

ج- الاقتراح الشعبي : تقديم فكرة او مشروع قانون.

د- إقالة الناخبين لنائبهم: طلب عدد معين بإقالة النائب.

هـ- الحل الشعبي: طلب حل هيئة البرلمان.

و- عزل الرئيس: بناء على طلب عدد معين من الناخبين.

**النوع الثاني: الأنظمة التي مصدر سيادتها غير الانتخابات:**

هناك أنواع من الانظمة السياسية التي لا تعتمد أصلاً في نشوئها وممارستها على الانتخابات، ويندرج تحت هذا النوع العديد من الأنظمة، منها:

١. **نظام الحكم الفردي:** نظام حكم يمارس فيه فرد السلطة السياسية بدون قيود قانونية أو عرفية وبدون مسؤولية أمام ناخبين أو أية هيئة سياسية أخرى أو مراقبة أو مشاركة من قبل الآخرين. والحكم الفردي قد يكون وراثياً فيسمى بالحكم المَلَكي أو الحكم الأميري، وقد يكون غير وراثي [جمهوري] فيسمى دكتاتورية.

٢. **نظام حكم القلة (الأقلية):** في هذا النظام تقوم فئة قليلة متميزة عن الآخرين في حصر السلطة بين يديها، من دون الرجوع إلى الشعب. والصورة الفاسدة لحكم القلة تسمى بـ (الاوليغارشية) والصورة الصالحة تسمى بـ(الأرستقراطية) ([1]).

٣. **النظام الثوري والانقلابي:** هذا النوع من الحكم يعتمد الفرد في الحصول على السلطة بواسطة الثورة أو الانقلاب.

٤. **النظام المختلط:** وفي هذا النظام نرى تعايش هيئات سياسية منتخبة بجانب هيئات سياسية غير منتخبة. فوجود ملك غير منتخب ومجلس برلماني منتخب مثال على هذا النظام – ونموذجه النظام السياسي البريطاني – ([2])، وكذلك وجود البرلمان بمجلسين أحدهما منتخب وآخر غير منتخب. وعليه فالسيادة والسلطة تمارس من قبل هيئة أو هيئات منتخبة وغير منتخبة، متعايشة مع بعضها البعض ([3]).

---

([1]) ارستقراطية **Aristocracy**: كلمة يونانية تعني سلطة خواص الناس أو نظام حكم بواسطة أفضل الناس[طبقة النبلاء] أوكما يسميهم أفلاطون الطبقة الذهبية ، لكن مفهوم أفلاطون للروح الارستقراطية مفهوم قيمي لا مفهوم طبقي، وان توضيح النوعية التي يجب أن تميز ارستقراطية ما ، يمكن أن يعبر عنها من خلال: الولادة (ارستقراطية العائلة) الحضارة والثقافة (ارستقراطية المثقفين أو المتعلمين) العمر (ارستقراطية السن) مكانة العسكري (ارستقراطية الفرسان) أو المُلكية (ارستقراطية ملاك الأرض). وتاريخياً ترتكز الارستقراطيات على الأراضي المملوكة وعلى مبدأ الوراثة. وقد ترتكز على الثروة والأرض. وقد تكون دينية كالطائفة البرهمية بالهند. ويستعمل المصطلح اليوم على نحو أوسع كوصف لطبقة أو مجموعة حاكمة حقها في الحكم يستمد من الولادة ذات الأصل النبيل الموروث. ينظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص ١٤٧–١٤٨ . ابدوريا: المدخل إلى العلوم السياسية، ص ٧٥ –٧٦ . جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت – لبنان، (د. ط ، د. ت)، ص ١٢٢.

([2]) ينظر: جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٤٤ .

([3]) ينظر: حسان محمد شفيق العاني: الأنظمة السياسية والدستورية المقارنة، ص ٤٣–٥٦ . نخبة من العلماء: معجم العلوم الاجتماعية، ص ٨٤ . محمد طه بدوي: أصول علوم السياسة، ص ٣٢٠–٣٢١ . جوردون مارشال: موسوعة علم الاجتماع، مج ١، ص ٢٤٩. محمد كاظم المشهداني: النظم السياسية، ص ١٠–٣٢ .

## المبحث الثاني

## أسباب وعوامل الاستبداد (رؤية قرآنية)

**المطلب الأول: شخصية الإنسان المستبَدّ به وقابليته واستعداده للاستبداد**

**الفرع الأول: الاستعداد والقابلية للاستبداد**

**الفرع الثاني: أهم السمات والصفات التي يتصف بها الشخص المستبَدّ به**

**المطلب الثاني: شخصية الإنسان المستبدّ، وأهم أسباب وعوامل استبداده وطغيانه**

**الفرع الأول: شخصية الإنسان المستبدّ**

**الفرع الثاني: أهم أسباب وعوامل استبداده وطغيانه**

# المبحث الثاني

## أسباب وعوامل الاستبداد (رؤية قرآنية)

إنّ الوقوف على أسباب وعوامل الاستبداد من خلال الرؤية القرآنية، يقتضي منا أن نقسم هذا المبحث إلى مطلبين، وذلك لبيان وجهي العملة، أو جانبي الظاهرة، الأول: جانب الخضوع، والذي يمثله «**المستضعفون**» حسب التعبير القرآني وانصياعهم للمستبِدّ الفرد واستسلامهم له وخضوعهم لأوامره. والآخر: جانب الإخضاع، والمتمثل في «**المستكبرين**» حسب التعبير القرآني أيضاً، وهم الذين يمارسون الاستكبار والإكراه والاستخفاف في تعاملهم مع المستضعفين.

والقرآن الكريم إذ يبين بشكل جلي طبيعة ونفسية الإنسان بما يحمله من دوافع وغرائز وشهوات، يضع المعالجات والأدوية لذلك على شكل نظام متكامل وشامل، فيدعو إلى السيطرة عليها والتحكم فيها، وذلك بتنظيم إشباعها، وتوجيهها توجيهاً سليماً يراعى فيه مصلحة الفرد والجماعة.

## المطلب الأول

### شخصية الإنسان المستبَدّ به وقابليته واستعداده للاستبداد

إنّ لشخصية الإنسان المستبَدّ به والسمات والصفات التي يتصف بها، والقابلية والاستعداد للاستبداد الكامن فيه، يمثل الوجه الأول من طرفي منظومة الاستبداد.

### الفرع الأول

#### الاستعداد والقابلية للاستبداد

لعل أفضل من حلّل ظاهرة الاستعداد والقابلية كـ(مرض اجتماعي) هو مالك بن نبي ([1]) حينما وجّه نظره إلى «الاستعداد» كتربة مناسبة وجاهزة لانغراس جراثيم المرض، في طرحه فكرة «القابلية للاستعمار» كأداة لتفسير تغلغل الاستعمار في البلدان الإسلامية ([1]).

---

([1]) مالك بن نبي: (١٣٢٣-١٣٩٣هـ / ١٩٠٥-١٩٧٣م) مفكر إسلامي، ولد في مدينة قسنطينة بالجزائر، درس الهندسة متخصصاً في علم الالكترونيات، أقام بالقاهرة سبع سنوات أصدر فيها معظم آثاره باللغة الفرنسية، تولى إدارة التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري، له أكثر من ثلاثين كتاباً، من مؤلفاته: الظاهرة القرآنية، لبيك، دعوة الإسلام، الآفاق المستقبلية، عمل المستشرقين، مذكرات شاهد القرن. الزركلي: الأعلام، ج ٥، ٢٦٦ . عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٥، ص ٦٨٢ .

ونحن نستعير هذا المصطلح لنطرحه كأداة لتفسير تغلغل وتجذُّر الاستبداد في نفسية الإنسان المستبَدّ به. وحصول الاستعداد والقابلية للاستبداد في شخصيته.

توجد هناك أسباب وعوامل كامنة في نفسية الأشخاص المستَبَدِّ بهم، فاستكانتهم للمستبِدّ وخضوعهم له وتذلّلُهم، ليست قاصرة بتحكُّم وتسلُّط المستبِدّ بهم فقط، بل بالقابلية والاستعداد للاستبداد الكامِن في شخوصهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في آية محورية، مبيناً السبب والعامل الرئيس وهو القابلية والاستعداد للاستبداد والطغيان، قال تعالى:**{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}**(الزخرف: ٥٤)، فلو لم يكونوا فاسقين لما استخفّ أحلامهم وحملهم على خِفّة الحِلم بكيده وغُروره، ولو أمروه بالمعروف ونهوه عن المنكر لما أصابهم معه الهلاك والفناء ([٢]).

إذ لا يمكن للمستبِدّ أن يستمرّ في استبداده دون مستبَدّ بهم، يبيحون له ويعطونه الفرصة في ذلك، ويطيعونه فيما يأمر، كما قال تعالى:**{فَأَطَاعُوهُ}**، وهذا المرض – القابلية والاستعداد للاستبداد – هو الذي يفسِّر تسلّط وسيطرة وغرور الطغاة المستبدّين، فلا نرى أمام استخفاف فرعون بقومه وازدرائه بهم واحتقاره لهم، كما عبّرت عنه الآية الكريمة:**{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ}**، إلاّ الطاعة والخضوع والاستسلام والاستضعاف والتبعية من قومه المستبَدّ بهم:**{فَأَطَاعُوهُ}**. وهذا المرض هو الذي هيّأ للتفسخ والانهيار الداخلي ومن ثم السقوط والهلاك والدمار الذي هو بدوره أيضاً يفسح المجال للتغلغل الخارجي، وسيطرته فيما بعد ([٣]).

**فالاستبداد سببه الاستبداد، والاستبداد يولِّد الاستبداد، ولا يتولّى المستبَدّين بهم إلاّ مستبِدّ**، ولو نظرنا بنظرة دقيقة لوجدنا كل فرد من أسارى الاستبداد مستبِدّاً في نفسه، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى وربّه ((سبحانه وتعالى)) الذي خلقه تابعين لرأيه وأمره. فالمستبدّون يتولاهم مستبِدّ، والأحرار يتولاهم الأحرار ([٤]).

والكثير من الفلاسفة والكتّاب يتحيّرون من موضوع انقياد وخضوع وخنوع البشر للاستبداد والطغيان، وعدم قيامهم بالتمرّد والثورة، فيقول أحدهم: " إنّ المدهش ليس كون

---

([٢]) مالك بن نبي: شروط النهضة، تحقيق: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، ط٣، ١٩٦٩، دار الفكر، ص ٢٢٩.

([١]) ينظر: عبد الرحمن بن علي بن محمد، جمال الدين، ابن الجوزي القرشي البغدادي (ت ٥٩٧هـ): زاد المسير في علم التفسير، ج ٧، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ص ١٤٠. محمد زكريا الندّاف: الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية في القرآن والسنة، ط١، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م، دار القلم، دمشق، ص ٣٦٧ .

([٢]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ط١، ١٩٩٦م، دار المنار، فرع عمّان، ص ١٨٤.

([٣]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٢٠ .

الشعوب تثور وتتمرّد، بل كونها لا تتمرّد ولا تثور... ويقول آخر: فهل ينبغي، لفهم هذا الانقياد، أن نذكر الخوف من الأقوى؟ لماذا تنخفض مئات الألوف، مئات الملايين من الأفراد ؟ وتنحني أمام الأوامر الصادرة من شخص واحد ؟ أَمَرَدُّ ذلك إلى المصلحة ؟ وما هي مصلحة المرء في الانقياد والاستسلام للنهب والاستغلال والاستعباد ؟ هل هناك تغليب لعقلٍ أرفع ؟ وما هو هذا العقل ؟ في حين أنه من الواضح أنّ الأوامر الصادرة عن سيِّد أرفع إنما تجري على حساب الأكثرية الساحقة؟ إن المسألة من أي طرف طرحناها، ستبقى بلا جواب.." ([1]).

ويقول آخر: " ليست المشكلة في تسلط فرد وتعطشه لسلطة نهائية، ولكن كل المشكلة هي كيف تركع الجماهير لآلهة كاذبة ؟ " ([2]).

وأشار القرآن الكريم إلى الأسباب والعوامل هي التي تكوِّن الأرضية والتربة المناسبة لبذرة الاستبداد، وتحقق القابلية لتجذيرها وترسيخها.

فالقرآن الكريم بين أنّ الاستبداد كحالة متأصِّلة ومتجذِّرة، لم ولن تترسخ أو ترى جراثيمه موضع قدم في نفس المجتمع أو تظهر آثاره على الجسد، إلاّ بعد ما توجد القابلية والاستعداد لها، فعندما تترسَّخ في النفس وتطفح على السطح بثور الفسق والتردي وغيرها من الرذائل النفسية، تترسّخُ القابلية والاستعداد للاستبداد – بل حتى الترحاب به – في النفس البشرية أكثر فأكثر، وعندها تُفتَّح الأبواب شُرَّعاً لهذا الضيف الكريه، الذي هو الاستبداد والطغيان، قال تعالى:{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}(الزخرف: ٥٤)، هذه هي القاعدة:{إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

فالسر في استسلام القوم لفرعون وطاعتهم له، والرضا بالاستضعاف المُهين والتبعية الذليلة، وإلغاء وجودهم، وتغييب عقولهم، والتنازل عن حرياتهم وشخصياتهم، إنّما كان الفسق الذي كانوا يتصفون به قال تعالى:{إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} ([3]).

وبعد معرفة المرض وكيفية إصابة الإنسان به، نخرج بقانون صارم، وهو أنّ العامل الداخلي يبدأ في عملية تهيئته الحدث وتوليده بعد ذلك، ويبقى العامل الخارجي الذي يكشف الغطاء عن التفاعل الداخلي، ويشير إليه، ويدلِّل عليه.

---

([1]) فرنسيس واوليفر: تاريخ الأفكار السياسية، ص ٦٣-٦٤ .

([2]) هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٢٧١ .

([3]) صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٨٤ .

هذا القانون يخضع له الكل، فالفرد يختل توازنه النفسي بسبب أوهامه الداخلية، والعائلة تتفكك بعدم التفاهم بين أفرادها، والمرض يحدث بسبب انهيار الجهاز المناعي الداخلي، ويأتي الاستعمار بوجود القابلية له، ويركب الطغاة على رقاب الأمم الهزيلة.

وفلسفة القرآن في تحديد هذه العلة، هو قوله تعالى:{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(عمران: ١٦٥)، ففلسفة القرآن تنصُّ على أنّ ما يحدث هو:{مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}، وأنّ الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ([1])، فأنفسكم أيها الناس هي التي تخلخلت وفشلت... وأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله... وأنفسكم هي التي خالجتها الأطماع والهواجس... فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم، وتقولون: كيف هذا ؟ هو من عند أنفسكم، بانطباق قانون وسنة الله عليكم، حين عرّضتم أنفسكم لها. فالإنسان حين يعرِّض نفسه لسنة الله لا بدّ أن تنطبق عليه، مسلماً كان أو غير مسلم، ولا تنخرق محاباةً له... ومن مقتضى قدرته أنْ تنفذ سنته... وألا تتعطل سننه التي أقام عليها الكون والحياة والأحداث والوقائع ([2]).

فالفلسفة القرآنية التي تحكم المجتمعات، هي سنة وقانون: {مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}، هذا القانون مرسّخ في القرآن والسنة والتاريخ من عهد آدم إلى يوم القيامة، والقرآن يشير إلى الظلم الذي يُلحقه الإنسان بنفسه أكثر من الظلم الذي ينزل عليه من الآخرين، هذا اتجاه في فهم طبيعة الإنسان – ظلم العبدِ نفسه – قال تعالى:{مَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}(النساء: ٧٩)، وقال:{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}(آل عمران: ١١٧)، هذا التفسير للوضع الإنساني هو الأهم، ([3])؛ لأنه يفصح عن الحقيقة بكل وضوح وصراحة،{فَمِن نَّفْسِكَ}، وكان الاعتراف بهذا الوضع:{قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا} (الأعراف:٢٣)، وعدم التخبُّط والتكبُّر، هو المخرج والسبيل إلى مغفرة الله وعفوه:{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (البقرة:٣٧). فالسبب الذي من أجله استُخلِف آدم وزوجه وذريتهما في الارض، لأنهما اعترفا بالخطيئة وتحملا المسؤلية وقبلا التحدي، وان كنا نحن البشر اليوم عامة لم نبلغ الرشد، ولا نزال على تفسير ابليس لأحداث

---

([1]) ينظر: خالص جلبي: قوانين التغيير، دار المنير، (د. ط ، د. ت)، ص ٧–٨ .

([2]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ١ ، ص ٥١٤ .

([3]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ١١١ . هارون بن موسى: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ص ١٠٢، (مادة ظلم) .

العالم {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي} (الأعراف:١٦)، لهذا لا يوجد في العالم من يشعر بالمسؤولية عن الفساد الذي يقع في الأرض وإنما كل ينسبه إلى الآخرين ([1]).

**فالقرآن الكريم يلوم الضحية والجلاد معاً**، ويسند إليهما المسؤولية - يلوم الضحية بقبوله الذل والهوان ويلوم الجلاد لظلمه – فكلاهما ظالم. هذا ظالمٌ بتجبُّرهِ وطغيانهِ وبغيهِ وتضليلِهِ. ذاك ظالمٌ بتنازلِهِ عن كرامتِهِ وإدراكِهِ وحريتِهِ وخنوعِهِ وخضوعِهِ للبغي والطغيان ([2]). فلم يقصِّر حملته على المستبدِّين المتألهين وحدهم، بل أشرك معهم أقوامهم وشعوبهم الذين اتبعوا أمرهم:

يقول تعالى عن قوم نوح:{قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا}(نوح: ٢١).

ويقول سبحانه عن عادٍ قوم هود:{وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}(هود: ٥٩).

ويقول جلّ شأنه عن قوم فرعون:{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}(الزخرف: ٥٤). وقال:{فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ، يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ}(هود: ٩٧-٩٨).

وإنما حمَّلَ الشعوب المسؤولية أو جزءاً منها؛ لأنها هي التي تصنع الفراعنة المستبدّين، قالوا: قيل لفرعون: (ما فَرْعَنَك ؟) قال: (لم أجد أحداً يردني !) ([3])، فلولا القابلية للاستبداد ما وجد مستبدٌّ، ولولا القابلية للاستعباد ما ظهر فرعون وسيّد متعال وحاكم متجبِّر ([4]).

والسنة النبوية حملت على الأمراء المستبدّين الظلمة، في أحاديث كثيرة، كقوله (ﷺ): ((**ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة**)) ([5]) أي ما من حاكم يستحفظه الله على شعب ثم لم يتعهد أمرها ويحفظها كما يجب، لم يشم رائحة الجنة.

---

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٢٩٠٩ .

([2]) ينظر: يوسف القرضاوي: من هدي الإسلام، فتاوى معاصرة، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، المكتب الإسلامي، بيروت، ج ٢، ص ٧٠٨-٧٠٩ .

([3]) نصر محمد عارف: الأبعاد الدولية للاستبداد السياسي في النظم العربية، جدلية الداخلي والخارجي، ص ٥٣٢ .

([4]) صحيح البخاري: ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة عباد الرحمن، مصر، رقم الحديث: ٧١٥٠، ص ٨٥٢ .

([5]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ١١٢.

وقال (ﷺ): ((**ما مِنْ والٍ يَلي رعيةً من المسلمينَ فيموتُ وهو غاشٌ لهمْ إلاّ حـرَّم اللهُ عليـهِ الجنَّةَ**)) ([1]) فالحاكم الذي لم يقم في المحكومين بالعدل يحرِّم الله عليه الجنة.

كما أوجبت السنة النبوية على الأمة أن تنصح، حتى جعلت النصيحة هي الدين كلـه. ومنها النصيحة لأئمة المسلمين، بل جعلت أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، ومعنى هذا أنها جعلت مقاومة الطغيان والفساد الداخلي أرجح عند الله من مقاومة الغـزو الخـارجي؛ لأن الأول – الطغيان والفساد الداخلي – كثيراً ما يكون سبباً للثاني – الغزو الخارجي ([2]).

فالشعوب هي التي تترك القيود تكبلها، أو قُل إنها تكبِّل نفسَها بنفسِها ما دام خلاصها مرهوناً بالكف عن خدمة المستبدّين (أصحاب القيود والأغلال)، وعدم الجري وراءهم.

وينفرد القرآن بمصطلح «**ظلم النفس**» فما يقع للناس هو بما:**{كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ}** ([3])، **وقد ورد في ذلك آيات كثيرة منها:**

- **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُـوا لَعَلَّهُـمْ يَرْجِعُونَ}**(الروم: ٤١).
- **{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}**(الشورى: ٣٠).
- **{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}**(الزخرف: ٧٦)، قال الشـوكاني ([4]):" أي مـا عذّبناهم بغير ذنب ولا بزيادة على ما يستحقونه، **ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم** بما فعلوا من الذنوب" ([5]).
- **{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}**(النمل: ٥٢)، قال الطـبري ([6]) في تفسير قوله تعالى:**{بِمَا ظَلَمُوا}** أي: " بظلمهم أنفسهم " ([1]).

---

([5]) صحيح البخاري، رقم الحديث:٧١٥١، ص ٨٥٢ .

([6]) ينظر: يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة، ج ٢، ص ٧٠٩-٧١١ .

([1]) هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ١١٧ و ١٩٤ .

([2]) الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ / ١٧٦٠-١٨٣٤م): هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، ولد بهجـرة شوكان من بلاد خولان باليمن، فقيه، مجتهد من كبار علماء اليمن، نشأ بصنعاء، ولي قضاءها ومات حاكماً بهـا، لـه ١١٤ مصنفاً، منها: فتح القدير، نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، إتحاف الأكابر، التعقبات علـى الموضـوعات، الدرر البهية في المسائل الفقهية، إرشاد الفحول، السيل الجرار . الزركلي: الأعلام، مج ٦، ص ٢٩٨ .

([3]) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، حققه وخرج أحاديثـه وفهرسها: أبو حفص سيّد بن إبراهيم بن صادق بن عمران، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، دار الحديث، القاهرة، مج ٤، ص ٧٠٥ .

([4]) الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ / ٨٣٩-٩٢٣م): هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المؤرخ، المفسر، الإمام، ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها، عرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى، من ثقات المـؤرخين، كـان

وقد عرض القرآن مسرحية (الظالمين)، والذي عبّر عنهم بشريحتين، **الأولى:** حاملة لواء (المستضعفين)، **والثانية:** حاملة لواء (المستكبرين المستبدّين). والأولى تتقدم الثانية في الظهـــور، فالمستضعفون هم تربة إنجاز وتفريخ طبقة المستكبرين المستبدّين ([2]).

فالمشكلة ليست في المستكبرين بل في المستضعفين، قال تعالى:**{وَلَوْ تَـــرَى إِذِ الظَّـــالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ}**(سـبأ: ٣١)، والمراد بالظالمين هنا الفريقان: المستضعفون والمستكبرون، كما يدلُّ على ذلك سياقُ الآيات، إذ يسجِّلُ حوارُ التلاومَ بين الأتباع الذين استُضعِفوا، والمتبوعين الذين اســـتكبروا ([3]).

فالأتباع ظالمون، لأنهم تنازلوا عن شخصياتهم وحرياتهم واستقلالهم، وتابعوا ســـادتَهم بذلّةٍ وهوان، وهذا ظلمٌ منهم لأنفسهم. ويقول المستضعفون أيضاً:**{رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَـــا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا}**(الأحـــزاب: ٦٧)، فأهمية الموضوع تكمن في أنّ الإنسان لا يُظلم إلاّ برضاه وبجهله، وفي هذا المعنى يأتي الحوار بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة، وكيف أنّ الأتباع يتـــبرأون مـــن متبوعيهم:**{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا}**(البقرة: ١٦٦-١٦٧) ([4]).

والقرآن الكريم يصف الأتباع بأنهم:**{الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا}**، والاستضعاف شذوذٌ وانحـــرافٌ ومرض نفسي، يجعل صاحبه ضعيفاً مستضعفاً، وذليلاً مُهاناً، يقضي على شخصيته، ويُريه نفسَه صغيراً ضعيفاً حقيراً، فالاستضعاف هو السبب في جعل صاحبه تابعاً، فالأتباع الأذلاء العبيد، ما رضوا بهذا إلاّ لأنهم استُضْعفوا ([5])، فالمستبَدّ به هو الذي عطّل ادراكه وباع حريتـــه، ورضـــي

---

مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً، فصيحاً، له: أخبار الرسل والملوك (يعرف بتاريخ الطبري)، جامع البيان في تفسير القرآن، اختلاف الفقهاء، المسترشد، جزء في الاعتقاد . أبو عبد الله، شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيـــق: شعيب الأرناؤوط، حسين الأسد، الطبعة التاسعة، ١٤١٣ هـــ ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٣٥١/٢ . عبد الحي بـــن عماد، أبو الفلاح الحنبلي: شذرات الذهب من أخبار من ذهب، المكتـــب التجـــاري، بـــيروت-لبنـــان، ٢/ ٢٦٠ . الزركلي: الأعلام، ج ٦، ص ٦٩ .

([5]) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تقديم: خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، مج ١١، ج ١٩، ١٤١٥هـــ-١٩٩٥م، دار الفكر، بيروت - لبنان، (د. ط)، ص ٢١٣ .

([1]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٢٧٣ .

([2]) صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٢٩ .

([3]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ١١٣.

([4]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٣٢و ١٣٣ .

لنفسه أن يكون ذيلاً، فهو ظالم بتنازله عن كرامته، وادراكه، وحريته، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان ([1])؛ ويكون ذلك إما بمعرفة منه بنقصه عن الآخر، أو جهلاً منه في قدرته على سياسة نفسه، فلا يمكن لشخص أن يُستعبَد ويُذَلّ لولا استعداده على نحو خفي للعبودية والذل والهوان ([2]).

ولاستضعاف الأتباع وتبعيتهم واستذلالهم للذين استكبروا من المتبوعين أسباب، منها: خوفهم على أموالهم وأرزاقهم وممتلكاتهم، وخوفهم على أعمارهم وحياتهم ودنياهم، وخوفهم من بطش المتبوعين وأذاهم، وفسقُهم وانحرافهم وابتعادهم عن المنهج الرباني، ورغبتهم في الدنيا وإقبالهم عليها، وحرصهم على ملذاتها، وحرصهم على التزلّف والتقرب للكبراء المستبدين، وهوانُهم على أنفسهم، و وأدُهم لشخصياتهم وإراداتهم وحرياتهم ([3]).

والمستضعفون تلتبس عليهم الأمور فلا يفرقون بين (الإله المعبود بحق) وبين (المستبِدّ المُطاع بالقهر)، بين (الربِّ المُنْعِم) و (ولي النعَم)، وبين (جلَّ شأنه) و (جليل الشأن)، بناءً عليه لا يرون لأنفسهم حقاً في مراقبة المستبِدّ لانتفاء النسبة بين عظمته ودناءتهم. وعظّموه تعظيمهم لله رب العالمين، وانقادوا له وخضعوا أكثر من انقيادهم لله ((سبحانه وتعالى)). والحالة هذه، هي التي سهلت في الأمم إدعاء المستبدّين الألوهية على مراتب مختلفة حسب استعداد أذهان الرعية ([4]).

لذا أكّد ((القرآن الكريم)) على رفض كل الأنظمة القائمة على إشراك الحاكم بالألوهية، ومنعَ عبادةَ أيَّ مخلوق، ووعدَ العابد والمعبود أشدّ العقاب؛ وذلك للحفاظ على إنسانية الإنسان، قال تعالى:{**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**}(النساء: ٤٨).

والعبودية تجد طريقها إلى الناس من مدخلين: الإكراه أو الخداع، هذا في أول الأمر، لكن طول العهد مع الذلِّ والهوان، يُعوِّد الإنسان على الاسترقاق وعناق الأغلال، فيقنعون بالعيش خاضعين خانعين إلى الدرجة التي يبدو لمن يراه أنه لم يخسر حريته، بل كسب عبوديته. فالعادة هي التي تجعل المستبَدّ بهم يتجرعون سُمَّ الاسترقاق من دون الشعور بمرارته، فالذين ولدوا وهم مغلولو الأعناق، ثم أطعموا وتربوا في ظل الاسترقاق، من دون نظر إلى أفق أبعد؛ يقنعون

---

([5]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥ ، ص ٢٩٠٩ .

([6]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ١٩٣ .

([1]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٣٢-١٣٣ . و ١٨٩ .

([2]) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٢٢-٢٣ .

بالعيش مثلما ولدوا، فيصبح حال مولدهم هو الحال الطبيعي، إذاً إنّ ما درج الإنسان عليه وتعوّده يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي، فلا شيء ينتسب إلى فطرته سوى ما تدعو إليه طبيعته الخالصة التي لم يمسها التغيير، ومنه كانت «العادة» أول أسباب العبودية المختارة. فالسبب الأول، الذي يجعل الناس ينصاعون طواعية للاستعباد، هو كونهم يولدون عبيداً وأرقاء وينشأون كذلك، إلى هذا السبب يضاف سبب آخر: إن الناس يسهل تحوّلهم تحت وطأة الطغيان إلى جبناء مخنثين ([1]).

([3]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٦٥ و ٧٢ و ٢٠٦ . محمد هلال الخليفي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٠٠ .

## الفرع الثاني

## أهم السمات والصفات التي يتصف بها الشخص المستبَدّ به

كلما طال العهد على النفس البشرية في ظل أنظمة القهر والظلم والاستبداد، يصيبها المسخ والتشويه والتشويش، وتختلّ موازينها، وتفقد توازنها، فتتصف ببعض الصفات والسمات السلبية، ومن ثم تستمرئُ العبودية والذل والهوان، ويفاقم هذا التحول – من **الإنسانية** (عبودية الخالق الكامل) إلى **اللاإنسانية** (وهي عبودية المخلوق الناقص) –، وبناءً عليه تترسّخُ هذه الصفات والسمات السلبية في النفس البشرية أكثر فأكثر، كلما مارست الأنظمة أشد صنوف الاستبداد قسوةً، مما يفرز بالضرورة الخوف من السلطة، ويدفعها هذا الخوف إلى الخنوع والخضوع، وإلى كل ما من شأنه تقوية وجود المستبدّ، واغتراره وتبجحه وتكبره ([1]).

فالقابلية للاتصاف ببعض الصفات الذميمة والأفكار والتصورات الخاطئة والسلوك السلبي، فهي تؤثر على البنية النفسية والسلوكية والفكرية للإنسان، علماً أنّ الشخصية الإنسانية تهبط كثيراً عندما تعيش لفترة زمنية تحت ظل سياسة القهر والاستبداد، وتتصف بأخلاقيات وسلوكيات، سماها المؤرخ ابن خلدون بـ (**أخلاق العبيد**). إذ تصبح هذه الشخصية، شخصية مهزوزة لا تثق بنفسها وتحبذ العبودية، هذه الشخصية تريد أن تبتعد عن الأمور العظام، والأعمال التغييرية والإصلاحية للواقع الذي تعيش فيه، هذه الشخصية تنشغل بالتوافه من الأمور، وتريد أن تعيش على هامش الحياة... ([2]).

ونظام الحكم يحتل مكانة مهمة بين محددات الثقافة السياسية وبروز ظواهر سلبية وصفات وسمات مذمومة، فالنظام التسلّطي يُسهم بدرجة ما في إفراز ثقافة سياسية معينة تدور عناصرها حول كراهية السلطة والخوف منها، وعدم الاهتمام بكل ما هو سياسي، وغياب روح المبادرة وتفشي نزعة الفردية.

لكن الممارسة الديمقراطية – بما تفترضه من توفر مناخ في الحرية السياسية وتعدد الآراء والاتجاهات ووجود المعارضة على كافة المستويات – تساعد على نمو ثقافة سياسية ديموقراطية تتضمن الإحساس بالقدرة على نقد أي مسؤول دون خوف، والإيمان بضرورة وجدوى

---

([1]) ينظر: نبيل هلال: الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥، ص ١٥–١٨ .

([2]) ينظر: سعيد سليمان سعيد: الشخصية الإنسانية المشوهة، مجلة الحوار، العدد/ ٢٦ ، التاريخ/ أيلول/ ٢٠٠٤، مجلة شهرية سياسية – ثقافية عامة ، يصدرها الاتحاد الإسلامي الكوردستاني، كوردستان العراق/ أربيل، ص ٣٧ .

المشاركة السياسية، والتسامح الفكري المتبادل والقدرة على العمل الجماعي سياسياً واجتماعياً ([1]).

ويمكن تصوير المستبَدّ به (**المحكوم**) من الناحية الجسمية والنفسية والعقلية، فجسمه سقيم، ونفسه مهزوزة ضعيفة فاسدة، وعقله متحجر متوقف، أسير، ومستصغَر، وبائسْ، فاقد الحب لوطنه، وضعيف الحب لعائلته، مختل الثقة في صداقة أحبابه، وأنه لا نظام في حياته كلها، خاملٌ، خامدٌ، ضائعُ القصدِ، حائر، متشرِّب بالمساوئ وبِشَرِّ الخصال، وتعاليم الاستبداد القائمة على الخداع والنفاق والاتكالية والرياء مترسِّخة فيه، ولا يستغرب أن يستعمل المستبَدّ به هذه الخصال مع ربه، ومع أبيه وأمه، ومع قومه وجنسه، حتى ومع نفسه ([2]).

ولكون قوانين وقرارات المستبِدّ (**الحاكم**) جائرة، وتعاليمُهُ مبنية وقائمة على الخداع والنفاق والرياء، فالمستبَدّ به (المحكوم) يستعمل هذه التعاليم للتخلص من قوانين الحاكم وقراراته، فتتحول شخصيته – أي المستَبدّ به (المحكوم) – إلى كائن مشوه خارج عن الإطار السليم للإنسان الذي كرّمه الله، وذلك لكثرة الأقنعة التي يلبسها، للتخفي والتفلّت من الحاكم ومن قوانينه وقراراته، فتتفشى الأمراض والظواهر السلبية، نحو: النفاق والخداع والكذب والالتواء والخوف والجبن، والقرآن الكريم يعبِّر باختصار وبايجاز عن هذه الأمراض والظواهر السلبية بكلمة جامعة ألا وهي: (**الفسق**) والتي تحمل في طياتها مضامين المعاني السلبية التي يكتسبها الخاضعون للمستبِدّين، قال تعالى واصفاً قوم فرعون الذين أطاعوه بعد استخفافه بهم:{**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**}(الزخرف: ٥٤).

والنخب المثقفة في المجتمعات التي يتحكم فيها المستبدون. تتصف ببعض الصفات الموجودة في واقعها ولا تستطيع أن تتخلص منها.. لذا نرى بأنها تخضع وترضى بالخنوع والخضوع للآخرين، هذه الشخصية وبمرور الزمن تصبح شخصية انتهازية مصلحية نفعية، شخصية نظرتها ضيقة للواقع وللحياة، لا تفكر في الغد ولا تخطط للمستقبل، فهي شخصية ضعيفة لا تصمد أمام المشاكل والعوائق، شخصية لا تستطيع أن تقود.. ولا تستطيع أن تبني حضارة... ([3]).

**ومن أهم السمات والصفات الذميمة التي تتصف بها هذه الشخصية، هي:**

---

([3]) ينظر: كمال المنوفي: نظريات النظم السياسية، ص ١٩٩ .

([1]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٧٩-٨٦ و ٩٩ و ١٠١ .

([2]) ينظر: سعيد سليمان سعيد: الشخصية الإنسانية المشوهة، ص ٣٧ .

١. **الاعتمادية (الاتكالية)**، وتتميز الشخصية الاتكالية باعتماد شامل على الآخرين، أو السماح لهم بتولي مسؤولية جوانب مهمة في حياتها، وتسخير الاحتياجات الذاتية، للآخرين الذين يعتمد عليهم، والرضوخ غير المبرر لرغباتهم ونزواتهم..

٢. **سمة الخضوع – المازوخية:** والنزعة المازوخية في جوهرها تعبير عن الخوف. فالشخص المستبَدّ به، الخاضع الخانع، يمارس ويعبِّر عن هذه النزعة من خلال الخضوع لشخصية أقوى منه تحرره من خوفه. فيسلم له إرادته، ويستشعر الراحة وربما المتعة في إيذائه له وإذلاله إياه..

٣. **سوء الظن بالآخرين** وعدم الثقة بالمقابل والشك في كل ما يدور حوله، وهذه كلها تؤدي إلى التحلي بالعقلية التآمرية لتفسير الأحداث والوقائع..

٤. **الانتهازية وسرعة التقلب** والتأثر بالظروف والتغيّر والتبدل بسرعة..

٥. **الدنيوية، وحب المادة**، وصرف الجهود والأوقات، للحصول على الملذات، وقضاء الشهوات، وذلك للتخلص من عقدة النقص والضعف الذي تشعر بها هذه الشخصية..

٦. **إشغال النفس بالأمور الحياتية العادية:** الانشغال بالهموم والاهتمامات الصغيرة.

٧. **الأنانية والأثرة وحب الذات**، والابتعاد عن الاتصاف بالصفات الفاضلة مثل التضحية والفداء والتحمل من أجل «الآخر»، والعمل على اسعاد الآخرين، فهذه الشخصية غير مستعدة للتضحية من أجل المصلحة العامة، وتفضل مصلحتها وإن أدّى ذلك إلى إلحاق الضرر بعدد كبير من الناس..

٨. **انفصام الشخصية**، وحب التقمُّص بشخصيتين، مثلاً نرى بأنه يحب الصلاح والابتعاد عن فعل المنكرات وأكل الحرام (حسب معتقده الديني)، ومع ذلك يأتي بأفعال ويتصرف بسلوكيات وأخلاقيات لا تتلاءم مع ما يؤمن به ويعتقده..

٩. **تقبل الأعمال الدنيئة**، مثل: الجاسوسية ومراقبة الناس... الخ.

١٠. **الابتعاد عن صفات المروءة والشهامة:** فالاستبداد يضطر الناس الى استباحة الكذب والتحايل والخداع والتذلّل، فضلاً عن مراغمة الحس وإماتة النفس. وألفة الرياء والنفاق، والخيانة، وعدم الوفاء بالعهود والوعود..

١١. **الانقياد للأجنبي** وعدم تقبل القريب والترفّع عليه ([1]).

وفي المقابل نرى القرآن الكريم، وهو في معرض وصف الذين آمنوا، في ثماني آيات من سورة الشورى، يحدد صفة المؤمنين، بما يميزهم، ويفردهم أمة وحدهم ذات خصائص وسمات!، فذكر صفات مميزة، وهي: الإيمان، والتوكل، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لله، وإقام الصلاة، والشورى الشاملة، والإنفاق مما رزق الله، والعفو، والإصلاح، وعدم الخضوع للظلم، والصبر ([2])، قال تعالى:{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}(الشورى: ٣٩)، قال الزمخشري ([3]): هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا، وهم محمودون لأنّ من أخذ حقه، ولم يجاوز في ذلك ما أمر الله به، فلم يُسرِفْ... فهو مطيع لله عزّ وجلّ، وكل مطيع محمود، والمصّر على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه، وقيل: أي إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم ويدفعوه ([4]).

ويقول سيد في تفسير هذه الآية:{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ} ذِكْرُ هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحي بأنّ عدم الخضوع للظلم، صفة أساسية ثابتة... ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة في الحياة، قوله تعالى:{وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

---

([1]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٠٣ . محمد هلال الخليفي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٢٩٨ . علي كمال: النفس انفعالاتها وامراضها وعلاجها، دار واسط، بغداد، ط٤، ١٩٨٨م، ص ٣٣٠-٣٣٥ . نبيل هلال هلال: الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين، ص ١٨ . سعيد سليمان سعيد: الشخصية الإنسانية المشوهة، ص ٣٧ .

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٣١٦٠ .

([2]) الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ / ١٠٧٥-١١٤٤م): هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، أبو القاسم، جار الله، ولد في زمخشر من قرى خوارزم، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، سافر إلى مكة فجاور بها فلقب بجار الله، وتنقل في البلدان، كان معتزلي الاعتقاد، مجاهراً، شديد الانكار على المتصوفة، حنفي المذهب، ألّف حوالي (٩٤) كتاباً تقريباً، منها: (الكشاف) في التفسير، وله ديوان شعر. الزركلي: الأعلام، ج ٧، ص ١٧٨ . الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، ص ٧-١٠ .

([3]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٩٨١ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، طبع دار البيان الحديثة، مكتبة الصفا، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٥م، ج ١٦، ص ٢٩-٣٠ . الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، (د. ت)، مج ١٤، ج ٢٧، ص ١٧٧ .

مِّثْلُهَا}(الشورى: ٤٠)، فهذا هو الأصل في الجزاء، مقابلة السيئة بالسيئة، وتوكيد آخر أكثر تفصيلاً:{وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ}(الشورى: ٤١)، فالذي ينتصر بعد ظلمه، ويجزي السيئة بالسيئة، ولا يعتدي... فما لأحد عليه من سلطان، ولا يجوز أن يقف في طريقه أحد، إنما الذين يجب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس... والله يتوعد الظالم الباغي بالعذاب. ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له، ويأخذوا عليه الطريق ([1]).

## المطلب الثاني
## شخصية الإنسان المستبدّ، وأهم أسباب وعوامل استبداده

شخصية الإنسان المستبِدّ والصفات التي يتصف بها، تمثل الوجه الثاني من طرفي منظومة الاستبداد، وللضرورة المنهجية يمكن تقسيم هذا المطلب الى فرعين، وفيما يأتي اشارة اليهما.

### الفرع الأول
### شخصية الإنسان المستبدّ

إن لطغيان الإنسان واستبداده أسباباً وعوامل متعددة، ويحاول البعض في الجانب التنظيري الربط بين الاستبداد وبين نفسية الشخص المستبِدّ كحالة تعويضية يتصف بها المستبدون... وبهذا المنحى التعويضي يرون: أن الشخصية المستبِدّة تتوفر – بشكل عام – في الأشخاص فاقدي الثقة بأنفسهم الذين لم ينجحوا أبداً في تكوين شخصياتهم تكويناً متكاملاً مستقراً، فيدفعهم هذا النقص الذي يعانونه في أنفسهم إلى محاولة تعويضية في العالم الخارجي عن طريق الاستبداد والعنف.

ويرى بعض علماء النفس: أن الاستبداد قد يرجع إلى شعور ذاتي بخيبة الأمل والإحباط، ويكون القمع والعنف لدى هؤلاء إنتقاماً من الآخرين المتميزين عنهم، لأنهم ليسوا مثلهم أو لأنهم يسخرون منهم، ولهذا يحاول الضعفاء والأغبياء والفاشلون التخلص من شعورهم بالنقص عن طريق إذلال الآخرين وإخضاعهم ([2]).

---

([4]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٣١٦٠-٣١٦١ ، ٣١٦٧ .

([1]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، أنظمة الغلبة في تاريخ المنطقة العربية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤ ، ص ٣٩-٤٠ .

ولاشك أن معرفة المستبِدّ وصفاته النفسية يكشف لنا عن ماهية النظـــام الاســـتبدادي الحاكم، وبالتالي تأثيراته على المجتمع، لأن المستبِدّ يحتكر كل القنـــوات الفكريـــة والإعلاميـــة والتوجيهية فيحاول أن يمسخ الآخرين على شاكلته.

والقرآن الكريم يصف المستبِدّين الكبراء، القادة في الكفر ([1])، بأنهم **{الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}**.

**والاستكبار** شذوذٌ وانحرافٌ ومرض نفسي، يُعد مقابلاً للاستضعاف، ويجعلُ صـــاحبه متكبّراً مستكبراً، ويُريه نفسه أكبر من حجمها بكثير، ويُريه الآخرين أصغرَ من حجمهم بكثير، ويستمرُّ هذا المريض المتكبرُ في الانتفاشِ والتضخم النفسي، حتى يَرى نفسه ندّاً لله رب العـــالمين، فيدّعي الألوهية، وما وصلوا لهذا إلاّ لأنهم استكبروا !!.

**أمّا أهمُّ أسبابِ استكبار المتبوعين المستبدِّين فترجع الى:**

١. انتفاش نفسياتهم وانتفاخُها، وشعورهم بأنهم أكبرُ بكثيرٍ من حجمهم الطبيعي.
٢. استحواذ الشيطان عليهم، وإغواؤه لهم.
٣. كفر بعضهم بالله، وادعاء الألوهية أو الربوبية، وتعبيد الأتباع لهم مـــن دون الله. ونسيان آخرين له، وتعدِّيهم على حقِّه في الحكم والتشريع، ورفـــض أحكامـــه وتشريعاته، التي تتضمن العدل والحرية والمساواة.
٤. انحرافهم، وانكبابهم على المعاصي والذنوب، وانغماسهم في الشهوات والملـــذات، وممارسة حياتهم بصورة إباحية بهيمية.
٥. اغترارهم بما في أيديهم من مظاهر المال والجاه والسلطة.
٦. رضوخ الأتباع وخنوعهم، وتقبلهم الاستخفاف والاستعباد والازدراء، وتنـــازلهم عن حقوقهم وحتى وجودهم ([2]).

**ومن أهم الصفات التي أشار إليها القرآن التي يتصف بها المستبِدّون الطغاة هي:**

**الاستكبار:** وهذا أعظم داء، ويتفرع عنه أدواء كثيرة ([3])، قال تعالى:**{وَاسْـــتَكْبَرَ هُـــوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ}**(القصص: **٣٩**)، والاستكبار: يأتي في اللغـــة بمعنى الامتناع عن قبول الحق معاندةً وتكبُّراً ([4]).

---

([2]) هارون بن موسى: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ص **٣٦٩**، مادة (استكبروا).

([1]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص **١٣٢-١٣٣** و ص **١٨٩-١٩٠** .

([2]) محمد زكريا النداف: الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية في القرآن والسنة، ص **٢٠١** .

([3]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج **٩**، ص **٤٠٣** .

**الاستخفاف:** القرآن الكريم يبين ما في نفس المستبدّ من استخفاف واحتقار لمن يستبدّ بهم، قال تعالى:{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}(الزخرف: ٥٤)، أي: " وجدهم خِفافَ العقولِ " ([1])، ويقول الراغب ([2]): " أي: حملهم أن يَخِفُّوا معهُ، أو وجدهم خِفافاً في أبدانهم وعزائمهم، وقيل: معناه وجدهم طائشين " ([3])، واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات المصطنعة في نفوسهم، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، وكلمة الاستخفاف تحمل في طياتها معاني الاهانة والاحتقار والاستهزاء والإذلال والاستغلال ([4]).

**الطغيان:** قال تعالى:{وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ}(الفجر: ١٠-١١). والطغيان على أربعة وجوه، وهي: الضلالة، والعصيان، والارتفاع : الكثرة، والظلم ([5]).

**الفساد:** قال تعالى:{فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}(الفجر: ١٢)، والفساد على ستة وجوه، منها: المعاصي، والهلاك، والقتل، والفساد نفسُهُ ([6])، والفساد أيضاً: خُروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويُضادُّه الصَّلاح ([7]).

الفساد والاستبداد بينهما تلازم، ولا ينفك أحدهما عن الآخر، لذا نرى القرآن الكريم يربط بين الطغيان والفساد، نحو قوله تعالى:{إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا}(النمل: ٣٤).

**الضلال (عدم الرشد):** قال تعالى:{وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى}(طه: ٧٩)، وفي تفسير «الضلال» ثمانية وجوه، وهي: الغيّ - وهو الكفر-، والاستزال، والخسارة، والشقاء، والإبطال (الإحباط)، والخطأ، والجهل، والنسيان. والضلال: العُدول عن الطريق المستقيم، ويُضادُّه الهداية

---

([4]) حسنين محمد مخلوف، كلمات القرآن، تفسير وبيان، طبعة خاصة، ص ٢٩٤ .

([2]) الراغب الاصفهاني (...- ٥٠٢ هـ /...- ١١٠٨م): هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب، أديب من الحكماء والعلماء من أهل أصبهان، سكن بغداد، واشتهر، من كتبه: محاضرات الأدباء، الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأخلاق وسمي (أخلاق الراغب)، جامع التفاسير، تحقيق البيان، مفردات ألفاظ القرآن. الزركلي: الأعلام، مج ٢، ص ٢٥٥ .

([6]) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٨٩ .

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٣١٩٤ . الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٨٤ .

([2]) هارون بن موسى: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ص ٢٢٦-٢٢٧، مادة (الطغيان) .

([3]) المصدر نفسه، ص ٤٠-٤١، مادة (الفساد) .

([4]) الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٣٦ .

([1]). وقال تعالى:{فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ}(هود: ٩٧)، " أي ليس فيه رشد ولا هدى وإنما جهل وضلال وكفر وعناد " ([2]).

**القسوة والبطش:** قال تعالى: {فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى}(طه: ٧١)، وقال: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}(الشعراء: ١١٦)، وقال:{وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}(الشعراء: ١٣٠)، والقسوة: من قسا يقسو: إذا صَلُبَ واشتدَّ فهو قاسٍ، والقَسوة اسم منه، وهو: غِلظ القلب. والبطش: تناول الشيء بصولة، وفي تفسيره وجهان: الأول: العقوبة. والثاني: القوة ([3]).

---

([5]) ينظر: هارون بن موسى: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ص ٣٣١-٣٣٣، مادة (ضلال). الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٠٩ .

([6]) سعيد حوّى: الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة – مصر، ط٦، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، مج ٥،ص ٢٦٠٠ .

([7]) ينظر: أحمد بن محمد، المقري الفيّومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، مؤسسة دار الهجرة، ايران – قم، ط١، في ايران، ١٤٠٥هـ، ج ٢، ص ٥٠٣ . الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٧١ و ص١٢٩. هارون بن موسى: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ص ٣٧٠، مادة (البطش).

## الفرع الثاني

## أهم أسباب وعوامل استبداده وطغيانه

لقد أشار القرآن الكريم إلى أسباب وعوامل الاستبداد في آيات قرآنية صريحة، وإن هذه الأسباب والعوامل ليست قاصرة على الإنسان المستبدّ وحده، بل هي من طبيعة النفس البشرية، قال تعالى:{كَلاَّ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى،أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}(العلق: ٦-٧)، وقال تعالى:{إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا}(الأحزاب: ٧٢).

وسنذكر أهم الأسباب والدوافع في النقاط الخمس الآتية:

### ١. دافع التَمَلُّك:

التَمَلُّكُ لغةً: مَلَكَ الشيءَ: حازه وانفرد بالتصرف فيه. وتَمَلَّكَ الشيءَ: امتلكه، أو مَلَكَهُ قهراً. مَلَكَهُ يَمْلِكُه مِلْكاً: احتواه ([1]).

والتَمَلُّك: عبارة عن الدافع أو الميل أو الرغبة للحصول على شيء مفيد أو جذاب.

والإنسان بطبيعته وفطرته يميل إلى تملك القناطير المقنطرة والقرآن الكريم يقرّ بوجود غريزة التملك لدى الإنسان وحبه الشديد للمال وتعلقه به، قال تعالى:{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}(آل عمران: ١٤)، وقال:{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}(القصص: ٧٩)، وقال:{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}(الفجر: ٢٠)، وتبين هذه الآيات حقيقة الطبيعة الانسانية في نزعته وحبه للمال حباً كثيراً شديدا مع الحرص والشره ومنع الحقوق ([2]).

وقد أشار الرسول (ﷺ) إلى حب الإنسان لتملك المال، فقال (ﷺ): ((لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَالِثٌ وَلا يَمْلأُ فَاهُ إِلا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ)) ([3]).

---

([1]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ١٣، ص ١٨٣-١٨٦. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٨٧٨-٨٧٩ . مجمع اللغة العربية:المعجم الوسيط، ص ٨٨٦ . جبران مسعود: الرائد، ص ٨٥١ . الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٧٧٤-٧٧٦ .

([2]) ينظر: الزمخشري: تفسير الكشاف، ص١٢٠١.

([3]) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت، (د. ط ، د. ت)، ٣٦٨/٤ ، ١١٧/٥ . علي بن بلبان، الفارسي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م،

ونرى (المُلْكَ) سبباً يدفع الإنسان إلى الكبرياء والطغيان والبَطَر، والاستعلاء على الخلق، وحتى إدعاء الإلوهية وأنه نظير لله فيما يفعل في الأرض، قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}(البقرة: ٢٥٨)، لماذا جادل إبراهيم في ربه ؟ قال تعالى:{أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ} فكأن المُلْكَ هو السبب في إغوائه.. أي: لأن الله آتاه المُلك، أي إنّ إيتاءه المُلك أبطره، وأورثه الكبر والعتو، فحاجّ إبراهيم لذلك ([1]).

وامتلاك المال والثروة يعطي الإنسان إحساساً بالقدرة، وبالتالي رغبةً في التحكم في الناس وربما امتلاكهم. قال تعالى:{إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}(العاديات: ٦-٨) وفي آية:{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} " فمعنى:{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} إنه ليُحِبُّ المالَ حبَّاً شديداً يدفعُهُ إلى السَّطو على الأموال التي لا حقَّ له بها، بالظلم والعدوان، والبغي والطغيان " ([2]).

والثروة والرئاسة نوعان من التملُّك، يحملان الإنسان على الكِبر والبَطر والبَغي على الحق وعلى الخلق، برهان ذلك، قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}(البقرة: ٢٥٨)، وقوله تعالى:{كَلاَّ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى،أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}(العلق: ٦-٧)، فعلّل سبحانه هذا التجرؤ والطغيان بحصول الرئاسة والمُلك والثروة، ورؤية الإنسان لنفسه الاستغناء ([3]).

فشعور الإنسان بالاستغناء وعدم الحاجة إلى الغير، بسبب امتلاكه لبعض القوى المادية أو المعنوية، فتنة تؤدي إلى الطغيان، يقول عليّ بن أبي طالب (ﷺ): (من مَلَكَ استأثر) ([4]).

---

مؤسسة= =الرسالة، ٢٩/٨ ، ٣٠/٨ . علي بن أبي بكر، الهيثمي: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ط ، د. ت)، ص ٦١٥ .

([1]) سعيد حوّى: الأساس في التفسير، مج ١، ص ٦٠٦ . وينظر: الشوكاني: فتح القدير، مج ١، ص ٤١٣ .

([2]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ١، ص ٦٣٧ .

([3]) ينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، مكتبة المعارف، الرياض – المملكة العربية السعودية، (د. ط)، ص ١٧٥ .

([4]) الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، (د. ت)، ٢٤/٥، الطبراني: مسند الشاميين، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٥٤/١ . المتقي الهندي: كنز العمال في الأفعال والأقوال، تحقيق: بكري الحياني، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، (د. ط ، د. ت)، ٢٨٧/١٢ .

**والاستغناء** هو في الأصل امتلاك الأشياء التي تجعل مالِكها غنياً بها عن غيره، غير محتاج إلى أحد. ويكون بالمال والقوة والسلطان، وبالصحة والعافية، وبالأتباع والأنصار. ودلّ هذا النص{كَلاَّ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى،أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} على أنّ من ظواهر السلوك الإنساني، أنَّه يطغى إذا رأى أنه استغنى، وهذه الظاهرة مشاهدةٌ في الواقع الإنساني بنسبةٍ عاليةٍ جداً.

وهو شعورٌ نفسيٌّ كاذب، يراه الإنسان لنفسه. وهي صفة شرطية إذ ليس كل إنسانٍ طاغياً بالفعل، ولكن من رأى أنه استغنى طغى ([1]).

وهنا ينبغي أن نفرق بين الغنى والاستغناء، فالغنى: أمر مشروع، والمرفوضُ منه هو الغنى الاحتكاري الاستغلالي الذي يدفع بالإنسان إلى البغي والاستكبار، وأما الاستغناء فهو أن يرى الإنسان نفسه مُستغنياً عن الله وعن الآخرين، وأن يتكبر.

قال تعالى مخبراً عن قارون صاحب الكنوز والثروات الهائلة، والذي دفعه غناه إلى البغي والاستكبار:{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ }(القصص: ٧٦)، وقال: {وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ }(العنكبوت: ٣٩).

وفرعون اغترّ بما يملك من القوة المادية، وكذّبَ موسى (عليه السلام)، وكانت نظرته إلى الأمور نظرة مادية بحتة، فأعمَته الحياةُ الدنيا، وانبهر بزينتها، وانخدع بمتاعها، قال تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ، فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}(الزخرف: ٥١-٥٣)، وعليه فانّ امتلاك القوة المادية من قبل الحكام المتألهين؛ يدفعهم إلى وزن الأمور بميزان القوة والمال، والاستهانة بكل مفاهيم الحق والعدل والحرية، التي جاء بها الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وتكذيبهم ومعاداتهم ومحاربتهم. وسبب هذا الطغيان غرورهم بالملك ([2]).

فالطغيان والتكذيب نتيجة طبيعية للاستغناء من قبل أولي النعمة وأصحاب المال الممدود والبنين، قال تعالى:{كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى،أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}(العلق: ٦-٧)، وقال:{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً}(المزمل: ١١)، وقال:{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا،وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا،وَبَنِينَ شُهُودًا،وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا،ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ،كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا}(المدثر: ١١-١٦).

---

([1]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ١، ص ٥٧ و ٥٨ .

([2]) ينظر: يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة، ج ١، ص ٥٦ .

وقد عرف إبليس هذا الدافع القوي لدى آدم (عليه السلام) وحاول استغلاله مغرياً إياه بالأكل من الشجرة المحرمة، قال تعالى:{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَى}(طه : ١٢٠). وقال:{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}(الأعراف : ٢٠).

وفعلاً نجح الإغواء لآدم (عليه السلام) على الرغم من التحذير الإلهي له، وعلى الرغم من إتاحة فرص التنعم المتعددة في الجنة، قال تعالى:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ}(البقرة : ٣٥)، وهذا يدل على قوة هذا الدافع وعمقه في النفس البشرية, وعلى أنه نقطة ضعف يسهل الإغواء عن طريقه ([1]).

وما دفع فرعون وملأه الاستمرار في نهجهم الاستبدادي، وعدم الرضوخ للحق، داعي التملك، وهذا واضح من قول فرعون عن موسى (عليه السلام) في قوله تعالى:{يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}(الأعراف: ١١٠)، وفيه من دواعي التملك، أي أنّ موسى يريد أن يخرجكم من أرض مصر بسحره ليتملك عليها. قال القاسمي ([2]): فيدل على أنّ من أقوى الدواعي إلى ترك الدين، المحافظة على الرئاسة والمال والجاه. وتدلّ أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ([3]).

والتملّك فطرة موجودة في كل إنسان، وقد تكون طاغية لذا حدّ الإسلام طرق التملّك المشروعة، وحذّر من طرق التملّك المحرمة.

وقد دعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى السيطرة على دافع التملّك، وحثّ على القناعة والرضا بما قسّمه الله تعالى للإنسان من رزق، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، أنّ النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: ((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ)) ([4]). ونهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الشح، وعن

---

([1]) ينظر: عمرو خالد: إني جاعل في الارض خليفة، ط١، ٢٠٠٦م، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ص٥٧–٦٠ .

([2]) القاسمي (١٢٨٣–١٣٣٢هـ / ١٨٦٦–١٩١٤م): هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد، إمام الشام في عصره، علماً بالدين، وتضلعاً من فنون الأدب، مولده ووفاته في دمشق، اتهم بتأسيس مذهب جديد فقبضت عليه الحكومة سنة ١٣١٣هـ ، فرد التهمة وأخلي سبيله، فانقطع في منزله للتصنيف وإلقاء الدروس في التفسير وعلوم الشريعة، له مصنفات كثيرة، منها: دلائل التوحيد، موعظة المؤمنين، محاسن التأويل (في التفسير). الزركلي: الأعلام، مج ٢، ص ١٣٥ .

([3]) القاسمي: محاسن التأويل، مج ٥، ج ٧ ، ص ٢٢٩ .

([4]) البخاري: صحيح البخاري المسمى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسننه وأيامه، مطبعة دار الطباعة العامرة باستنبول، نشر دار الفكر، ١٤١٠هـ، بيروت، ١٧٨/٧، (د. ط) . مسلم بن الحجاج بن مسلم، أبو الحسين القشيري: صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، (د. ط ، د. ت)، ١٠٠/٣ .

اكتناز المال وعدم إنفاقه. فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله (ﷺ): ((اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ)) ([1]).

## ٢. دافع الخلود:

الخلود لغةً: مِنْ خَلَدَ يَخْلُدُ، خُلْداً وخلوداً: بقي وأقام ودام و لم يـزُل، ودار الخُلْـدِ: الآخرة: لبقاء أهلها فيها. والخُلْد: دوام البقاء في دار لا يخرج منها. وخَلَدَ بالمكانِ: أطـال بـه الإقامَةَ. يقول الراغب: " الخلود: هو تبرِّي الشيءِ من اعتراض الفسادِ، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأُ عنه التغيير والفسادُ " ([2]).

والخلود في الجنة أو في النار معناه في الشرع: " الدوام الأبدي، أي لا يخرجون منها، ولا هي تفنى بهم، فيزولوا بزوالها، وإنما هي حياة أبدية لا نهاية لها " ([3]).

قال تعالى:**{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}**(الأعراف: ٢٠). فهذا الكائن المتفرد، له شهوات معينة..ومن شهواته يمكن ان يقاد ! وراح إبليس يداعب هذه الشهوات: وجاءهما من ناحية رغائبهما العميقة، قال تعالى:**{وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَـيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}.**

وفي قراءة: (ملِكين) بكسر اللام. وهذه القراءة يعضدها النص الآخر في سورة طه:**{هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَى}**... يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد، وهما أقـوى شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يقال: إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هي إلا وسـيلة لتحقيـق شهوة الخلود بالامتداد في النسل جيلاً بعد جيل، وعلى قراءة (ملَكين) بفتح اللام يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود ([4]).

---

([1]) البخاري: صحيح البخاري، ٩٩/٣ . مسلم: صحيح مسلم، ١٨/٨، (واللفظ له) . أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٩٢/٢ ، ١٣٦/٢ . محمد بن جعفر، أبو عبد الله الكتاني: نظم المتناثر من الحديث المتواتر، تحقيق: شرف حجازي، ط٢، دار الكتب السلفية، مصر، (د. ت)، ص ١٦٥ .

([2]) ينظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٩١-٢٩٢ . ابن منظور:لسان العرب، مـج ٤، ص ١٧١ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٢٦٧ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٢٤٩ . جبران مسعود: الرائـد، ص ٣٨٥ .

([3]) وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ١، ص ١٠٨.

([4]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٣ ، ص ١٢٦٨-١٢٦٩ .

ودافع الخلود دافع أساسي في النفس البشرية، وقد عرفه إبليس وحاول استغلاله، عندما أراد أن يغوي آدم فقال له مغرياً إياه بالأكل من الشجرة المحرمة، قال تعالى:{**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَى**}(طـــه: ١٢٠). فآدم يحمل الضعف البشري تجاه الرغبة في البقاء والرغبـــة في السلطان. ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان لقد لمس في نفسه الموضع الحساس، فالعمر البشـــري محدود، والقوة البشرية محدودة. من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة والى الملك الطويل، ومن هـــاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمـــة مخبوءة.. ومن ثم نسي العهد، وأقدم على المحظور ([1]).

ويبدو أنّ هذا الدافع يكون متخفياً في نفس المستبدّ، فهو يسعى إلى الخلـــود وينكـــر في أعماقه فكرة الموت، وكلما اتسعت دائرة نفوذه وزادت سلطته انزلق إلى الاعتقاد بفكرة خلوده.

## ٣. التصوُّر الخاطئ:

التصوُّر لغةً: مصدر أصله مأخوذٌ من مادة (صَوِرَ يَصْوَرُ: صَوْراً. مالَ، اعوجَّ). و(صَوَّرَ تصويراً)، وصوّره: جعل له صورة وشكلاً. ورسمه. ونقشه. وصوّرَ الأمرَ: وصفه بدقّة. وصـــوِّرَ له: خُيِّلَ له. وصوَّر وتصوَّرت الشيء: توهمت صورته فتصوَّر لي ([2]).

التصوّرُ اصطلاحاً: حصول صورة الشيء في العقل ([3]).

الخاطِئ لغةً: إسم فاعل أصله مأخوذٌ من مادة " خَطِئَ يَخْطَأُ خَطَأً: إرتكب ذَنْباً، وابتعد عن الصواب. وخَطِئَ السهمُ الهدفَ: لم يُصبه " ([4]). والخطأُ: ما لم يُتعمَّد من الفعل، وفي التنزيل العزيز:{**إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيرًا**} (الإسراء: ٣١) ([5]). و " المخطئ من أراد الصـــواب فصـــار إلى غيره، والخاطِئُ مَنْ تعمد لما لا ينبغي" ([6]).

وعليه فالتصوّر الخاطئ: هو حصول الصورة بعيداً عن الصواب.

ويمكن الوقوف على بعض من هذه التصورات الخاطئة التي كانت في أذهـــان النمـــاذج القرآنية للاستبداد كنمرود، قال تعالى:{**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْـــكَ إِذْ**

---

([1]) سيد قطب : في ظلال القرآن، مج ٤ ، ص ٢٣٥٤ .

([2]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٧ ، ص ٤٣٨-٤٤١ . جبران مسعود: الرائد، ص ٥٥٦-٥٥٧ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٥٢٨ .

([3]) الجرجاني: كتاب التعريفات، ص ٥٩ .

([4]) جبران مسعود: الرائد، ص ٣٨١ .

([5]) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٢٤٢ .

([6]) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٨٨ . ( الهامش رقم ١ نقلاً من العباب (خطأ) ).

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}(البقرة:٢٥٨). في هذه الآية الكريمة يبين الله لنا التصور الخاطئ الذي يسير عليه الطاغية «نمرود» في فهمه لإحدى خصائص الألوهية ألا وهي الإحياء والإماتة، فيَعْمَدُ إلى رجلين، ويحكم عليهما بالموت، وينفذ الحكم على أحدهما، ويعفو عن الآخر، وفي تصوره الخاطئ أنه قد أمات الذي نفذ فيه حكم الموت، وأحيا الذي قد عفا عنه، وبهذا الاستخفاف وبكل تبجح يزعم ويدعي أنه يحيي ويميت، فينبغي أن يدين له الناس، ويعبدونه ويقدسونه، وهكذا تفعل التصورات والتخيلات الخاطئة بالإنسان المستبِدّ، وتجعله يتلاعب بالأرواح الإنسانية، والاستهتار بالحياة ([1]).

وفرعون الطاغية المغتر بما يملك من مُلك مصر، يزن الأمور بالميزان المادي فقط، فتصوره الخاطئ، هو الذي دفعه إلى التكذيب والبغي والظلم، قال تعالى:{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ، فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلآئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}(الزخرف: ٥١-٥٣).

والاستكبار الذي جعله الله سبباً لأن يحيق بأهله المكر السِّيئ، حالة نفسية، أي فكرة خاطئة بالنفس، تجعل الإنسان مستكبراً ، يقول ما لا يفعل، ويدَّعي ما لا يقدر عليه، قال تعالى: {اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ}(فاطر: ٤٣)، وكل ذلك ناشئ من التقدير الخاطئ للواقع والسُّنن..

إنّ المستكبر يتصف بالبعد عن النظر الموضوعي، وهذا البعد مبعثه الغرور، الذي هو محتوى نفسي خاطئ.

ومشكلة الاستكبار تلقى اهتماماً كبيراً في القرآن، لأنّ الفارغ عن فهم الحقيقة يكون مستكبراً حين يملك، ويذل إن زال عنه الملك ([2]). وهذا هو شأن المتألهين من الحكام، تدفعهم تصوراتهم الخاطئة، إلى ادعاء الألوهية والربوبية، وإلى الاستبداد بالخلق.

والاستكبار يمنع الحكام المتألهين من التصور والإدراك الصحيح للواقع، ويدفعهم الملكُ إلى البطر والاغترار بما في أيديهم من الإمكانات والثروات، فيجورون ويظلمون.

---

([1]) وردت قصة الرجلين في التفاسير، ومنها: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج ١، ج ٣، ص ٣٦ . سعيد حوّى: الأساس في التفسير، مج ١، ص ٦٠٥ . إسماعيل بن كثير، عماد الدين، أبو الفداء القرشي الدمشقي، الشهير بابن كثير: تفسير القرآن العظيم، خرّج أحاديثه: محمود بن الجميل، وليد بن محمد بن سلامة، خالد بن محمد بن عثمان، ج ١، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دار الإمام مالك - الجزائر، مكتبة الصفا - القاهرة، ص ٣٦٥ .

([2]) جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص ١٧٢-١٧٣ .

### ٤. دافع السيطرة – السادية:

دافع السيطرة نزعة موجودة عند البشر جميعاً أسوياء ومنحرفين، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، أما النزعة السادية، فهي النزعة التي تمتزج فيها دافع السيطرة بالتلذذ عند إيقاع الألم والأذى بالآخرين. وهي نزعة مرضية موجودة عند الأشخاص العاجزين ومنهم المستبِدّون.

فالمستبِدّ يمارس ويعبِّر عن هذه النزعة السادية بدافع أساسي واحد هو السيطرة الكاملة على الشخص الآخر، بأن يجعله موضوعاً عاجزاً تحت إرادته، ذلك أنّ متعة السيطرة التامة على شخص آخر هي ماهية الدافع السادي ([1]).

والرغبة في السيطرة، والميل إلى التسلّط، إنّما هي نتيجة لضعف نفسي يتصف بها الإنسان المستبِدّ، وهي محاولة لتغطية العجز والضعف الذي يشعر به، فيقع فريسة للأوهام والأحاسيس والمشاعر الكاذبة، فيصاب بالأمراض النفسية ([2]).

### ٥. دافع الظلم (العدوان):

**الظُلْمُ** لغةً: من مادة ظَلَمَ يَظلِمُ ظُلماً، ظلمه:جار عليه، لم يُنصفه، وظلمه حقه: نقصه إياه، وجاوز الحدَّ، و يأتي بمعنى الميل عن القصدِ، وكذا بمعنى النقص ([3]).

والظلم في الاصطلاح: هو وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة: عبارة عن التعدّي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل: هو التصرف في ملك الغير ([4]).

وقد ورد جذر (الظاء، اللام، الميم) في القرآن الكريم بصيغ مختلفة (٣١٥) مرة ([5]).

والإنسان بطبيعته يحمل دافع الظلم، فيظلم نفسه ويظلم غيره، فالنفس فيها داعي الظلم لنفسها، يقول ((سبحانه وتعالى)): **{فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}** (النمل:١٣– ١٤)، وأي ظلم أفحش

---

([1]) ينظر: محمد هلال الخليفي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٢٩٧– ٢٩٨ . علي كمال: النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها، ص ٣٣٠–٣٣٥ .

([2]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٤٢–٤٣ .

([3]) ابن منظور: لسان العرب، مج ٨، ص ٢٦٣–٢٦٨ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٠٤٥ . الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٣٧ . مجمع اللغة العربية:المعجم الوسيط، ص ٥٧٧ .

([4]) الجوهري: الصحاح، مج ٥، ص ١٩٧٧ . الجرجاني: كتاب التعريفات، ص ١٤٤ .

([5]) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بحاشية المصحف الشريف، ط٢، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، دار الحديث، القاهرة، ص ٥٥١–٥٥٧ .

من ظُلْمِ مَن اعتقد واستيقن أنها آيات بينات واضحات جاءت من عند الله ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً مكشوفاً لا شبهة فيه ([1]).

والذي يدفع الحكام إلى الاستبداد هو الظلمُ والعلُوُّ والاستكبار، قال تعالى:{**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ**}(القصص: ٤)، و " العلوُّ: الارتفاع الحسّيّ الذي يُشهَدُ بالأبصار، واستعمل في القرآن بمعنى الارتفاع المعنوي، ومنه بلوغ الإنسان أن يكون ملكاً مستَبِدّاً متسلِّطاً جبّاراً.." ([2]).

فالعلُوُّ والاستكبار، من أخطر الأمراض والانحرافات التي تصيب الحكام، وهو أساسٌ لكلِّ التصرفات والممارسات الاستعلائية والاستبدادية التي تصدر عنهم بعد ذلك.

واستكبار الحكام المستبدّين واستعلاؤهم، أنتج الطغيان والتجبّر، وبدوره أنتج الفساد والإفساد، والتدمير والهلاك. وحال من يريد العلوَّ والفسادَ، بَطَرُ الحقِّ – أي: دفعه وجحده – وغَمْطُ الناسِ – أي: احتقارهم وازدراؤهم – ، كما بيَّنَ ذلك رسولُ الله (ﷺ)، عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): (( لا يَدْخلُ الجنّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، و لاَ يَدْخلُ النَّارَ مَنْ في قَلْبِهِ ذَرَّةٌ مِنْ إيمانٍ))، فقالَ رجلٌ يا رَسُولَ الله: إنّي أُحِبُّ أنْ يكونَ ثَوبي حَسَناً، أَفمِنَ الكِبْرِ ذاكَ ؟ قالَ: (( لا؛ إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ)) ([3]).

وإرادة العلوِّ وإرادة الإفساد هي التي تدفع بالإنسانِ إلى فقدان البصيرة، والانزلاق نحو الحضيض في الفكر والسلوك، قال تعالى تعقيباً على قصة فرعون – رمز التسلُّط والتجبّر السياسي–، وتعقيباً على قصة قارون – رمز التسلُّط الاقتصادي الاحتكاري –، للإشارة بأنّ السلطة والثروة اللتان كان فرعون وقارون يعيشان فيهما كانا من قبيل العلوِّ والفساد:{**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**}(القصص: ٨٣)، فالغرض من هذا التعقيب **بيان** أنّ إرادة العُلُوّ في الأرض إذا سيطرت على مشاعر الإنسان وتصوراته فلا بدّ أن تنطمس بصيرته، فيتزلق إلى جهة الحضيض في الأفكار والمفاهيم، وفي حركات النفس وسكناتها وفي أخلاقه وتصرفاته وفي سلوكه داخل المجتمع البشري ([4]).

---

([1]) ينظر: الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٧٧٧ . ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، مج ٢٨، ط١، ١٣٨٣هـ، مطابع الرياض، ص ١٤٦ .

([2]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٩، ص ٣٤٣ .

([3]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٦٧–١٦٨. ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ط٥، ١٩٩٠، مكتبة المعارف، بغداد، ص ١٦٤ . والحديث ورد في مسلم: صحيح مسلم، ٦٥/١ . سنن أبي داود، تحقيق: سعيد محمد الحمام، ط١، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، دار الفكر، بيروت، ٢٦٨/٢ .

([4]) ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٩، ص ٤٨٠–٤٨٢ .

# الفصل الثاني

## أدوات النظام الاستبدادي وخصائصه: (رؤية قرآنية)

### المبحث الأول: أدوات النظام الاستبدادي

**المطلب الأول: السلطة**
**المطلب الثاني: المال**
**المطلب الثالث: الإعلام**
**المطلب الرابع: الجهل**
**المطلب الخامس: الانتهازيون**

### المبحث الثاني: خصائص النظام الاستبدادي: (رؤية قرآنية)

**المطلب الأول: الفردية المطلقة (التأله)**
**المطلب الثاني: الجبروت (ظلم وطغيان وإرهاب)**
**المطلب الثالث: التجرد من القيم (الفسق والفجور)**
**المطلب الرابع: انعدام الحرية**
**المطلب الخامس: الاحتكار والاستغلال**
**المطلب السادس: الترف والتبذير**

# المبحث الأول

# أدوات النظام الاستبدادي

**المطلب الأول: السلطة**
**المطلب الثاني: المال**
**المطلب الثالث: الإعلام**
**المطلب الرابع: الجهل**
**المطلب الخامس: الانتهازيون**

# المبحث الأول
## أدوات النظام الاستبدادي

إن لكل نظام وسائل وأدوات وأساليب يستخدمها للوصول إلى تحقيق أهدافه ومقاصده، والنظام الاستبدادي يستغل مجموعة من الأدوات لتحقيق مآربه، ويوجهها الوجهة التي تصبو في خانة استمراره وديمومته، غير آبه بالنتائج والآثار السلبية لما يقوم به.

ومن أبرز الأدوات التي يستغلها النظام الاستبدادي، ما يأتي:

## المطلب الأول
### السلطة

السُلْطةُ لغةً: مأخوذة من كلمة (سلَطَ): وسلَطَهُ عليه: جعله يحكمه ويسيطر عليه، وسلَّطَهُ: أطلق له السلطة. والسَّلاطة: التمكُّنُ من القَهْرِ. والتسليطُ: التغليب، إطلاق القهر والقُدرة. وسُلْطَةٌ: مُلْكٌ، حُكْمٌ، سيطرةٌ، له عليه سُلطةٌ ([1]).

والسلطان: يأتي في اللغة بمعنى الحجة والبرهان، وبمعنى القوة والقهر، وبمعنى الملك والولاية على الناس، والمناسب هنا المعنى الثالث ([2]).

السلطة في العرف والاصطلاح، هي: " القدرة على ضمان الإذعان أو الامتثال لأسباب تتعلق بالقيم أو القواعد الأساسية يُقرّ بها عموماً بوصفها شرعية " ([3]).

والسلطة هي القوة الطبيعية أو الحق الشرعي في التصرف، أو إصدار الأوامر في مجتمع معين ويرتبط هذا الشكل من القوة بمركز اجتماعي يقبله أعضاء المجتمع بوصفه شرعياً، ومن ثم يخضعون لتوجيهاته وأوامره وقراراته ([4]).

والسلطة بمفهومها العام هي القوة والنفوذ التي تسعى إلى تنظيم الحياة وضبطها وتوجيهها، بينما يسعى التسلّط إلى مجرد الهيمنة والسيطرة والإخضاع. والتسلّط فيه نزعة

---

([1]) ابن منظور: لسان العرب، مج ٦، ص ٣٢٦-٣٢٨ . . جبران مسعود: الرائد، ص ٤٩٧ . الراغب الاصفهاني: مفردات الفاظ القرآن، ص ٤٢٠ .

([2]) ينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ص ١٧٤ .

([3]) جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٣٦ .

([4]) ثناء فؤاد عبد الله: آليات الاستبداد وإعادة إنتاجه في الواقع العربي، مقال منشور في (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٨٧ .

استبدادية فهو تأكيد جانب السيطرة والقوة والخضوع لأوامر المتسلّط ونواهيه وإنزال العقاب بالآخرين. والتسلّط هو الإسراف في استخدام السلطة لغايات لا تتحقق فيه مصالح الأفراد ولا تعبر عن طموحات الخاضعين لها. وهو ممارسة القوة والبطش والإكراه والإرهاب، والعدوان ([1]).

ونقصد هنا عند الحديث عن السلطة في النظام الاستبدادي، السلطة السياسية، وهي قوة مخصصة لإدارة جماعة بشرية يتولاها شخص أو أكثر بطريقة مشروعة أو غير مشروعة لتحقيق غايات معينة. وتتميز بعدة مميزات، تتلخص في أنها سلطة عامة، أي تتضمن كل نواحي النشاط البشري في الدولة. وسلطة عليا لأنها تسمو على جميع السلطات الأخرى، ويخضع لها جميع الشعب. وسلطة أصيلة تنبع منها جميع السلطات الأخرى الفرعية في الدولة. وسلطة مستقلة غير مندمجة أو تابعة لأية سلطة أخرى. وسلطة محتكرة للقوة، فالقوة العسكرية المادية الموجودة في الدولة تابعة للسلطة السياسية وحدها، وهي التي تجعلها قوة قاهرة مسيطرة. وأخيراً تتميز بانفرادها في وضع القوانين والأنظمة ([2]).

والسلطة في تصوّر المستبِدّ هي ملكية خاصة، مما يضع المواطنين الذين هم بلا مواطنة، خارج السلطة وخارج حقوق المواطنة السياسية، وطالما أنّ السلطة قد جرى تحويلها من شأن وطني عام إلى اختصاص سلطوي وشأن من شؤون السلطة، فلا رجوع إذاً إلى الشعب ([3]).

وعندما تتحول السلطة المجردة، التي تجد مصدرها وأساسها في الجماعة، التي تحكمها إلى السلطة الشخصية، التي يتمتع بها الحاكم، على إنها ملك له ومرتبطة بشخصه، أو بمعنى آخر عندما لا تكون الدولة هي صاحبة السلطة السياسية، ويتحول الحاكم من مجرد أداة في يدها تمارس من خلاله سلطتها، إلى كونه هو صاحب السلطة السياسية، وتصبح الدولة أداةً في يده يمارس عن طريقها سلطته ([4])، هناك تنقلب وتختل الموازين، وتصبح الدولة ألعوبة بيد الحاكم يديرها كما يشاء.

وللسلطة بريقها الأخّاذ الزاهي، والذي يعمي الأبصار، فمع سقوط تفاحة السلطة الشهية في يد فرد يدرك أنه وضعَ يدَهُ على امتيازات مخيفة، فالعرش لذيذ ومغرٍ لأبعد الحدود

---

([1]) ينظر: عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص ٢٩٢ .

([2]) ينظر: عبد الغني بسيوني عبد الله: النظم السياسية، أسس التنظيم السياسي/الدولة – الحكومة – الحقوق والحريات العامة، ١٩٨٥م، الدار الجامعية، بيروت، ص ٣٤-٣٥ .

([3]) عبد الاله بلقزيز: المعارضة والسلطة في الوطن العربي، أزمة المعارضة السياسية العربية، ط١، ٢٠٠١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ص ٩٦-٩٧ .

([4]) ينظر: عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص ٢٥٧ .

عندما تجتمع كل السلطات بيد شخص أو حزب أو عائلة أو طبقة أو طائفة تحتكرها لنفسها وتتميز بها. ولذا نرى أن أكثرية الحكام يتشبثون بالكرسي، ولا يتركون السلطة أبداً، فالمشكلة معقدة بسبب الطبيعة البشرية. ودرس الإمام الغزالي قديماً ظاهرة ((**عشق السلطة وحب الرئاسة والكرسي**)) واعتبرها آخر ما يخرج من قلوب الصالحين والصديقين، فكيف بقلوب غيرهم ؟! إذ قال: " **آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة** " ([1])، وهي لذيذة لا توازيها أية لذة في الدنيا، وينتشي القلب بتحرك الجموع بإشارة من يد، وتخرّ الرقاب ساجدة بالحمد، وبحركة إصبع ترمى صرر الذهب إلى الأتباع والمقرّبين ([2]). وهكذا يغوي أصحاب السلطة، ويقعون في مستنقع الكِبْر والبَطَر، وينسون إنسانيتهم فيتألهون ويصفون أنفسهم بصفات الذات الإلهية المقدسة. ألا ساء ما يظنون.

والمستبدّون في كل زمان ومكان يستغلون السلطة وما في أيديهم من قوة وإمكانيات للوقوف أمام دعاة التغيير والإصلاح، قال تعالى:{**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**}(الشعراء: **٢٩**)، وهذا ديدن الطغاة والمستبدين استغلال ما في أيديهم من القوة والسلطة من أجل إسكات صيحات التغيير والإصلاح {**لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**}" هذه هي الحجة وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين... وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع. وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد! " ([3]).

ويُسَخِّر المستبدون السلطة من خلال مجمل الطاقات والإمكانات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية، حتى لتكون الصورة بمجملها عبارة عن عملية ارهان وإخضاع كامل لمجمل الحقول المتوفرة والمتاحة.

ويبلغ الاستغلال والتلفيق أقصاه وفي كل المجالات، عندما يتم تسخير كل الفعاليات لصالح المستبدّ ونظام حكمه، وبآليات ووسائل متنوعة ومتعددة ([4]).

والجاه والسلطة من أسباب تكذيب الرسل (عليهم الصلاة والسلام) الذين هم دعاة تحرير الإنسان من استبداد الطغاة والحكام المتألهين، قال تعالى:{**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ**

---

([1]) ينظر: الامام الغزالي: إحياء علوم الدين، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت – لبنان، مج ٣، ص ٣٥٥ .

([2]) هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٢٤٧ .

([3]) سيد قطب : في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٢٥٩٣ .

([4]) ينظر: إسماعيل نوري الربيعي: الثقافة والاستبداد: مفارقات القوة والعنف والشقاق، مقال منشور في (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٥٠ .

أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ، فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}(الزخرف: ٥١-٥٣)، وقال تعالى:{إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ}(الدخان: ٣١) ([1]).

وفي الواقع فإنّ الجماهير تذعن للسلطة؛ ليس فقط لأنهم مطبوعون على الخضوع، ولكن بسبب تراكمات الاستبداد والتسلّط - وما ينطوي عليه من قوة وقهر وعنف - ، وبسبب أجهزة القمع التي تملكها السلطة من جيش وشرطة وأمن ومخابرات، وما تملكها من أساليب القهر من الاعتقال والسجن والتعذيب والقتل وتهديد مصادر الرزق ([2]).

## المطلب الثاني

## المال

ذكر القرآن الكريم استغلال المال من قبل المستبدّين الطغاة،كأداة من أدوات أنظمتهم الاستبدادية، وذلك لغرض التأثير على الجماهير، سواءً كان هذا الاستغلال للضغط والإغراء والتأثير وشراء الضمائر والذمم أم للإفساد الفكري والنفسي أم لمواجهة المصلحين والدعاة إلى الحرية وتشويه سمعتهم وحتى تصفيتهم جسدياً أم للإفقار والتجويع، ناهيك عن استغلاله للمتع والملذات بإسراف من قبل الطبقة الحاكمة. كوسيلة تساعدهم على توسيع دائرة نفوذهم وسيطرتهم.

فالمال واقتصاد الدولة كانت قوةُ نظام فرعون ممثلةً في قارون. وكان فرعون المتألّهُ يستخدم المال أداةَ ضغطٍ على رجاله وأتباعه، بأسلوبِ الترغيب للذين يوافقونه، والترهيب للمخالفين له، ولذلك لَمَّا جاء السحرةُ لمباراة موسى (عليه السلام) وَعَدَهم ومَنّاهم بالمالِ والقربى، قال تعالى:{فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}(الشعراء: ٤١-٤٢)، وأمّا قارون الرأسمالي الإقطاعي المستفيد من حكم الطاغية، كان فرعون يستخدمُه ومالَه لمواجهة موسى (عليه السلام). وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى (عليه السلام)، ولكنه انضمَّ الى الجبهة المعادية لموسى (عليه السلام) ([3])، وتجبّر وتكبّر وطَغى واستَعْلى وبَغى على قومه، لكونه مستفيداً منه، ولكي يحافظ على أمواله ومكانته لديه. وقَبِله فرعون معه، وفيه إشارة

---

([1]) ينظر: عمرو خالد: خواطر قرآنية/ نظرات في أهداف سور القرآن، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، الدار العربية للعلوم، بيروت - لبنان، ص ٣٥٧ .

([2]) ينظر: ثناء فؤاد عبد الله: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٩٣ .

([3]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٦٩-١٧٠.

على أنّ المصالح المادية هي التي تجمع بين المفسدين، برغم اختلاف أديانهم ومذاهبهم وقومياتهم، وقال تعالى عنه:{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ}(القصص: ٧٦)، فكان قارون عوناً لفرعون من أجل تطويع بني إسرائيل لحكم الطاغية، فتجاوز حدّه في الكبر والتجبر على بني إسرائيل ([1])، فاستغلَّ ماله وكنوزه للإفساد الفكري والنفسي، والذي ذكرته الآية الكريمة:{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}(القصص: ٧٩)، وهذا الاستعراض الفخم الذي صنعه قارون للتأثير على بني إسرائيل، وليُريهم ما هو فيه من مجدٍ وعزة ومكانة رفيعة في مصر. وفيه استدراج لقومه على أن يقتدوا به والسير وفق منهجه في التزلُّف إلى القصر الفرعوني، وخِدمة مصالح فرعون، وفي هذا دعوة لهم إلى الوقوف ضد موسى وهارون (عليهما السلام) ومن اتبعهما، لأنه ما كان باستطاعة (قارون) أن يجمع هذا المال العظيم لولا أنه تزلَّف لفرعون، وخدمَه وأطاعَه فيما يأمره به. وكان عوناً له على إذلال بني قومه وتسخيرهم واستعبادهم.

وهذا الاستعراض الفخم الذي ادهش الجمهور العام، فقالوا:{يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} (القصص: ٧٩) ([2])، وهنا حصل الإفساد الفكري والنفسي، فما كان من عقلاء بني إسرائيل إلاّ أن يبادروا للتصحيح، والذي سجَّله قوله تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إلا الصَّابِرُونَ}(القصص: ٨٠).

أما استغلال المال من أجل مواجهة المصلحين وتشويه سمعتهم، فقد ورد في تفسير قوله تعالى:{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} (القصص: ٨١)، أنه " رُوي أن قارون أعطى امرأةً بَغياً مالاً، لتقول لموسى في ملأ من بني إسرائيل: إنكَ زنيت بي، ففعلت هذه البغي ما طلب منها قارون. فانتفض موسى (عليه السلام) مُغضباً وصلّى لربه ركعتين، ثمَّ أقبل على المرأة البغي فاستحلفها بشأنِ ما زعمتْ، وقال لها: ما حملَكِ على هذا ؟ فقذف الله في قلبها رُعْباً، فقالت: إنّ قارون هو الذي استأجرها لتقول هذه الفرية، واستغفرت، فخرَّ موسى لله ساجداً، ودعى[دعا] على قارون " ([3]).

أما استغلال قوة الاقتصاد والثروة الموجودة تحت يد الحاكم، فهي لإفقار وتجويع الشعب، وهذه السياسة المرسومة المعتمدة للعقاب، تجعل المواطنين ينشغلون بهمومهم، ويصرفهم

---

([2]) ينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج ١١، ج ٢٠، ص ١٢٩ .

([1]) ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر، مج ٩، ص ٤٦٢-٤٨٠ .

([2]) المصدر نفسه: مج ٩، ص ٤٦٦ . ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ١٠١-١٠٢ .

السعي الدائم للحصول على الرغيف وقوت اليوم عن شؤون السلطة أو التدخل في الأمور السياسية أو حتى المطالبة بحقوقهم التي منحها الله «سبحانه وتعالى» لهم، وتدني مستوى المعيشة لا يتكلف الحاكم كثيراً من الأموال لكسب الأعوان والأنصار، وحتى في شراء الذمم والضمائر.

وقد تحدث أحد حكام خط (**طنجة–جاكرتا**) أو بعبارة أخرى العالم الاسلامي المغلوب على أمره، عن وصفة ثلاثية عجيبة، المال هو العنصر الأكثر فعاليةً كما يبدو من ثنايا كلامه، وفي جلسة حميمة مع الملأ الذين لا يختلفون مع ملإِ فرعون إلا في الأسماء، أمّا المسميات والمضامين فهي هي نفسها لم تتغير و لم تتبدل، فقال: «يجب أن نعالج «**مرض المعارضة**» بوصفة ثلاثية مضمونة، فإما اشتريناهم **بالمال** ووضعنا تحت أقدامهم السيارات الفارهة والقصور المنيفة، وإمّا ورّطناهم **بالسياسة** فمنحناهم مقاعد وثيرة في ديكور سياسي فيه كل شيء إلا السياسة. وأمّا **الذين يركبون رؤوسهم** ويعاندون فلا يلينون فلهم **السجن** مكاناً ضيقاً مقرنين حتى تتعفن عظامهم فيه ساءت مستقراً ومقاماً. وبذلك ينضبط المجتمع ويعمّه السكون...» ([1]).

ولِما للمال من أثر كبير في نظام الاستبداد، يجعل الكواكبي المال دين وشرف وحياة الاستبداد، فيقول: " الاستبداد لو كان رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب، لقال: أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضرُّ، وخالي الذلُّ، وابني الفقر، وبنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أما **ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال** ([2]).

والمال الذي بيد المستبِدّ ينشأ عنه إضلال الناس عن سبيل الله، قال الشوكاني في تفسيره للآية:{**لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ**}(يونس: ٨٨)، " أي يوقعوا الإضلال على غيرهم" ([3])، لذا نرى موسى (عليه السلام) يتجه إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال، قال تعالى:{**وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ**}(يونس: ٨٨)، وهذا الإضلال يكون إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين. وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم. فموسى (عليه السلام) يدعو ربه أن يجرِّدَ المستبِدّين من وسائل البغي والإغراء، وذلك بتدمير هذه الأموال والذهاب بها ([4]).

---

([1]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٢٠٢ .

([2]) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٦١ .

([3]) الشوكاني: فتح القدير، مج ٢، ص ٦٥٥ .

([4]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٣ ، ص ١٨١٦–١٨١٧ .

فالمال عنصر مهم في دعم الاستبداد، وبالمال تُشترى الكثير من الـــذمم، وبـــه تُكســـر المعنويات ويُذلّ الناس، ويتم إضلالهم وإغواؤهم بالإغراءات المالية.

## المطلب الثالث

## الإعلام

الإعلامُ لغةً: مأخوذة من كلمة (عَلِمَ)، وهو مصدر أعلم، وعلِمتُ الشيءَ أعلَمُه عِلْماً: عرَفْتُه. وخَبَرْتُهُ، وأعلمَ إعلاماً: أعلمَه الخبر أو أعلم به:أخبره به، وأخبره بكذا: أنبأه ([1])، قال تعالى:{فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ}(البقرة: ٣١)، {أَنبِئُونِي} أي: " أخبروني، وقد يستعمل الإنباء في الإخبار بما فيه فائدة عظيمة، وهو المراد هنا " ([2]).

وأجهزة الإعلام هي أجهزة الدعاية والتوجيه والإرشاد ([3])، فالاعلام هو الدعاية.

والقرآن الكريم احتشد له كافة المصطلحات والمفاهيم والألفاظ الإعلامية الدالة على مختلف طرق وأساليب وأنماط الإعلام، وجميعها ما تزال تستخدم بمدلولاتها الإعلامية، وكمصطلحات حضارية في يومنا هذا، من بينها على سبيل المثال:{هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ}(إبراهيم: ٥٢)، {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ، عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}(النبأ: ١-٢)، {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ}(آل عمران: ٦)، {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} (الزلزلة: ٤)، وغيرها ([4]).

وقد وردت كلمة (صُّحُف) في القرآن الكريم (٨) مرات في سبع سور كلها بصيغة الجمع، وبهذه الصيغ (الصُّحُفُ-مرة واحدة -،الصُّحُفِ-مرتان-، صُحُفٍ-مرة واحدة-، صُحُفِ-مرتان-، صُحُفاً-مرتان-)، كما وردت كلمة (الكتاب) في القرآن الكريم (٢٦١) مرة إفراداً وجمعاً ([5]).

وفي المجال الإعلامي الدعائي، يقول ((سبحانه وتعالى)):{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا}(الإسراء: ٦٤)، قوله تعالى:{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ}، " معناه: استدعهم استدعاءً تستخفهم به إلى إجابتك، وبصوتك: تفسيره بدعائك، وقيل بصوتك: بأصوات الغناء

---

([1]) ابن منظور: لسان العرب، مج ٩ ، ص ٣٧٠-٣٧٤ . جبران مسعود: الرائد، ص ١١٢ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٦٢٤ و ص ٢١٤ .

([2]) وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ١، ص ١٢٤ .

([3]) ينظر: جبران مسعود: الرائد، ص ١١٢ .

([4]) عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص ١٠٦-١٠٧ .

([5]) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٥١١ و ص ٧٥١-٧٥٦ .

والمزامير " ([1])، وجاء في تفسير قوله تعالى:{وَاسْتَفْزِزْ}، " أي واعمل بوسائلك الصوتية الإعلامية، لتستفزّ بها من تستخفُّ منهم، فتنهضُهُ من مكان استقراره، و تجعله يتبعك بحماقة و رعُونة. واستفزَّهُ: أي: استخفَّهُ بالمخيفات والمفزعات واستخرجه وختَلَه حتَّى ألقاه في مَهلَكةٍ. ومن الملاحظ أن شياطين الإنس الذين يتلقون بالإيحاء من شياطين الجن تعليماتهم ويضيفون إليها إضافات... قد استخدموا وسائل الإعلام للإغراء والإغواء والتضليل وهي جميعها تدخل تحت عنوان (الاستفزاز الصوتي) " ([2]).

{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ}، قال مجاهد: هو اللهو والغناء والمزامير؛ أي استخف من استطعت أن تستخِفَّه منهم باللهو والغناء والمزامير ([3]).

ومن الوسائل الرئيسة للأنظمة الاستبدادية استخدام فئتين من المؤسسات للتأثير على الشعب: **الأولى:** مؤسسة القمع، لتخويف الجماهير، ولإسكات جميع الأصوات المعارضة ومنعها. **والثانية:** مؤسسة الإعلام، للتأثير على الجماهير، وإشغالهم، وكسب ثقتهم، وللتشويش على المعارضين، وتشويههم.

فالمؤسسة القمعية والمتمثلة حالياً بأجهزة الأمن والمخابرات والجيش والشرطة والمخبرين السريين، وجهاز الحماية، والأجهزة السرية غير المعروفة، مضافاً اليها المؤسسة الإعلامية والمتمثلة حالياً بوسائل متعددة ومتنوعة من القنوات الفضائية والتلفاز والإذاعات والصحف والمجلات والنشريات والدوريات، وغيرها. تعدّان القاعدة الرئيسة التي تستند عليها أنظمة الحكم الاستبدادي في عالمنا المعاصر ([4]).

وفي أنظمة الحكم الاستبدادية تكون وسائل الإعلام محتكرةً بداهةً من قبل الدولة، وهذه الوسيلة تعدّ من الوسائل الأساسية للنظام الاستبدادي في ترسيخ مفاهيم التبعية والخضوع للحكام

---

([6]) الزجّاج: معاني القرآن وإعرابه، مج ٣، ص ٢٥٠ .

([1]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٩، ص ٦٧٤-٦٧٥ .

([2]) الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ١١، ج ٢٣، ص ٥ . عبد الله بن أحمد بن محمود، أبو البركات، النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، (د. ط ، د. ت)، ج ٢، ص ٣٢٠ . محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، عالم الكتب، بيروت، (د. ط ، د. ت)، مج ٣، ص ٦٠٧ . سعيد حوّى: الأساس في التفسير، مج ٦، ص ٣٠٨٨ .

([3]) ينظر: موريس دوفرجيه: مدخل إلى علم السياسة، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، دار دمشق، دمشق، (د. ط ، د. ت)، ص ١٧٥ .

المتألهين، والعمل للحصول على ولاء جميع المواطنين بلا استثناء لهم، وإلهاء الجماهير وإشغالهم عمّا هم فيه من سلب وهضم للحقوق، من قبل السلطة الاستبدادية وطبقة الملأ.

والتركيز على هذه الوسيلة من قبل المستبدين وأعوانهم واضح، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى:{قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}(الشعراء: ٣٦-٣٧)، كاقتراح من الملإ لفرعون، ضمن برنامج وخطة لمواجهة موسى (عليه السلام)، فيها الكثير من اللفتات الإعلامية المؤثرة، مع الإمهال وتأخير المباراة فترة زمنية، قال الفيروزآبادي ([1]): الرّجه: التثبث بالإنسان. وأرجَه: أخّرَ الأمر عن وقته- ([2])، ومعنى قوله تعالى:{قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ} أي: أخِّرْ أمرهما ولا تعجل بعُقُوبتهما ([3])، حتى ترى رأيك فيهما، وتدبّر شأنهما، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح ([4]). وهذا التأخير من صالحهم، لكي يتسنى لهم الاستفادة من الوقت، لجمع قواهم. ولفظة {وَابْعَثْ} فيها معنى الإثارة والإنهاض والتهييج ([5])، والبعث على وجهين: **أحدهما:** الإرسال. **والثاني:** الاثارة. وأصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، ولفظة {حَاشِرِينَ} تعطي معنى الإكراه، والحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى دار الحرب ونحوها. ولفظة {سَحَّارٍ} صيغة مبالغة، وهذه الصيغة في سورة الشعراء تتناسب مع المبالغة في قوة التحدي وشدة المواجهة بين فرعون وموسى، وتتناسب مع غضب فرعون البليغ واندفاعه للنيل من موسى، فهم أرادوا سحّاراً بليغاً في السحر لا مجرد ساحر ([6]).

---

([1]) الفيروز آبادي (٧٢٩-٨١٧ هـ / ١٣٢٩-١٤١٥م): هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروز آبادي، من أئمة اللغة والأدب، كان قوي الحافظة، ولد بكارزين من أعمال شيراز، انتقل إلى العراق وجال مصر والشام ودخل بلاد الروم والهند ورحل إلى زبيد، سنة ٧٩٦هـ فأكرمه ملكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه، فسكنها وولي قضاءها، وتوفي بها، أشهر كتبه: القاموس المحيط، وله: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، نزهة الأذهان في تاريخ أصبهان، سفر السعادة. الزركلي: الأعلام، مج ٧، ص ١٤٦-١٤٧ .

([2]) الفيروز آبادي: القاموس المحيط ، ص ١١٤٧ .

([3]) حسنين محمد مخلوف، كلمات القرآن، تفسير وبيان، ص ٢١٤ .

([4]) محمد جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل، وقف على طبعه وتصحيحه، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه، وعلّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، ١٩٧٨م، دار الفكر، بيروت، مج ٥، ج ٧، ص ٢٢٨ .

([5]) فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، ١٩٨٩، دار الكتب للطباعة والنشر/جامعة الموصل، (د. ط)، ص ٢٩٢ .

([6]) الخليل بن أحمد الفراهيدي: ترتيب كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، تصحيح: أسعد الطيب، ط١، ١٤١٤هـ، انتشارات أسوة، مطبعة باقري – قم، ج ١،ص ١٧٤ . الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ١٦٤ . ابن منظور:لسان العرب، مج ١، ص ٤٣٨ . الرازي: مختار الصحاح، ص ٥٧ . الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ١٣٢ و ص ٢٣٧ . فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، ص ٢٩٣ .

لذا ترى الإثارة والتهييج والعمل على حشر أكبر عدد من الجماهير، وتجميع أكبر عدد من السحرة الماهرين، مع السعي لكي تكون المباراة والسباق بين موسى (عليه السلام) والسحرة علنية، فهنا التركيز على إعلام الرأي العام، قال تعالى:{وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ} (الشعراء: ٣٩)، فالاجتماع ضروري ومطلوب ولو كان الحضور بالتهديد. واستثمر موسى (عليه السلام) ذلك، ليقينه أنه سيهزم السحرة وسيغلبهم، فطرح عليهم أن يكون الموعد في يوم عيد من الأعياد الجامعة، ومناسبة احتفال، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم، لكي يستطيع جميع الناس الذين يكونون في عطلة آنذاك من الحضور، وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعاً في يوم العيد، وهو وقت الضحى، وفيه يكون الجميع قد تخلصوا من حالة النعاس، ويكونون في نشاط ويقظة ويستطيعون إصدار حكم صحيح آنذاك، وسجّله الله ((سبحانه وتعالى)) بقوله:{قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ، وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى }(طه: ٥٩) ([1])، يوم الزينة: "هو يوم عيد كان لهم " ([2]).

والقاعدة الإعلامية التأثيرية للمستبدّين تتكون من مجاميع متعددة، ومنها السحرة والمنجمون، والشعراء والفنانون، والخطباء والكتّاب وعلماء السوء، فالسحر والشعر والفن والكتاب والخطبة من الوسائل الإعلامية المؤثرة، التي يستخدمها ويستغلّها المستبِدّون من أجل نشر أفكارهم، والدعوة إليها، وكسب الجمهور، والتأثير عليهم.

وفي كل عصر وسيلته الإعلامية الرائجة ففي عهد موسى (عليه السلام) كان السحر، وفي عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) كان الشعر، وفي عصرنا الإعلام بكل وسائله – المرئية والمسموعة والمقروءة –. وحالياً من خلال وسائل الإعلام المتعددة والمتنوعة تقوم أبواق السلطة بنفخ الأُلوهية في الحكام المستبدين، و وصفهم بأوصاف لا تليق إلاّ بالذات الإلهية؛ وذلك لإضفاء هالة من القداسة عليهم ([3]).

ويشن المستبدون على دعاة تغيير الواقع من المفكرين والمثقفين والمصلحين حرباً إعلامية دعائيةً ضخمة، ينسبون لهم فيها ما شاءوا من الاتهامات المفبركة، ويثيرون حولهم ما شاءوا من الشبهات، قال تعالى:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن

---

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤ ، ص ٢٣٤٠ . محمد فتح الله كُولَنْ: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ترجمة: أورخان محمد علي، ط١، ٢٠٠٣م، دار النيل، استانبول/تركيا، ص ٢٥٣ .

([2]) عبد الرزاق بن همّام الصنعاني: تفسير القرآن، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، مج ٢، ط١، ١٤١٠هـ –١٩٨٩م، مكتبة الرشد، الرياض، ص ١٧ .

([3]) ينظر: عمرو خالد: خواطر قرآنية، ص ١٩٢ .

يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ}(غافر: ٢٦)، وقال:{قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى}(طه: ٥٧)، وقال:{قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}(الأعراف: ١٢٣)، مجموعة من الاتهامات الجاهزة والشبهات الباطلة، يستخدمها المستبدون في كل زمان ومكان، تغيير الدين أي النظام العام للدولة، والإفساد في الأرض، والعمل على قلب نظام الحكم، والإخراج من الوطن. والآية الأخيرة إعلانٌ من فرعون باتهام السحرة بالتآمر مع موسى، لتنفيذ مخطط تمليك الإسرائيليين حكم مصر، وإخراج الأسرة الحاكمة والقبط منها... وظاهرٌ بأن إعلان فرعون هذا يقصد منه تغطية هزيمته الحقيقية، فهي مؤامرةٌ مدبّرة بينهم وبين موسى (عليه السلام) وليست انتصاراً لما جاء به موسى (عليه السلام) على سحر السحرة ([1])، وقال:{إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}(طه: ٧١)، يقول فرعون هذا ليقنع الجماهير بأنّ ما جرى مؤامرة مدبرة، حتى لا ينساقوا وراء السحرة، فيؤمنوا بموسى، وبذلك يفلت زمام الأمر من يده جماهيرياً، وهنا تظهر عملية إعلامية يشنها فرعون ضدّ موسى (عليه السلام)، قائمة على قلب الحقائق والتشويش والتشويه المتعمد، فموسى (عليه السلام) في نظره مفسد في الأرض ومخرِّب للدين ومعلِّم للسحرة. والأشراف من قومه الذين يكرهون شرف الغير عليهم ([2])، يسيرون على نهجه في التضليل والتهييج الإعلامي، قال تعالى:{وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}(الأعراف: ١٢٧)، كلمات مثيرة ومخيفة، الإفساد في الأرض، وترك الآلهة، وذلك بالعمل لقلب نظام الحكم، وتغيير الأوضاع القانونية الموجودة، هذه الكلمات استثارت فرعون، فانطلق يعلن عزمه البشع:{قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}(الأعراف: ١٢٧) ([3]).

إنها الإثارة الإعلامية والتهييج الذي مارسه الملأ ضد موسى (عليه السلام)، وقاموا ينعتونه بالساحر العليم، وسجَّل الله ما قالوا في حقِّ موسى (عليه السلام)، بقوله تعالى:{قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ}(الأعراف: ١٠٩)، أي أنه ليس بساحر فحسب بل هو ماهرٌ وبارعٌ فيه، وذلك لدفع ما جاء به عن خواطر الخلق ([4])، وللتشويش على رسالته الربانية، نعم إنه التضليل والتهييج والإثارة الإعلامية، التي استخدمها فرعون وملأه، لمواجهة موسى (عليه السلام). إنه الاستبداد والطغيان في كل زمان ومكان، لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام... ! .

---

([1]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٤، ص ٤٨٤ .

([2]) القاسمي: محاسن التأويل، مج ٥، ج ٧، ص ٢٢٨ .

([3]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٣ ، ص ١٣٥٤ .

([4]) ينظر: القاسمي: محاسن التأويل، مج ٥، ج ٧، ص ٢٢٨ .

وإعلام الانظمة الاستبدادية يستهدف الإنسان – المواطن – لاغتيال شخصيته، ومن الطبيعي أن يكون المقصود بمصطلح اغتيال الشخصية، الصورة الثانية من الحياة البشرية، وهي الحياة المعنوية. أي قتل الكرامة والعزة والأنفة والحمية لديه ووأد السمعة الطيبة والمكانة الاجتماعية عنه، بدايةً، وليس قتل الجسد ([5])، الذي يأتي في مرحلة لاحقة.

([5]) ينظر: عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص ١١٥

## المطلب الرابع
## الجهل / التجهيل

الجهل لغةً: خلافُ العلم، والخفةُ، وخلاف الطمأنينة ([1]). وجَهِلَ –هُ أو الشيءَ أو بـــه: لم يعرفه. وجهِلَ الحقَّ: أضاعه ([2]).

وقال الراغب: الجهل على ثلاثةِ أضْرُب، الأول: خلوُّ النفس من العلم، هذا هو الأصل. والثاني: اعتقادُ الشيء بخلافِ ما هو عليه. والثالث: فعلُ الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعَل، ســـواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً ([3]).

واسْتَجْهَلَهُ: اسْتَخَفَّه ([4]). واسْتَجْهَلَهُ: عدّهُ جاهلاً، وحَمَلَه على الجهلِ ([5]).

وعرّفه الجرجاني بما يأتي: هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، واعترضوا عليه بأن الجهل قد يكون بالمعدوم، وهو ليس بشيء، والجواب عنه أنه شيء في الذهن، أو هي عبارة عن اعتقاد غير مطابق للواقع ([6]).

وقد وردت مفردات واشتقاقات مادة جهل في القرآن الكريم بصيغ مختلفة (٢٤) مـــرة ([7]).

وفي القرآن الكريم دعوة صريحة للقراءة والتعلّم والتعقل والتفقه والتفكـــر، ويكفـــي أنّ تصريفات الفعل (علِم) وردت في القرآن الكريم حوالي (٨٧٤) مرة، وتصريفات الفعل (عقِـــل) وردت فيه (٥٩) مرة، وتصريفات الفعل (فقِهَ) وردت فيه (٢٠) مرة، وتصريفات الفعل (فكّر) وردت فيه (١٨) مرة ([8]).

ويدعو أيضاً إلى العمل والسعي لتعمير الأرض وصرف القوى والقدرات والإمكانـــات والطاقات لإقامة مجتمع متقدم وفاضل، وذلك لتحقيق خلافة الإنسان على هذه الأرض، ورفض الظلم والطغيان.

---

([1]) أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ص ٤٨٩–٤٩٠ .

([2]) جبران مسعود: الرائد، ص ٣٢٣ .

([3]) الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٠٩ .

([4]) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٩٠٢ .

([5]) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ١٤٣–١٤٤ .

([6]) الجرجاني: كتاب التعريفات، ص ٨٠ .

([7]) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٢٣٣–٢٣٤.

([8]) المصدر نفسه: ص ٥٩٦–٦١١ ، ص ٥٩٤–٥٩٥ ، ص ٦٦٦–٦٦٧ ، ص ٦٦٧ .

وعلى العكس مما ذُكر نرى أن من صلب وأولويات النظام الاستبدادي، التجهيل والتغييب العقلي والتضليل والتسطيح الفكري وتقتيل الثقافة، وذلك بنشر الخرافات والأباطيل وتشجيع الجبر والأسطورة في حياة الناس، مع التأكيد على الأمية والجهل بالدين الحقيقي، وانعدام التعليم وخاصة بين الطبقات الشعبية والذين هم السواد الأعظم من الأمة، لتحويلها إلى قطعان غائبة عن الوجود، كي لا تتفكر خارج نطاق الشؤون الفردية والشخصية، وخارج نطاق المظهر من بعض الشعائر والتي حصّر الدين بها، ولتنصرف فيما بعد عن الاهتمام بقضايا الحقوق والحريات والمساواة والعدالة والشورى ومناهضة القهر والاستبداد والاستغلال والفقر والمرض الذي ترزخ تحته ([1]).

والمستبدّ في نسبته إلى رعيته يشبه الوصي الخائن، يتصرف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافاً قاصرين، فكما أنه ليس من صالحه أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من صالح (المستبدّ) أن تتنور الرعية بالعلم ([2]).

فالمستبدون الذين هم فوق الشرائع والقوانين، تميت حكوماتهم وأجهزتهم القمعية المتعددة والمتنوعة من الأمة كل معاني الشهامة والعزة والكرامة والإقدام، وذلك بما تثقِل على كواهلهم من الإذلال والانكسار وتقوي فيهم كل الصفات الدنيئة الهادمة لصروح الحياة الحرة الكريمة، بما أخمدت من قوى العقل والفكر بإطفائها نور العلم وتشجيعها للخرافة الفكرية والثقافية والسياسية ([3]).

وحيث تستجيب الأسطورة بطابعها السحري الأخّاذ، لمطلب الإنسان في أن يعيش ضمن عالم مفهوم ومرتّب تنتظم حياته فيه، ويشعر بالراحة والطمأنينة والاستقرار، خاصة في المجتمعات التقليدية أو التي تسيطر عليها الأمية والجهل، جهِدَ المستبدّون لاستثمار الأساطير والخرافات والمفاهيم الخاطئة المتداولة ومعالجتها لصالحهم، بل واصطناعها في تحويرات تفتقد للنمو التلقائي وتتوسل بالرمز الذي يصب باتجاه الحاكمية، مستكملين بأفعال طقوسية ملائمة. وبهذا الاتجاه تتسلطن الخرافة في العقول كأفضل أنواع الحكايات التقليدية شبهاً بالأسطورة ([4]).

وفي هذا السياق يقوم النظام الاستبدادي برعاية كل ما من شأنه تحريك الأذهان إلى الجهل والغفلة، ومنها نشر وتشجيع مفاهيم الجبر والتصوف السلبي، فتغييب العقول وصفدها

---

([1]) ينظر: محمد عمارة: الإسلام والأمن الاجتماعي، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، دار الشروق، القاهرة، ص ١١٢.

([2]) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٣٩ .

([3]) ينظر: عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص ٤٦ .

([4]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ٦٦-٦٧ .

بقيود فكرية تبطل الاختيار وتجعلها ترضى بالواقع، وتقبله ولا تتحرك فيه إيجابياً، وتعجزها عن إدراك ما يحيف بها من ظلم وجبروت.

لذا ترى هذا النظام يتبنى **حركات الجبر والدروشة والتواكل**، ويشجع الانحراف الفكري فيها، ويعمل على تحويلها عن أهدافها كحركات رفض سلبية تقتدي بالمُثُل الأخلاقية إلى مجرد فعاليات طقوسية ساذجة يرقى الكثير منها إلى الشعوذة والتخيُّل ([1]).

فالمستبدّون يكرهون **العلم والثقافة** لأنها تثير الوعي والإدراك بالظلم عند الناس، فيعملون في سياق جهد منظم لتشجيع ثقافة التسطيح والجبر والتواكل والتملق والانتهاز، وإلهاء الجماهير بالشكليات والمظاهر والطقوس. فنرى الدين والثقافة والفن والعلم، وهي دلالات سامقة في الوجود الإنساني، يستغلها ويستعملها الاستبداد من أجل قلب المفاهيم وتغيير وتبديل الأهداف والغايات، بما يحقق أهدافه وغاياته من تثبيت وترسيخ لوجوده، واستعباد وإذلال للأمة، فهذه الدلالات سامقة، إلاّ أنَّ ذلك ليس في ذاتها، وإنما بما تؤدِّيه، حيث معيار الأشياء والمفاهيم هو مؤدّاها وفعاليتها الاجتماعية، لأنه إذا كانت هذه الدلالات السامقة آخذةً بالوجود الإنساني فرداً أو جماعةً نحو مهاوي التخلف والسلبية، أو مناقضةً للأهداف والغايات التي من أجلها وجِدتْ، فحينها تكون آليات تجهيل واستحمار واستبداد لا استكمال ([2]).

فالطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب والأمم، وصحوة العقول والقلوب، ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية ([3]).

فانصراف همّ المستبدين إلى محاربة انتشار العلم والمفاهيم الصحيحة عن الدين والثقافة والفن، من أجل الحيلولة دون وعي وإدراك الجماهير بالواقع المّر الواقع عليهم أو القيام بما ينبغي القيام به تجاه الظلم والاستبداد. ذلك لأنّ هذه الدلالات توسِّع الأذهان وتبدِّد الأوهام وتعرِّف الإنسان بمكانته وحقوقه، مما ينبِّه جمهور الأمة للمطالبة بحقوقها والدفاع عن حرمتها، وعدم الرضوخ والخضوع للذين يريدون الاستبداد بها وقهرها، وما ينبغي عليها القيام به تجاه المستبدين والظلمة وعدم قبول مفهوم حكم الأمر الواقع ([4]).

---

([1]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ٣٣ .

([2]) ينظر: علي شريعتي: النباهةُ والاستِحْمار، ترجمة: هادي السيد ياسين، دراسة وتعليق: عبد الرزاق الجبران، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت – لبنان، ص ١٢٥-١٢٧ .

([3]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥ ، ص ٢٥٩٣ .

([4]) ينظر: هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية، مج ٢، ص ٧٢ .

فحكم الطغاة لا يولد إلا في البيئة الفاسدة، ولا يستمر إلا في المجتمع الجاهل الذي يفقد وعيه وإحساسه بالحرية، وفي غياب الشورى والمشاركة في الشؤون العامة من قبل الجماهير وانعدام الحرية، ينمو حكم الاستبداد، ليتحكم في الشعب، ويعامله كالعبيد، ويُستباح كلّ شيء ([1]).

ولما كانت ثورات الأمم ضد المستبدّين تبدأ بالعقول وليس البطون كما يرى الكثيرون، فقد يجوع الناس ويسلبهم المستبدّون أقواتهم، ومع ذلك لا يثورون. ولكن إذا استنارت عقولهم بالعلم والمعرفة، يعرفون بها، إنهم ليسوا عبيداً للمستبدّ؛ عندئذٍ يهبون ثائرين لكرامتهم وإنسانيتهم. لذا يحاذر المستبدّون من استنارة العقول، ويعملون جاهدين للحيلولة دون استرداد الناس لعقولهم.

لذا يرى المستبدّ انتشار الأفكار والعقائد القائمة على الخرافة والرؤى والأضاليل، والتي تدعو إلى السلبية والاتكالية والخنوع والخضوع وقبول حكم الواقع، خير معين له على التجهيل والتغييب العقلي، باعتبارها آلية من آليات إلغاء العقل والإبعاد عن الدين، فالجهل، وتزييف الدين والعقيدة الصحيحة، وأضاليل العقائد الفاسدة، أمور تُفسِدُ وتميتُ العقول والأفهام، وتسلب الإرادة والهمة والعزيمة، الأمر الذي يروق للمستبدّين ويحرصون عليه لترويض الشعوب واستئناسهم ([2]).

أما بالنسبة لأنصاف المتعلمين والمثقفين وحتى العلماء المتخصصين ([3])، الذين يفتقدون النظرة الشمولية للحياة والواقع وما يدور فيهما، يصبحون عوناً للمستبدّين، وذلك لانعدام الدراية الاجتماعية – أي شعور الإنسان بالمسؤولية تجاه مجتمعه – فيهم، ومِنْ ثَمَّ عدم القيام بما ينبغي القيام به، من فضح للمستبدّين وأعمالهم وتوعية الجماهير وتحريكهم للإصلاح والتغيير. وتوضيحه أنّ الفرد عندما ينحصر في جزءٍ من الحياة ضمن اختصاصه، بعيداً عن باقي الأجزاء، لذا يستحيل بعدها إدراك الحقيقة، لأنها تعيش في الكل لا الجزء، سيّما أنّ الكل ينبئ عن الجزء و

---

([1]) ينظر: نبيل هلال هلال: اعتقال العقل المسلم ودوره في انحطاط المسلمين، ط٣، ٢٠٠٥ ، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ص ١٤١ .

([2]) ينظر: المصدر نفسه: ص ١١٠-١١١ .

([3]) هنا ليس القصد من نبذٍ لهذا الاتجاه (التخصص) الناحية الايجابية منه في التوزيع المعرفي، كما هو معروف في التطورات الأكاديمية للمنهج البحثي، وذلك بمنح أكثر عدد من الأقسام للعلم الواحد، مما يفضي إلى السيطرة على تلك الأقسام ودقة الإحاطة بها، وإنما القصد نبذ الناحية السلبية منه وهو افتقاد النظرة الشمولية للحياة وللواقع، مما يؤدي إلى انعدام الدراية الاجتماعية. ينظر: علي شريعتي: النباهة والاستحمار، ص ١٣٥. (الهامش).

لا يمكن العكس، فعندما يسير الإنسان في الحياة على نحو يغفل عن قضية المجتمع ومصيره؛ بسبب انغماسه في إطار محدود وصغير جداً مجرداً عن كل المجتمع بصورة يصعب لمس المجتمع كجسم واحد شامل. وهذا (التخصص) أو الجهل والغفلة عن خارج الإطار، يعدم الإنسان الدراية الاجتماعية، وذلك لأنّ هذا الجهل وهذه الغفلة تعدم من الفرد إمكانية شعوره بنفسه كإنسان مساهم في شتى أجواء الحياة. ولكن لماذا يفضي الإنسان إلى ذلك؟ الجواب: لأنّ (التخصص) أو الجهل والغفلة عن خارج الإطار، يعمل على نمو الإنسان-الفرد- من جهة واحدة ويعطله في سائر الجهات ([1]).

ولذا نرى أنّ أول كلمة أُنزِلتْ من القرآن هي الأمر بالقراءة أمراً مكرراً، وأول مِنة أجلّها الله وامتن بها على الإنسان هي أنه علّمه بالقلم، علّمه به ما لم يعلم... وأخوف ما يخافه المستبدون من العلم والمعرفة، أن يعرف الناس حقيقة أنّ الحرية أفضل من الحياة؛ لذلك نرى أنّ القرآن ذمّ اليهود لحرصهم على الحياة ولو كانت ذليلة، قال تعالى:**{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}**(البقرة: ٩٦)، وأن يعرفوا أيضاً حقيقة النفس وعزّها، والشرف وعظمته، والحقوق وكيف تحفظ، والظلم وكيف يرفع، والإنسانية وما هي وظائفها، والرحمة وما هي لذاتها... فالمستبدون يخافون من العلم، حتى من عِلْمِ الناس معنى كلمة (**لا إله إلاّ الله**)، ومعنى ذلك: **لا يستحق العبودية والخضوع شيء غير الله**. وما أفضل تكرار هذا المعنى على الذاكرة آناء الليل وأطراف النهار، تحذّراً من الوقوع في ورطة شيء من الخضوع لغير الله وحده... وهذا لا يلائم غرض الطغاة المستبدّين، وربما عدوا كلمة (لا إله إلاّ الله) شتماً لهم ! ولهذا كان المستبدون ولا زالوا من أنصار الشرك وأعداء العلم ([2]).

وفي شريعة الإسلام " الحفاظ على العلم.. الذي هو فريضة إلهية وتكليف شرعي واجب، يأثم الإنسان إنْ فرّط فيه.. ولا يجوز له التنازل عنه بحال من الأحوال.. بل إنّ التفقه والتخصص والبراعة في مختلف العلوم والمعارف تزيد في الدرجة توكيداً، وفي مراتب الفريضة علواً، إلى الحد الذي جعلها الإسلام فرض كفاية، أي فريضة اجتماعية، يقع إثم التخلف عنها على الأمة جمعاء: **{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}**(التوبة: ١٢٢) " ([3]).

---

([1]) ينظر: علي شريعتي: النباهة والاستحمار، ص ١٣٥-١٣٦ .

([2]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٤٥-٤٦ .

([3]) محمد عمارة: الإسلام والأمن الاجتماعي، ص ١٠٢ .

## المطلب الخامس
## الانتهازيون

ذكر القرآن الكريم أدوات السلطة من الانتهازيين الذين هم أدوات السلطة الاستبدادية في كل عصر ومكان، وبيَّن دورهم السلبي في ترسيخ ودعم أنظمة حكم الطغاة والجبابرة، فهم المتسببون ببقاء الحاكم المتسلط، يشدون له البلد كله إلى مقود العبودية، ودونهم لا يملك الحاكم أي قوة ([1])، و رتَّب على ذلك عقاباً وجزاءً، لا يقلّ عمّا سيلحق بالحكام المتألهين والمستبِدّين من التدمير والهلاك والخزي والعذاب في الدنيا قبل الآخرة، وحمّلهم المسؤولية مع الطغاة، قال تعالى: **{وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}**(هود: ٥٩)، وقال ايضاً:**{إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}**(القصص: ٨).

ويختصّ المستبدّون في كل زمان ومكان بحاشية أنموذجية، من الأصحاب والأقرباء وأبناء العشيرة والأتباع الذين يقودون المؤسسات ويروجون للحكم، وتمتد أصابعهم إلى سائر مفاصل الدولة والمجتمع. وهم جزء أساسي من حصانة المستبدّ ومقوماته ومرتكزات قوته ووسائط ملاهيه، وملاذات طاعته. وقد يكون بينهم سياسيون وعسكريون وتجار وأغنياء وكتّاب وأدباء وشعراء ورجال دين، جنباً إلى جنب مع بِطانةٍ توفِّر المسرةَ والفرح وتشاركه هواياتِهِ. ومعظمهم منافقون مستعدون لفعل أي شيء، يجيدون التملق والتزلف والمداهنة التي ترضي المستبد وينتشي بصنوفها ([2]).

فالمستبِدّ لا يحكم وحده، بل تسانده صفوة مختارة تشكل منظومة السلطة وأصحاب المناصب، وجماعات المصالح ورجال الأعمال، وواضعي اليد على أراضي الدولة وممتلكاتها من كبار اللصوص والمرتشين والسماسرة والمزورين وتجار الحرام. فالمستبِدّ يمثل القمة في البناء الهرمي، إنما باقي المنظومة هم أولئك الانتهازيون المنتفعون المرتزقة، فالأمر مثل بناء استبدادي كامل وطبقات جيولوجية عفنة، ومنظومة نفعية متشابكة يتقاسم أعضاؤها الكعكة على حساب الوطن والأمة ([3]).

**ويصف الكواكبي هذه الزمرة، بالأراذل والأسافل والأوغاد؛ فهم أعداءٌ للعدل أنصارٌ للجور، لا دين لهم ولا وجدان ولا شرف ولا رحمة، وإنما زمرة لصوص تعين المستبِدّ**

---

([1]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٨١ .

([2]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ٨٤ .

([3]) ينظر: نبيل هلال هلال: الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين، ص ٨٣-٨٤ .

**وتحميه، وهم من أسفل المجرمين الذين لا أثر عندهم لدين أو ذمة، وإنّ أسفلهم طباعاً وخصالاً أعلاهم وظيفةً وقرباً، فالوزير الأعظم لا بدّ أن يكون اللئيم الأعظم في الأمة ثم من دونه لؤماً وهكذا ([1])، فالمستبدّ يحرص أن يكون أعوانه من حثالة المجتمع.**

فعلماء السوء والكهنة والسحرة والمنجمون مع السياسيين الوصوليين وأنصاف المثقفين الانتهازيين، والتجار الرأسماليون والإقطاعيون، والملأ من الأشراف وعلية القوم المتآمرين، والأتباع المتزلفون، والجنود التابعون، وعامة الشعب الذين اتبعوا أمر الطغاة المستبدّين، وساروا في ركابهم، وأسلموا لهم أزمتهم، واستمرؤا حياة الذل والخنوع والإهانة والعبودية، هم أدوات السلطة الاستبدادية تستغلهم وتستخدمهم كالعبيد المأجورين، من أجل تثبيت دعائم الحكم الظالم، ولديمومة نظام القهر والتسلّط.

والقرآن يكشف أولاً عن الثلاثي المتحالف في أنظمة الاستبداد والطغيان، والذين يعدون من أعمدة نظام الحكم الاستبدادي، والذي تتجدد أشكاله في كل عصر، مع التغيير فقط في المسميات والألقاب، وهذا الثلاثي يتمثل في ثلاث قوى، هي: قوة السلطة السياسية المستبدة، وقوة السلطة الدينية الوثنية المزيفة، وقوة السلطة المالية المستغِلة والمحتكِرة، وقد جمعت آياتُ القرآن هذه الأعمدةَ الثلاثة: فرعون وهامان وقارون، باعتبار موسى (عليه السلام) مبعوثاً إليهم. قال تعالى:{**وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ**}(العنكبوت: ٣٩)، وقال:{**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**}(غافر: ٢٣-٢٤).

ففرعون يمثل **رأس السلطة السياسية**، وهامان يمثل **رأس السلطة الدينية**، وقارون يمثل **الرأسماليين الإقطاعيين**، فهذه الأطراف الثلاثة هي التي تدير عجلة الصراع والمواجهة مع قوى الحق والحرية، والتحالف غير المقدس قائم بين هذه السلطات الثلاث لقمع المطالبات بالاصلاح والحرية، والمنفذ لرغباتها، هو رأس السلطة السياسية المستبدة ([2]).

وأما الوزير الأول، واليد اليمنى لفرعون، فهو رئيس الكهنة، قال تعالى:{**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ**}(غافر: ٣٦)، والدور الذي تقوم به هذه السلطة في كل العصور والأزمان والأمكنة خطير ومؤثّر جداً، فهي تبرر جميع تصرفات الطغمة الحاكمة شرعياً،

---

([1]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٥٢-٥٧ .

([2]) ينظر: علي شريعتي: النباهةُ و الاستِحْمار، ص ١١٠ . محمد شحرور: دراسات اسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ١٩٩٤، دار الأهالي، دمشق، (د. ط)، ص ٢٥٢ .

وتلعب دوراً هاماً في تدجين الناس وتهيئتهم لقبول كل شيء وتأصيلها بـــداعي المحافظـــة علـــى الأعراف والتقاليد، وتعدّ صلة الوصل بين فرعون وقارون من جهة، وبين الناس من جهة أخرى، وذلك بدعوة الشعوب إلى الرضا بأوضاعهم، وإيجاد المصالحة الدائمة بينـــهم وبـــين حكـــامهم الظلمة، ورفض أية دعوة للتغيير والإصلاح، وإسكات أصوات الاحتجاج، بأجوبة تخدر الشعور، وتميت روح مقاومة الطغاة ([1]).

أما قارون الرأسمالي الإقطاعي المستفيد من حكم الطاغية، فهو يؤيده ببذل بعض مالـــه، ليكسب أموالاً أكثر من عرق الشعب ودمه، وللحفاظ على أمواله وممتلكاتـــه، يصـــبح عونـــاً للطاغية، ويقف في وجه الحق، ويعمل على إبعاد الناس عنه، بوسائله وأساليبه الوضيعة ([2]).

وأما البطانة التي تدور حول الحاكم المتألِّه، من الوزراء والقادة العســـكريين والوجهـــاء وحاشية القصر المساندين والموالين له... يُخطِّطون ويُبرمجون ويُنظمون له، ويعطـــون الأفكـــار والآراء حول مواجهة المعارضين، وينفذون ما يُطلب منهم، يطلق عليها القرآن اسم ((**المـــلأ**)) في قوله تعالى:{**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**}(القصص: ٣٨)، قال الزجّاج: الملأ: أشراف القوم، والمنظور إليهم ([3]). وهم في العادة الرؤساء أصحاب السّلطة الإدارية، والوجهـــاء والأغنياء.

وتجدر الاشارة على أنّ هذه اللفظة تطلق على البطانة الصالحة أيضـــاً كمـــا في قولـــه تعالى:{**قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**}(النمل: ٣٨)، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم (٤٠) مرة في (١٢) سورة ([4]).

وفي تسميتهم بـــ((الملأ)) دلالةٌ لطيفة، فالكلمة مشتقة من المَلْءِ والامتلاء، فهم مَلأٌ لأنَّهم يملؤون المنصب الذي يشغلونه، ويمتلئُ بهم ذلك المنصب، ثم يَملـــؤون أيـــديهم مـــن الحكـــم والمسؤولية، ويتصرفون بكل شيء، ويتحكمون في كل شيء، وبعد ذلك يمتلئون مـــن المنـــافع والمصالح والمكاسب. وهم ((مَلأ)) لأنهم يملؤون عيون الجماهير وقلوبهم ونفوسهم مهابةً وإجلالاً، وخوفاً ورجاءً، ورغباً ورهَباً، يُرعبون الجماهير، ويهدِّدون المخالفين ويعـــاقبونهم. والملاحظـــة العجيبة المطردة في قصص القرآن أنَّ الذين يقودون الجماهير في مواجهة الأنبياء والمصلحين هـــم ((الملأ))، فنوحٌ (عليه السلام)، وهودٌ (عليه السلام)، وصالحٌ (عليه السلام)، واجهوا الملأ من قـــومهم، وكـــلُّ نـــبيٍّ

---

([1]) محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٢٥٣ و ص ٢٦٣ .

([2]) يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة، ج٢، ص ٧٠٧ .

([3]) الزجّاج: معاني القرآن وإعرابه، مج ٤، ص ١٣٨.

([4]) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم، ص ٨٤٦ .

ومصلحٍ واجَهَ الملأَ من قومه... وحتى الأنظمة المعاصرة تعتمدُ على ((الملأ)) في حكمها، وهم أكثر أهمية، وأعمق رسوخاً وانتشاراً، وأشدّ تأثيراً وخوفاً ورعباً ([1]).

وبطانة فرعون وجميع الطغاة من أمثاله، تشكل طبقة كاملة تؤيدهم في كل شيء، ، ومن صفاتها أنها تأخذ سلطاتها من سلطانهم، وتتكلم باسمهم، وتأخذ من الناس ما تشاء باسمهم، وتزرع الرهبة والخوف في القلوب باسمهم، وتنشر الدعاية لهم على أنهم آلهة وذوو طبيعة خاصة وقوى خارقة وصفات لا مثيل لها، وإن كل ما يريدونه أي الطغاة هو عزتهم ومنعتهم؛ لأنهم يعلمون مصالح الشعب أكثر منهم، وهذه الطبقة تتمتع بامتيازات يحرم منها الشعب تماماً ([2])، وهم رأس الحربة في مواجهة دعاة الحق والحرية، ديدنهم التكذيب بالحق ودعاته، وإبداء الرأي حول كيفية المواجهة، والتحريض عليهم، والدعاية ضدهم، والاستهزاء والسخرية بهم، وتصديق ذلك الآيات الكريمة الآتية:

- **{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}**(الأعراف: ٨٨).

- **{فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}**(هود: ٢٧).

- **{وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}**(ص: ٦).

- **{وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ}**(المؤمنون: ٣٣).

- **{وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}**(الأعراف: ١٢٧). في هذه الآية يقوم ((الملأ)) المجرمون بتهييج فرعون الطاغية المستبدّ ضدَّ موسى (عليه السلام) ومن معه، وكأنَّ فرعون يحتاج إلى تهييج؟!، ويدعونه إلى القضاء على موسى (عليه السلام) ومَنْ معه، بقولهم :**{أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}**، أي خوفاً من انقلاب الخلائق عليهم حين رأوا السحرة جاهروا بالإسلام، و لم يبالوا بالتوعد. و تدل هذه الآية على أنّ قوم فرعون لما عجزوا عن موسى (عليه السلام) في آياته، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى (عليه السلام)، وأوهموه أن تركه فساد في الأرض ([3]).

---

([5]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٧٣-١٧٤ .

([1]) محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٢٥٠ .

([2]) ينظر: القاسمي: محاسن التأويل، مج ٥ ، ج ٧، ص ٢٣٣-٢٣٤ .

أما السحرة والمنجمون، فهم القاعدة الإعلامية التأثيرية، الذين كانوا أداةَ فرعون في إرهاب وتخويف الجماهير، حيث كانوا يسترهبونهم ويُخيفونهم ويُرعبونهم، بما يمارسونَه فيهم من فنونِ السحر وصورِه وألوانه، وهؤلاء السحرة هم من أدوات التأثير الإعلامي والإرهاب النفسي للسلطة الاستبدادية، قال تعالى عنهم:{وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}(الأعراف: ١١٣)، وقال:{فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}(الشعراء: ٣٨).

وأما الجنود ويقصد بهم القوة العسكرية التي هي أنياب القوة السياسية وأظافرها، وهي السياط التي ترهب بها الجماهير إن هي تمردت أو فكّرت في أن تتمرد. هؤلاء الجنود يعدون من أدوات السلطة للضغط المادي والرصد الأمني، قال تعالى:{إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}(القصص: ٨)، وقال تعالى:{وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ}(القصص: ٣٩) ([1]).

وحتى يبقى أفراد الحاشية وحتى الملأ منهم أذلاء خانعين للمستبدّ، نرى أنّه يتعمد إذلالهم وتصغيرهم وتوجيه الاهانات لهم واتهامهم علناً بالعجز وكل ما من شأنه إذهاب الهيبة عنهم واحتقارهم، وكثيراً ما يتقصد تعريضهم للسخف والتندّر، وقد تساهم أجهزته وبالتحديد الأمنية في ترويج الإشاعات والطُرَف عنهم. فنرى فرعون مثلاً ينادي ويخاطب وزيره الأول باسمه المجرد، فلا تقدير ولا قيمة له أمام جبروت وعظمة وكبرياء الحاكم المتغطرس المتأله، وسجّله ((سبحانه وتعالى)) بقوله:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ}(غافر: ٣٦).

ويختزل الكواكبي مجمل ظواهر الحاشية، في كلمات معبرة، فيصفهم بأنهم: " قوة المستبد، قوته بهم، عليهم يصول ويجول؛ يأسرهم، فيتهللون لشوكته؛ ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم؛ ويهينهم، فيثنون على رفعته؛ ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته؛ وإذا أسرف في أموالهم، يقولون عنه كريم؛ وإذا قتل منهم و لم يُمثِّل، يعتبرونه [يعدونه] رحيماً؛ ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ؛ وإن نقَمَ عليه منهم بعض الأُباة، قاتلهم كأنهم بغاة " ([2]). إنه الفسق ولا غير، كما وصفهم الله ((سبحانه وتعالى))، بقوله:{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}(الزخرف: ٥٤).

---

([1]) ينظر: يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة، ج ٢، ٧٠٩ . صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٧٠-١٧١.

([2]) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٤١ .

# المبحث الثاني

## خصائص النظام الاستبدادي: (رؤية قرآنية)

**المطلب الأول: الفردية المطلقة (التأله)**
**المطلب الثاني: الجبروت (ظلم وطغيان وإرهاب)**
**المطلب الثالث: التجرد من القيم (الفسق والفجور)**
**المطلب الرابع: انعدام الحرية**
**المطلب الخامس: الاحتكار والاستغلال**
**المطلب السادس: الترف والتبذير**

# المبحث الثاني

## خصائص النظام الاستبدادي: (رؤية قرآنية)

يعبر القرآن الكريم بوضوح عن النظام الاستبدادي والطبقة المستبِدّة في آيات متعددة، يبين فيها أبرز الخصائص والملامح، وإن ذِكر خصائص وملامح هذا النظام، كمثال للفساد السياسي، وتكرار بعض وقائع القصص المتعلقة به، وطرحها بأساليب بلاغية واعجازية متنوعة ومتعددة؛ فهو تأكيد يجب رسوخ مغزاه في عقل الإنسان وتصرفاته، وحتى لا يقع ولا يسقط على أقدام الاستبداد السياسي، ولحماية الإنسان من الانكسار والقبول بالذل والهوان او الخنوع والاستسلام لهذا الاستبداد.

وأما أهم الخصائص والملامح فيمكن ايجازها من خلال المطالب الستة الآتية الآتية:

## المطلب الأول

## الفردية المطلقة (التألُّه)

ادعاء الربوبية وادعاء الأُلوهية، هاتان الصفتان من صفات الحكم الاستبدادي المطلق – الظاهرة الفرعونية كأنموذج –، وهما من مقومات الاستبداد السياسي والانفراد بالسلطة، في كل زمان ومكان، ولا نكاد نعثر على مستبدّ سفاح أو بارز في التاريخ، لم يتخذ شكلاً من أشكال القدسية أو مقاماً يشارك به الله ((سبحانه وتعالى)) قدسيته في شخصية أسطورية يحاول تقمصها، فلا مساءلة للآلهة، ولا حساب ولا عقاب، ولا خَيار للرعايا غير الخضوع.

وكثيراً ما يصل المستبِدّ إلى حالة من الاقتناع النرجسي– حب الذات المفرط – بتفوقه غير المحدود بل وبقدسيته، ما دام قادراً على التدخل في الأحداث، فتشتد غرابة تصرفاته، ويوغل في إجبار الناس على مهابته، والتسبيح بحمده، وتقديم فروض الطاعة لما يأمر به والشكر على ما يقوم به ([1]).

ومن أولى خصائص الحكم الاستبدادي، كبرياء الحاكم وتعاليه. والذي يجعله يتبختر وتعجبه نفسه، فيجحد حقوق الآخرين، ويتغطرس على الشعب، وتجيش في نفسه سوءات الكِبْرِ فتحمله على تخيُّلاتٍ كاذبةٍ خادعة، ولا يزال يتضخم في نفسه حتى يتحول إلى جبروت !! وتلك حالات معهودة في أمراض النفوس، وفي التاريخ أمثلة عديدة من هذا النوع؛ ولذلك جاء في

---

([1]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ٦٥–٦٦ .

الحديث القدسي ((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ)) ([1])، ولا يزال الكِبْرُ ينمو وينمو في نفس الحاكم حتى يتحول بطراً على كل حق، وغمطاً لكل فرد، وعندئذ يكون الكِبْرُ والكفرُ قرينين ([2]).

قال تعالى واصفاً فرعون:{وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ}(القصص: ٣٩)، واستكبر: أي امتنع فرعون عن قبول الحق معاندة وتكبُّراً، وتكبَّر تكبُّراً شديداً ([3])، واستكبر: أي: طلب التكبُّر، واستعدّ أن يكون متكبِّراً. وطلب التكبّر والاستكبار شذوذٌ وانحرافٌ ومرض نفسي، يجعلُ صاحبه متكبِّراً مستكبِراً، ويُريه نفسه أكبر من حجمها بكثير، ويُريه الآخرين أصغر من حجمهم بكثير، ويستمرُّ هذا المريض المتكبرُ في الانتفاش والتضخم النفسي، حتى يَرى نفسه نِدّاً لله ربِّ العالمين، فيدَّعي الربوبية والألوهية ([4])، كما ذكر الله ((سبحانه وتعالى)) واصفاً ومخبراً عن مقولة فرعون الطاغية المستبِدّ:{فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}(النازعات: ٢٤)، ولعِظمِها أي المقولة التي تلفظ بها فرعون، يصفها الزمخشري بـ (العظيمة) من دون ذكرها في تفسيره، حيث يقول: " فقال: تلك العظيمة " ([5]). وهو ادعاء الربوبية.

وتنطلق هذه الكلمة المتطاولة المليئة بالغرور والجهالة:{أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} من الطاغية؛ وهو مخدوع بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها. فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها. وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوةً ولا سلطاناً. إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب ! وتمد له أعناقها فيجر ! وتنحني له فيستعلي ! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى ! وفرعون وجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان، ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة

---

([1]) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٢٤٨/٢ ، ٣٧٦/٢ . إسحاق بن ابراهيم بن مخلد المروزي، ابن راهويه: مسند ابن راهويه، تحقيق: عبد الغفور عبد الحق حسين برد البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ٣٠٥/١ . ابن حبان: صحيح ابن حبان، ٣٥/٢ . أبو داود: سنن أبي داود، ٢٦٨/٢ . محمد بن يزيد القزويني، أبو عبدالله ابن ماجه: سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٧/٢ ، ١٣٩٨/٢، (د. ط ، د. ت) . ٤١٤/٢ ، ٤٢٧/٢ . الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ٦١/١ .

([2]) ينظر: محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، ط٢، ٢٠٠٠م، الناشر: نهضة مصر، مدينة السادس من أكتوبر، ص ٣٤-٣٥ .

([3]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٩، ص ٤٠٣ .

([4]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٣٢-١٣٣ .

([5]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ١١٧٧ .

الفاجرة... وما كان ليقولها أبداً لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء ([1]).

وقال تعالى:{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}(طه: ٢٤)، يقول الآلوسي ([2]) في تفسير قوله تعالى:{إِنَّهُ طَغَى} " تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أي جاوز الحد في التكبر والعتوِّ والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية " ([3]).

وما يعنيه ادعاء فرعون الربوبية لنفسه، بقوله:{أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}(النازعات: ٢٤)، أنه كان دهرياً منكراً للصانع والحشر والنشر، وكان يقول ليس لأحد عليكم أمر ولا نهي إلا لي، فأنا ربّكم بمعنى مربيكم والمحسن إليكم، وليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر ونهي، أو يبعث إليكم رسولاً ([4])، ومما يزيد الأمر وضوحاً قول الآلوسي: " وأمّا ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى أنه يجب على من تحت يده طاعته والانقياد له وعدم الانشغال بطاعة غيره " ([5]).

وأما ادعاؤه الألوهية فقد سجَّله قوله تعالى:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}(القصص: ٣٨). يقول الزمخشري: " قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجود، معناه: ما لكم من إله غيري " ([6]). وهي: " كلمة فاجرة كافرة، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم. ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب الملوك للآلهة. ثم على القهر، الذي لا يدع لرأس أن يفكر، ولا للسان أن يعبر. وهم يرونه بشراً مثلهم يحيا ويموت، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب " ([7]).

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٦ ، ص ٣٨١٥ .

([2]) الآلوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ / ١٨٠٢-١٨٥٤م): هو محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي أبو الثناء، شهاب الدين، مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده و وفاته بها، كان سلفي الاعتقاد، مجتهداً، تقلد الافتاء ببلده سنة ١٢٤٨هـ، وعزل، فانقطع للعلم، سافر إلى الموصل، فالأستانة، من كتبه: روح المعاني، نشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول، نشوة المدام في العود إلى دار السلام، غرائب الاغتراب، دقائق التفسير، الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية، الرسالة اللاهورية. الزركلي، الأعلام، مج ٧، ص ١٧٦ .

([3]) محمود بن عبد الله، أبو الثناء، شهاب الدين، الآلوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج ٨ ، ج ١٦، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، دار الفكر، بيروت-لبنان، ص ١٨١، (د. ط) .

([4]) الرازي: التفسير الكبير، مج ١٦، ج ٣١، ص ٤٢ .

([5]) الآلوسي: روح المعاني، مج ٨ ، ج ١٦، ص ٢٠٣ .

([6]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٨٠٢ .

([7]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥ ، ص ٢٦٩٤ .

وليس من الضروري أن يقف المستبِدّ ويعلن صراحة أنه رب البلاد وأنه إلـــه الشـــعب، وإنما يُعرَفُ ذلك من صلاحياته، ومن تصرفاته، ومن الصفات التي يضفيها على نفســـه، ومـــن الألقاب التي يتخذها، فالحاكم المستبِدّ يبدأ فيدّعي بأن كل البلد مُلكُه الشخصي، ويتصرف على هذا الأساس، ثم يتصرف وكأن الشعب مُلكُه أيضاً، وعليهم الطاعة الكاملة لشخصه، فالمســـتبِدّ يشعر بعلوه على من حوله وملكيته لهم، وبالتالي يطلب منهم الطاعة والانقياد الكامل ولا يسمح لهم بمخالفته أو مناقشته، ويتقمص صفات القاهِر الجبّار، وعليه ليس لهم أن يتصرفوا بقناعـــاتهم الشخصية دون إذن منه.

لذا نرى فرعون يقول للسحرة بعد إيمانهم برب موسى (عليه السلام)، قال تعالى عنـــه:**{قَـــالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُـــم مِّـــنْ خِلَـــافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى}**(طـــه: ٧١)، يقول لهم فرعون:**{آمَنتُمْ لَـــهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}** ويتوعدهم العقوبة القاسية، لا لأنهم آمنوا برب موســـى وهـــارون (عليهمـــا السلام) فحسب، بل لأنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم، و لم يستأذنوه، فارتكبوا في حقه حسب نظرته خطيئتين، كل منهما أكبر من الأخرى، بل الثانية أكبر لأنهم نالوه في ألوهيته مرتين، مرة حينمـــا كفروا به وتركوه، وآمنوا برب موسى (عليه السلام)، والأخرى حينما أهملوه و لم يستأذنوه وهـــو لم يتعود على أن يكفر به أو يتخذ أحد قراراً دون الرجوع إليه، لهذا هدّدهم و توعَّـــدهم بأقســـى عقوبة. ولو أنهم استأذنوه لكان من الارجح أن يأذن لهم، لأنهم باستئذانهم لـــه، لا يتحدونـــه في ألوهيته ([1])، ولكن فرعون لم يكن ليأذن لهم بذلك؛ لأنه قال لهم:**{مَا عَلِمْـــتُ لَكُـــم مِّـــنْ إِلَـــهٍ غَيْرِي}**(القصص: ٣٨)، وكيف يأذن لهم؟ وفي إذنه لهم إقرارٌ منه بألوهية غيره.

ويبلغ بالمستبدين الأمر من ادعاء الألوهية والربوبية إلى احتكار الحقيقة المطلقة في نظرهم ورؤيتهم، وإلى حصر الرُّشْد والصواب في ما يذهبون إليه، قال تعالى:**{ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ}**(غافر:٢٩).

وكل من يختبر التمجيد الخرافي الذي يحاط به المستبدون بإسراف، قد يشك في أنه نوع من عبادة الأوثان، وإنّ إضفاءَ صفات ونعوت الربوبية والألوهية على المســـتبِدّين، وتقديســـهم وتمجيدهم غير المحدود، لا مناص من أن يترك التأثير في الرجل العادي ([2])، وتجعلـــهم يقبلـــون

---

([1]) ينظر: محمد شحرور: دراسات اسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع، ص ٢٤٧ .

([2]) هارولد ج . لاسكي: الحرية في الدولة الحديثة، ترجمة: أحمد رضوان عز الـــدين، ط٢، حزيران/يونيـــو، ١٩٧٨م، دار الطليعة، بيروت – لبنان، ، ص ١٣ .

ادعاءاتهم وأوامرهم على أنها هي الحق والصواب المطلق والذي لا يجوز على أي حال رفضه أو معارضته.

وتقديس وتأليه الحاكم هو استرهاب يفرضه المستبدّ، ويتقبله المقهور المبطوش به. وهو خضوع مارسته البشرية من أيام نمرود والفراعنة وأباطرة الرومان والفرس الذين أعلن بعضهم نفسه إلهاً، ولّما تعذّر بعد ذلك ادعاء الألوهية من قبلهم – نتيجة التراكمات المعرفية وانتشار الوعي الذي كان مبدؤه الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) حول أكذوبة الدم الإلهي الذي يجري في عروق الحكام المتألهين –، قالوا: بالحقّ الإلهي، إذ انهم يمثلون الله وهم ظلّه في الأرض، ولّما لم تنطلي هذه الفرية بعد مدة على الشعوب، ورفضت هذه النظرية أيضاً. أرادوا الاحتفاظ بمظاهر التبجيل والتقديس والعظمة، وذلك بإضفاء ألقاب ونعوت على أشخاصهم، مثل: ملك الملوك – شاهنشاه –، وصاحب الجلالة المعظم وغيرها من الألقاب التي تعطي معاني الكِبْر والعظمة، وهذه هي الموجودة إلى الآن، والاحتفاظ بتقبيل الأيدي والأقدام في بعض الأماكن من عالمنا المعاصر بل حتى الركوع، وهناك طور آخر من التقديس، وهو ادعاء الانتساب إلى الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وهم منهم بَراء، ولو كانوا من نسلهم. فالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) نفوا قدسيتهم وأثبتوا بشريتهم ([1])، قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}(الكهف: ١١٠).

## المطلب الثاني
## الجبروت (ظلم وطغيان وإرهاب)

المعنى اللغوي للجبروت هو: القهر والعظمة والقدرة والسلطة والجلال. وتجبَّر الرجل تكبر. والجبّار: هو المتعظّم الذي لا يتواضع لأمر الله، والذي يقتل على الغضب، والقتّالُ في غير حق، والمتكبّر الذي لا يرى لأحد عليه حقّاً، والجبّار في صفة الإنسان يقال لمن يجبُرُ نقيصه بادّعاء منزلةٍ من التعالي لا يستحقها ([2]).

---

([1]) ينظر: نبيل هلال هلال: اعتقال العقل المسلم ودوره في انحطاط المسلمين، ص ١٥٠–١٥٢ . و نبيل هلال هلال: الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين، ص ٧٣–٧٩ .

([2]) الجوهري: الصحاح، مج ٢ ، ص ٦٠٨ . ابن منظور: لسان العرب، مج ٢ ، ص ١٦٥–١٦٨ . أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ص ٢١٦ . الرازي: مختار الصحاح، ص ٩١ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٣٣٨ . الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، مج ٤ ، ص ١٣٧ . الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ١٨٣–١٨٤ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ١٠٥ . جبران مسعود: الرائد، ص ٣٠٤.

فالظلم والطغيان والإرهاب من خصائص النظام الاستبدادي، والحاكم المستبدّ يستعمل السجن والتعذيب والوعيد، ويستخدم البطش والاستحياء والقتل، لإرهاب الشعب والوقوف أمام دعوات الإصلاح، قال تعالى:{**فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلَالٍ،وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ**}(غافر: ٢٥-٢٦)، فالمنطق هو " منطق الطغيان الغليظ، كلما أوعَزْتُهُ الحجة، وخذله البرهان، وخاف أن يستعلي الحق، بما فيه من قوة وفصاحة ووضوح، وهو يخاطب الفطرة فتصغي له وتستجيب. كما استجاب السحرة الذين جيء بهم ليغلبوا موسى وما معه، فانقلبوا أول المؤمنين بالحق في مواجهة فرعون الجبّار " ([1]). مَنطِقُهُ قتلُ الأبناءِ، الذين سيصبحون متمردين على سلطته، واستحياء النساء للخدمة... وقتل المعارضين، نعم إنه منطق الطغيان والاستبداد في كل زمان ومكان.

والمستبِّد متكبِّر لا يحتمل اختلافاً في الرأي، بل لا يسمح من البداية أن يكون هناك رأياً آخر يزاحمه. قال تعالى:{**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى** }(غافر: ٢٩)، فالرأي الآخر يكون قدحا في ألوهيته وربوبيته، وقال تعالى:{**وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ**}(غافر: ٢٩)، فهو يفترض أنه على صواب وحق دائماً وأنه يهدي إلى سبيل الرشاد !!، " الرَّشاد، والرُّشْدُ، والرَّشَدُ: السلوك الفكريّ، والنفسيّ، والخُلقيّ، والعمليّ، الموافق للحق والصواب أو لمَا هو الأفضل والأحسن، والأكثر نفعاً والأبعد عن الضرر " ([2]). هذه الأمور يدّعيها فرعون لنفسه، تمويهاً وخداعاً للآخرين.

وظلم الناس وعدم إنصافهم وهضم حقوقهم وانتقاص الحق والميل عن القصد والاعتدال، وكذلك الطغيان الذي هو مجاوزة الحد في العصيان، والغلو في الكفر، والإسراف في المعاصي والظلم ([3])، من أخص صفات النظام الاستبدادي، قال تعالى: {**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ،فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ**}(الفجر: ٦-١٢).

جاء في تفسير قوله تعالى:{**وَفِرْعَوْنَ ذِي الاوْتَادِ**} أنّ فرعون وُصِفَ بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربون أوتادها في منازلهم، أو لكثرة مضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٣٠٧٧ .

([2]) وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ٩، ص ٢٢١ .

([3]) ينظر: الجرجاني: كتاب التعريفات، ص ١٤١. الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٢٠ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٢٠٠ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٥٥٨ .

لتعذيبه بالأوتاد كما فعل بماشطة بنته ([1]) وبآسية، لأنه كان يدق للمعذَّب أربعة أوتاد ويشده بها مبطوحاً على الأرض فيعذبه بما يريد من ضرب أو إحراق أو غيره ([2]). وذو الأوتاد تشبيه، أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده، وهنا شبّه فرعون في ثبات ملكه ورسوخ سلطنته ببيت ثابت أقيم عماده وثبتت أوتاده، فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر ([3]).

أما قوله تعالى:{**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ**} فيقول أغلب المفسرين: يعني عاداً وثمود وفرعون، عملوا بالمعاصي وتجبروا وتمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، وتجاوزوا الحد والقدر في الظلم والعدوان. وأكثروا البلاد بالجور والأذى أو بالكفر والقتل والظلم وسائر المعاصي ([4]).

ويعبر القرآن الكريم عن الجبروت، بقوله تعالى عن فرعون:{**إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ**}(الدخان: ٣١)، وقوله:{**وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**}(يونس: ٨٣)، " أي عاتٍ متكبِّر متغلِّب على أرض مصر، والمجاوزين الحد في الكفر وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات " ([5]). وقال تعالى:{**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الارْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**}(القصص: ٤)، أي إنّ فرعون تجبر في الأرض واستكبر، وبغى وطغى وقهر أهلها. وجعل أبناء مصر فرقاً وأحزاباً مختلفة، وسخّر كل طائفة في مصالحه العمرانية والزراعية وغير ذلك من أمور دولته، وبذر بينهم بذور الفتنة والعداوة والبغضاء، حتى لا يتفقوا، أخذاً بسياسة المستعمر: ((**فرِّق تسُد**)). وجعل جماعة منهم أذلة

---

([4]) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ١٣٣٧/٢ . ابن حبان: صحيح ابن حبان، ١٦٤/٧ . الطبراني: المعجم الكبير، ٣٥٦/١١. الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ٤٩٦/٢ .

([1]) ينظر: الآلوسي: روح المعاني، مج ١٥، ج ٣٠، ص ١٥٨ . و ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠، ص ٣٥ . ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٢٤٩ . الطبري، جامع البيان عن تأويل آيِ القرآن، مج ١٥، ج ٣٠، ص ٢٢٤-٢٢٥ . النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٤، ص ٣٥٥ . الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ١٦، ج ٣١، ص ١٦٨ . الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ١٢٠٠.

([2]) ينظر: الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٩٢٠ . الآلوسي: روح المعاني، مج ١٢، ج ٢٣، ص ١٧٠-١٧١ .

([3]) ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٢٤٩. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠، ص ٣٥. البغوي: معالم التنزيل، مج ٨، ص ٤٢٠ . الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ١٢٠٠ . النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٤، ص ٣٥٥ . الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ١٦، ج ٣١، ص ١٦٨ . الآلوسي: روح المعاني، مج ١٥، ج ٣٠، ص ١٥٩ .

([5]) الشوكاني: فتح القدير، مج ٢، ٦٥٢ .

مقهورين، وهم بنو إسرائيل. وذلك بقتل مواليدهم الذكور، والإبقاء على الإناث أحياء، إهانةً لهم واحتقاراً ([1]).

فمن سمات الاستبداد السياسي الأساسية، سواءً كان استعمارياً أم محلياً، أن يفرِّق بين الناس، ويجعلهم طوائف وشيعاً، وذلك بتشجيعه الانقسام بين الطوائف المختلفة من أبناء الشعب، وتمزيقهم الى فرق متعددة ومتنوعة، وفق سياسة «فرِّق تسُد» الاستعمارية، وذلك لغرض السيطرة عليهم واستضعاف الجميع ([2]).

وقد ابتكر فرعون طريقة جهنمية لإبادة شعبٍ بكاملهِ لعدم اعتقادهم إلوهيَتَهُ وإنكارهم للوثنية الفرعونية، " تلك هي تسخيرهم في الشاق الخطر من الأعمال، واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب، وبعد ذلك كله تذبيح الذكور من أطفالهم عند ولادتهم، واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم. وبذلك يُضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث، فوق ما يصبه عليهم من نكال وعذاب " ([3]).

وبصدد سياسة القهر والقتل التي يتبعها الطاغية عندما تسقط جميع الاوراق في يديه، يقول «سبحانه وتعالى»:**{لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ}** (الأعراف: ١٢٤) فـ(فرعون) عندما غُلِب وانهزم قال مقالته هذه، فرجع إلى الخذلان والغشم والقهر والبطش، وهذه عادة ملوك السوء والطغاة إذا غولبوا وانهزموا ([4]). ويقول تعالى:**{قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى}**(طه: ٧١)، وفي هذه الآية الكريمة تظهر وبشكل جلي وحشية وعدوانية الحاكم المستبدّ والغلظة والقسوة التي يتصف بها، فهو لا يستطيع قهر القلوب والأرواح، فيستعمل ويستخدم أساليب البطش والتعذيب والتنكيل والتي يعتمد عليها في بسط سيطرته والحفاظ على وجوده المهزوز، وليس له سبيل للاستعلاء سوى القوة الغاشمة، قوة الوحوش في الغابة. القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب ([5]).

---

([6]) ينظر: وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ٢٠، ص ٥٦-٥٧ .

([1]) ينظر: محمد شحرور: دراسات اسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع، ص ٢٤٩ .

([2]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٢٦٧٧ .

([3]) ينظر: ابن عطية الأندلسي: المحرّر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ج ٢، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص ٤٤٠ .

([4]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٣٤٣ .

وجاء فعل:{لَأُقَطِّعَنَّ} وفعل:{لَأُصَلِّبَنَّكُمْ} مُشدَّدين للدلالة على العنف في التعذيب، فالتقطيع نوع من التشويه العقابي في الأعضاء، والصلبُ سياسة التشهير بهم والتخويف والترهيب لغيرهم، ليكونوا عبرةً لكل منْ تحدِّثه نفسه بمخالفة دين الملك ونظام حكمه ([1]). فالسياسة التي يتبعها الطاغية هنا هي ((**سياسة الردع**))، وذلك عن طريق علنيةِ التعذيب والصلب والقتل يتخذها وسيلة ردعٍ، تستهدف إلقاء الرعب والخوف في القلوب، لجعل مهابة المستبِدِّ موحيةً بالخوف الهائل منه، وأنْ لا خَيارَ عند الرعايا غير الإذعان والخضوع المطلق لمشيئته ([2]).

فمن جهة يتم تركيع الأمة بالخوف بجرعة رعب عالية، قال تعالى:{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} (يونس: ٨٣)، فضلاً عن تصفية البلد وتفريغه من كل طاقاته وتمزيقه والتفريق بين أبنائه. ومن جهة أخرى يتم تسليط سفلة الناس والأوغاد على رقبة الأمة، وعليه يكون أسفلهم طباعاً أعلاهم وظيفة وقرباً؛ ولهذا لا بدّ أن يكون الوزير الاعظم للمستبِدّ هو اللئيم الاعظم في الامة ([3]).

ولا يضير المستبِدّين أن يوصَفوا بالتجبّر والبطش والديكتاتورية، فالمستبِدّون أحياناً لا يكونون مترعجين من النعوت القمعية المتداولة عنهم، بل يمكن أن يساهموا بإذاعتها على ألسن الناس وذلك لبث الرعب والخوف بين الجماهير ([4]).

فاذا كان البطش والقتل ظلماً من سمات النظام الاستبدادي، فان القرآن الكريم يذم هذا الخُلُق، ويأمر ((سبحانه وتعالى)) البشرية بالتقوى والطاعة، أي الالتزام بمنهجه المتصف بالرحمة والعدل والسماحة: قال تعالى:{وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}(الشعراء:١٣٠-١٣١)، والبطش: كلمة تدل على السياسة التي يستخدمها المستبِدّون الجبابرة في حكمهم للبلاد والعباد ([5]).

ونظراً لما للملوك (الطغاة المستبدين) من سمعة سيئة في ظلمهم وطغيانهم وقيامهم بفعل التقتيل والتعذيب وإفساد المجتمعات، نرى ((**المَلِكَ**)) في القصص القرآني مغتصباً ومفسداً، قال تعالى:{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ

---

([5]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٨، ص ١٨٤ . و ص ٦٠٦ .

([1]) فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ٣٥ .

([2]) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٥٨ .

([3]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ٤٤-٤٥ .

([4]) عمر عبيد حسنة: كيف نتعامل مع القرآن الكريم ؟ في مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، المكتب الإسلامي، ، ص ١٩٤ .

سَفِينَةٍ غَصْبًا}(الكهف: ٧٩). وكان القول على لسان بلقيس، قال تعالى:{قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}(النمل: ٣٤) ([1])، يقول الزمخشري:" {أَفْسَدُوهَا} أي: خرّبوها وأذلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا وأسروا... ثم قالت:{وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} أرادت وهذه عادتهم المستمرة الثابتة؛ لأنها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك ورأت " ([2]).

والأمر واضح في الوقت الحاضر، فالترويع وسياسة خلق الأزمات وإيجاد الأعداء الوهميين من خلال خلق حواجز نفسية لتفرقة أبناء الأمة الواحدة الى مِلَلٍ ونِحَلٍ متصارعة، والحذر الشديد من خلال العمل بقانون الطوارئ بحجج واهية، والعمليات المبرمجة والسيناريوهات المعدة من وراء الكواليس التي تقوم بها أجهزة الأمن والمخابرات، تلاصق مجمل الفعاليات والاتجاهات التي تحكم توجهات الانظمة المستبِدَة. فالتسلح الكثيف والمُبالغ فيه الذي لا يتم استخدامه في المعارك أو التحديات المصيرية الكبرى، بقدر ما يتم تكديسه من أجل قطع الطريق أمام دعوات التغيير والاصلاح واسكات أصوات الداعين الى الحق، ومن أجل إرهاب وإرعاب المواطن البسيط وتركيعه، فالمواطن باعتباره قيمة عليا هو الغاية المستهدفة أمنياً ورقابياً في ظل هذه الانظمة المشوهة ([3]).

وتفضي هذه إلى أنّ سبيل الانظمة الاستبدادية، هو العنف واستخدام القوة، والتعذيب والتنكيل والبطش، عُدَّتُهُم في المواجهة والوقوف أمام الحق والحرية، وغالباً تُعَدّ الأحكام العرفية الوسيلة التي يستخدمها النظام لقمع الشعب وتبرير سياسة القوة والعنف والسجن والإبعاد والنفي والاغتيال...الخ.

وفي القرآن الكريم تتكرر الآيات للتحذير من الظلم وعذاب الظالمين، بما كانوا يفسقون وبما كانوا يظلمون، ومطالبة الناس جميع الناس بعدم الركون الى الظالمين وعدم إطاعتهم، قال تعالى:{وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} (هود: ١١٣). وقال:

---

([5]) فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٦-١٥٧ .

([1]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٧٨٢ . الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج ١١، ج ١٩، ص ١٨٨ .

([2]) ينظر: إسماعيل نوري الربيعي: الثقافة والاستبداد: مفارقات القوة والعنف والشقاق، ص ٣٥٣ .

{فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ}(هود: ١١٦). وقال: {وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}(هود: ٩٤) ([1]).

([1]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٥ .

## المطلب الثالث
## التجرد من القِيَم (الفِسْقُ والفُجُورُ)

المعنى اللغوي للقِيَمِ: جمع قيمة: ثمن يعادل المتاع، درجة الأهمية النسبية له. وقيمة الشيءِ: قدْرُهُ . وقيمة المتاع: ثمنُهُ.

والقِيَمْ: هي المعايير التي يتمسك بها ضمناً أو يعتنقها صراحة فرد أو مجموعة ([1]). أو هي " حقائق تعبِّر عن التركيب الاجتماعي. وفي الدراسة الفلسفية، تعدّ القِيَم جزء من علم الأخلاق وعلم الجمال والفلسفة السياسية " ([2]).

وفَسَقَ: فَجَرَ، وخرج، والفِسق: العصيان والفُجُورٌ.

والفِسْقُ: هو الخروج عن طريق الحق والواجب، وعصيان أوامر الله وعدم إطاعته أو التّركُ لأمرِ الله ومجاوزة حدود الشرع ([3]).

وفَجَرَ: فسق، وكذب، وأصله الميل، وفجَرَ عن الحقِّ : عدل عنهُ ومالَ، والفاجر المائل.

والفُجورُ: هو ارتكاب المعاصي، وشقُّ سِتر الدِّيانةِ. والفجْـرُ: الانبعاث في المعاصي والزِّنى، وعدم الاكتراث بها ([4]).

يتصف النظام الاستبدادي بالتجرد من القيم والمبادئ والمثل العليا، والسوق الرائجة في ساحته إنما هو (الفسق والفجور)، فالمستبِدّ أكثر من غيره احتياجاً إلى ما لا يحصى من الأشياء.. فالشهوات تعشعش في داخله.. ولا يسحب يده من اغتيال ذميم أو طعام محرم أو فعل نجيس.. ((شهويٌ)) لما فيه من حبّ الشهوات والالتصاق بها، مندفع نحو الرغبات الهوجاء، وعندما تسرف الرغبات في تحقيق المتع المتاحة، يصبح المستبِدّ أسيراً لشهواته ومجونه، مطلقاً العنان لكل ما يجلب له المسرة وبغير إمكانية لإشباعها، فيفقد توازنه ([5])، قال تعالى في وصف فرعون: {إِنَّهُ كَانَ مِنَ

---

([1]) ينظر: جبران مسعود: الرائد، ص ٧٢٢ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٧٦٨ . جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٤٧٤ .

([2]) دينكن ميشيل: معجم علم الاجتماع، ص ٣٦٦ .

([3]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج١٠، ص ٢٦٢-٢٦٣ . الجوهري: الصحاح، مج ٤ ، ص ١٥٤٣ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٨٤٦ . الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٣٦ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: ص ٦٨٨-٦٨٩ . جبران مسعود: الرائد، ص ٦٦٦ .

([4]) ينظر: الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٤٢٣ . الجوهري: الصحاح، مج ٢، ص ٧٧٨ . الرازي: مختار الصحاح، ص ٤٩١ . الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٢٦ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٦٧٤.

([5]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ٦١ .

الْمُفْسِدِينَ}(القصص: ٤)، وقال تعالى:{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}(الإسراء: ١٦)، فطبقة الكبراء والاغنياء المتنعمين بالدعة والراحة.. أصحاب النفوس المترهلة الآسنة، التي ترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات، وتلغ في الأعراض والحرمات، إذا لم تجد من يضرب على يدها عاثت في الارض فساداً، ونشرت الفاحشة في الأمة وأشاعتها... فالفسق والتجرد من القيم هي النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود هذه الطبقة في المجتمع ([1])، وهي السمة الغالبة في النظام الاستبدادي.

ومما يصدق هذا القول إشارة القرآن الكريم على لسان ملكة سبأ (بلقيس):{قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}(النمل: ٣٤). وحيث لا يصحح القرآن بطلان هذا القول مثلما يفند الباطل في سواه، فانه يستعيد في أذهان الناس ما يعرفونه عن فساد المستبدين وطغيانهم، كسيرة دائمة لهذا النوع من الحكام وذلك بقرينة ما جاء في نهاية الآية {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} ([2]). وهذا ما نراه واقعاً في عالمنا المعاصر.

ولتخدير الوعي نرى بأن النظام الاستبدادي يركز على إيقاظ الغرائز وإثارة الشهوات وتتفتق ذهنه بفتح دور الخمر والدعارة والألعاب الجماهيرية، لإلهاء الجماهير وإشغالها، وحينما نقرأ تاريخ روما نعلم أنها كانت مخدّرة على مدار السنة في (١٧٥) عيداً منها (١٠) للمجادلين و(٦٤) للوحوش وما بقي في الرقص والطرب في دور التمثيل، كما في المحطات الفضائية الحالية التي يشرف عليها الساسة المستبِدّون وينفذها المطربون والانتهازيون لصناعة الثقافة المتجردة من أبسط القيم والمبادئ والأعراف؛ وذلك لإلهاء وإشغال الرعاع والغوغاء من الجماهير، والذين انحصر همهم في لذة الفرج والبطن، وبهذه الطريقة يتم (تخدير الشعوب) و (تخنيث الأمم) والنتيجة هي استعباد الأمم وتركيعها بظاهر من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون ([3]).

ونفس الطريقة يسلكها المستبِدّون في كل زمان ومكان، فتراهم يركزون على الإفساد الأخلاقي بالوسائل المتعددة، وذلك بسلوك طريق العري وتشجيع الاختلاط.. فهم يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوى، ومن الحياء من الله ومن الناس؛ ويطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة – في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة – فهم يريدون سلب الإنسان خصائص فطرته، وخصائص إنسانيته التي بها صار

---

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٢١٧-٢٢١٨

([2]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٦-١٥٧ .

([3]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ١٩٠ . محمد هلال الخليفي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٠٣ .

إنساناً. ويريدون تسليم واخضاع الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته !! وهم بذلك ينفذون مخططات أعداء الانسانية الرهيبة من الصهاينة وغيرهم، لتدمير الفطرة وإشاعة الانحلال والاباحية لتخضع لهم بلا مقاومة. وقد فقدت مقوماتها الإنسانية ! ([1]).

ومن روائع القرآن: أنه ربط بين الطغيان وانتشار الفساد، الذي هو سبب هلاك الأمم ودمارها، كما في قوله تعالى:{**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**}(الفجر: ١١-١٣)، وقوله جلّ جلاله:{**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**}(القصص: ٤).

فالإفساد من المُوجِّهات الرئيسة في سياسة الانظمة الاستبدادية لترسيم معالم قيم واتجاهات لا غاية لها ولا هدف سوى إلهاء وإشغال الجماهير، بل إن الاتجاه نحو الإفساد في المضامين القيمية، والمحاولات الدائبة نحو تمزيق النسيج الاجتماعي وغرس القيم الشاذة، ونشر الرذائل في العائلة والوظيفة والمؤسسة الرسمية، هي من الوسائل المكشوفة التي لا تتردد السلطة الاستبدادية الإفصاح عنها جهراً ودون تردد ([2]).

## المطلب الرابع
## انعدام الحرية

الحرية لغةً: مصدر حرَّ يَحَرُّ. أصل الكلمة من مادة (حرَّ)، وحرَّ يَحَرُّ: حراراً العبدُ: خَلُصَ من العبودية. وتحرّرَ: تخلّص. وحرَّ يَحَرُّ: حُرِّيَّةً: كان حرّ الأصل شريفه. وهو من يملك حقّ التصرُّف بحرية. والحرّ من الناس خيرهم وأفضلهم والكريم. والحرّ من الشيء: الخالص الصافي. وحُرُّ الدار: وسطها. وحُرُّ الأرض: أطيبها ([3]).

قال الراغب: الحرية ضربان: **الأول**: مَنْ لم يجر عليه حكم الشيء، نحو:{**الْحُرُّ بِالْحُرِّ**}(البقرة: ١٧٨). **والثاني**: مَنْ لم تتملّكه الصفات الذميمة من الحرص والشَّرَه على المقتنيات الدنيوية، وإلى العبودية التي تضادُّ ذلك، وقد أشار النبي (ﷺ) الى ذلك بقوله: ((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ)) ([4]).

---

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٣ ، ص ١٢٧٥ .

([2]) ينظر: إسماعيل نوري الربيعي: الثقافة والاستبداد: مفارقات القوة والعنف والشقاق، ص ٣٥١-٣٥٢ .

([3]) جبران مسعود: الرائد، ص ٣٣٩ و ص ٢٢٨ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ١٦٥ .

([4]) البخاري: صحيح البخاري، ٢٢٣/٣ ، ١٧٥/٧ . ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ١٣٨٦/٢ . البيهقي: السنن الكبرى، ١٥٩/٩ . ابن حبان: صحيح ابن حبان، ١٢/٨ . علي بن أبي بكر، نور الدين، الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٤٨/١٠ .

وتحرير الإنسان: جعله حُرّاً، وتحرير الكتاب: تقويمه، و- الرقبة: إعتاقها. وحرّرتُ القوم: أطلقتهم وأعتقتهم عن أسر الحبس، ومحرّراً: مُخْلَصاً ([1]).

ووردت مفردات ومشتقات مادة (حَرَّ) في القرآن (٨ مرات) في (٥ سور) ([2]).

وفي المعنى اللغوي نرى توزّع مادة (حَرَّ) على معانٍ متعدّدة، وكلها تشير إلى الشيء الحسن والجذّاب والمتّسق مع معانيه ودلالاته، منها: خلُصَ من العبودية وتخلّص من الظلم، والتسخين والتسوية، والتميّز والنقاوة من الشوائب ومن كل ما يشين، والتقويم والاعتاق، وشريف الاصل.. وتعني من الشيء: الخالص الصافي، والاصالة والكرم، والوسط، والطيب واللين.. ([3]). وكلها معاني تدور حول الخير والجمال والبركة والنعماء.. وتعني أيضاً: التفرّغ لطاعة الله وخدمة المسجد فعلاً يسبق القول، إشارة إلى قوله تعالى:{**نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**}(آل عمران: **٣٥**)، أي: معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يَد لي عليه، ولا أستخدمه. والمحرر: الخالص لله سبحانه الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا. فالحرية تعني الانطلاق الذي هو نقيض القيود والعبودية ([4]).

والحرية في الاصطلاح: هي القدرةُ على التصرّف بمَلْءِ الإرادة والخيار. والحُرُّ: هو من يملك حق التصرف بحرية ([5]).

**ويمكن تمييز ثلاثة مستويات مختلفة في تعريف الحرية:**

**المستوى الأول:** وهو المستوى اللغوي والمتعارف عليه والذي يعني انعدام القيود القمعية أو الزجرية.

**المستوى الثاني:** يقع في نطاق التفكير الأخلاقي والسياسي. والحرية في هذا المستوى لا تعود مجرّد صفة تميِّز بعض الأفعال عن غيرها بل ترتفع إلى مستوى الواجبات والحقوق والقيم.

**المستوى الثالث:** فهو مستوى الفلسفة الخالصة حين يطرح سؤال عن ماهية الحرية وجوهرها وربط وجودها بمجموعة من المفاهيم والتعابير ([6]).

---

([1]) ينظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص **٢٢٤** . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص **٣٤٩-٣٥٠** .

([2]) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص **٢٥٠** .

([3]) ينظر: الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص **٣٤٩-٣٥٠** . جبران مسعود: الرائد، ص **٣٣٩** و **٣٤٢** .

([4]) ينظر: الزمخشري: الكشاف، ص **١٦٩** . سيد قطب، في ظلال القرآن، مج**١**، **٣٩٢** .

([5]) جبران مسعود: الرائد، ص **٣٣٩** و **٣٤٢** .

([6]) ينظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج **٢**، ص **٢٤٢** .

والنقيض لهذه القيمة والدلالة السامقة في الوجود الإنساني، هو الاستبداد، ولما كان النظام الاستبدادي لا يخضع للقانون فيما تتخذه من تصرفات وما يصدر عنها من أعمال وقرارات، فإنه لا ينتظر منها أي احترام لهذه القيمة والدلالة السامقة «الحرية»، وانعدام الحرية معناه تمكُّن الإكراه والقسر والقمع والمنع في حياة البشرية.

وإن طبيعة الاستبداد التي تستند على إضفاء صفات الألوهية والربوبية للشخص المستبِدّ، وتعمل على تمجيده وتقديسه، ولا نكاد نعثر على مستبِدّ سفاح أو بارز، لم يتخذ شكلا من أشكال القدسية أو مقاماً يشارك به الله – سبحنه وتعالى- قدسيته في شخصية أسطورية يحاول تقمصها، وهذه الطبيعة تحاول استباق حكم التاريخ بمثل هذا الأسلوب - لأن التقديس عموماً يجب أن يكون بعد الموت وليس قبله - والتي لا تنجح في مسعاها إلا بعد إجراء عمليات مسخ وتشويه كبيرة لنفس الإنسان المستبَدّ، والعمل على كبته وتقييد حرياته، وقمع حركاته وتصرفاته، فانعدام الحرية هي السبيل الذي يستطيع الاستبداد فيه تثبيت وجوده، وفرض سيطرته ([1]).

وكلما طال فرض هذه المفاهيم والأفكار بالإكراه والقمع على المجتمع، ازداد شعور الناس على وضع يفقدون فيه عادة إدراك أنّ من حقوقهم الطبيعية أنْ يفكروا لأنفسهم، فتراهم ناسين لحقوقهم، غير معلنين للحق الذي يرونه، راضين بالجرم والظلم الواقع عليهم من قبل المستبدّين.

فانعدام الحرية يميت في الإنسان معاني الحمية والعزة والكرامة، أو المطالبة بالحقوق، فيقبل الذلّ والهوان، فمصادرة حرية الانسان هي بداية الطريق للانحطاط، والنهوض من جديد لابد من أن يبدأ من العودة الى تحرير الانسان من كل القيود والاغلال ولا يتم ذلك إلا عبر ارساء مفهوم الحرية، بمعناها الواسع، حيث جاء القرآن الكريم إلى الناس بمفهوم:**{وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}**(الأعراف: ١٥٧). ([2])

---

([1]) ينظر: فاضل الانصاري، قصة الاستبداد، ص ٦٥-٦٦ . محمد شحرور: دراسات اسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع، ص ٢٤٧ .

([2]) ينظر: عبد الله علي العليان: الإسلام والاستبداد: مقاربة نقدية لمقولة «المستبد العادل»، مقال منشور في كتاب (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٤٤ .

## المطلب الخامس

## الاحتكار والاستغلال

الحَكْرُ: الظُّلْمُ، وحَكَرَهُ: ظلمهُ وتنقَّصَهُ و- أساء معاشرته، واحتكر الشيءَ: استأثر بـــه، وخصَّ نفسَه بهِ، وحكر برأيه: استبدَّ.

والاحتكار هو: احتباس الشيء وحفظه انتظاراً لغلائه وبيعه بالكثير. واحتكار الطعام: جمعه وحبسه يُتَربصَّ به الغلاء، أو هو استئثار بالشيء أو تفرُّد شخص أو جماعة بالقيـــام بعمـــل معين ([1]).

والاستغلال: مصدر للفعل المزيد: إستغلّ. أصله: غلّ، وغلّ: خان، وغلّ بصره: حـــاد عن الصواب، واستغله: أفاد منه وانتفع بغير حق أو قانون، نحو: ((استغلَّ المســـتبدون الشـــعب)) ([2]).

و" الاستغلال عموماً عملية يستعمل فيها شخصٌ أو مجموعةٌ شخصاً آخر أو مجموعـــةً أخرى من أجل منفعة أنانية وبلا مكافأة مناسبة " ([3]).

من خصائص النظام الاستبدادي بكونه سلطة مركزية يَعمُد إلى احتكـــار واســـتغلال السلطة، ولاسيما السلطات التي تعد عِماد النظام، نحو: المؤسسة العسكرية (**للحماية**)، وأجهـــزة الأمن (**للقمع**)، ووسائل الإعلام (**للدعاية**)، والمال والاقتصاد (**لشراء الذمم وللإفقار**) ([4]).

وحكومة الاستبداد تسد وتغلق أبواب المشاركة في إدارة شؤون الحياة العامة للجماهير، فهو احتكار للإدارة، ومنع للآخرين من المشاركة فيها ([5]).

---

([1]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٣ ، ص ٢٦٧ . الجوهري: الصحاح، مج ٢ ، ص ٦٣٥-٦٣٦ . الرازي: مختار الصحاح، ص ١٤٨ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٣٥٤ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوســـيط، ص ١٨٩ . جبران مسعود: الرائد، ص ٣٤ .

([2]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ١٠، ص ١٠٦-١١١ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٩٥٧ . الراغـــب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦١٠ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوســـيط، ص ٦٦٠ . جـــبران مســـعود: الرائد، ص ٧٦ .

([3]) جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ١٦٠.

([4]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥ ، ص ٣٠٨٠ . محمد شحرور: دراسات اســـلامية معاصـــرة في الدولـــة والمجتمع، ص٢٤٦ و ٢٥٠ .

([5]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٤ . ثناء فؤاد عبد الله: (الاســـتبداد في نظـــم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٩٣ .

ويذكر القرآن الكريم أخطر أنواع الاحتكار للمستبِدّين، ألا وهي: احتكار الفكر والعقل ومنع الناس من إعمالهما، يقول ((سبحانه وتعالى)) تصويراً للعقلية الاحتكارية المستبِدّة:{قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}(الأعراف: ١٢٣-١٢٤)، فالقيام بأي تصرف ينبغي أن يكون بعد أخذ الإذن من الحاكم، فلا يجوز القيام بأي عمل فكري وعقلي أو عادي إلا بموافقته، ولا ينبغي لأحد تجاوزه. فهو يريد أن يحتكر حتى ما في قلوبهم ووجدانهم وأرواحهم ([1]).

وبهذا الصدد يبين الله لنا إرهاب واحتكار فرعون - الأنموذج الامثل لكل مستبِدّ وطاغية على مر العصور والأزمنة - للفكر والعقل، بقوله تعالى:{قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاّ سَبِيلَ الرَّشَادِ}(غافر: ٢٩)، نعم إنه وبهذا المنطق يدعو الشعب إلى إلغاء عقولهم وشخصياتهم وحرياتهم، والتحول إلى نكِراتٍ وأصفار وأتباع. فالألوهية تتضمن الطاعة الكاملة من الناس لفرعون، بألا يتصرفوا بشيء بقناعاتهم الشخصية إذا كانت لديهم قناعات وأفكار وآراء، وانما عليهم تفويض الأمر للطاغية، يقول لهم فرعون:{مَا أُرِيكُمْ إِلاّ مَا أَرَى} أي: أنا أتولّى التفكيرَ والرأيَ نيابةً عنكم، فلا تُفكِّروا بشيء، لأنكم لستم مؤهلين للرأي، ولا قادرين على التفكير، وإن فكَّرتم فسوف تخطئون، أمّا أفكاري فهي صائبة، ورأيي سليمٌ ناضج، ولا يتطرق إليه خطأ أو تقصير، وليس هذا المنطقُ خاصاً بفرعون في خطابه للملأ وللجماهير، ولكنه منطق كلِّ مستبِدٍّ سارَ على طريقه من الفراعنة السابقين والمعاصرين، كلُّ مستبِدّ من هؤلاء لسانُ حالِه في تعامله مع الجميع، يقول:{مَا أُرِيكُمْ إِلاّ مَا أَرَى} ([2]).

فالاستبداد في جوهره **مشكلة معرفية**، إذ هو كما يقول عبد الرحمن الكواكبي: "غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة " ([3])، فهو حالة من حالات احتكار المعرفة وامتلاك الحقيقة، ومن هنا كانت الظاهرة الفرعونية هي قمة ظاهرة الاستبداد، ففرعون خاطب قومه مدّعياً أنه الذي يهديهم سبيل الرشاد، والرشد مرجعه إلى ما يراه المستبدّ لا ما تقرره حقائق الواقع، أو معطيات العقل ([4]).

---

([1]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٦ .

([2]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص ١٧٦-١٧٧

([3]) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٣ .

([4]) ينظر: نصر محمد عارف: الأبعاد الدولية للاستبداد السياسي في النظم العربية، جدلية الداخلي والخارجي، مقال منشور في (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٥٣١ .

وكأن لسان حال الطاغية يقول: " إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً، واعتقده نافعاً. وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون ؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً ؟! وإلا فلم كانوا طغاة ؟! " ([1]).

بهذه العقلية يحتكر المستبِدّون الطغاة الحق والخير والصواب، ويعدون مبادئهم وتشريعاتهم هي الصواب المطلق، ولذلك فهم غير مستعدين لتقبل الآراء الأخرى، ناهيك عن الاستماع إليها.

ومن جهة أخرى تسعى الطبقة المستبِدّة إلى احتكار واستغلال الشعب وإجبارهم على دفع الرشاوى واللجوء الى داء الواسطة البغيض والذي له مساوئ عديدة في هضم حقوق الناس وأخذ أموالهم بالباطل، قال تعالى:**{وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}**(البقرة: ١٨٨).

وأما احتكار واستغلال موارد وثروات الدولة، فهذا ديدن الأنظمة الاستبدادية، ونتيجة للسياسات الاقتصادية الاستغلالية والاحتكارية التي تنتهجها، التي تصب في صالح أرباب السلطة وحاشيتها والبطانة التي تدور حولها، وبدورها تترسّخُ العلاقة الجدلية بين السلطة السياسية والمكانة الاجتماعية للإقطاعيين والرأسماليين مِنَ الملإ أمثال قارون، وبين قدراتهم وفرصهم الاقتصادية للحصول على مزيدٍ من المكاسب.

وابن خلدون مِنْ الأوائل الذين تعرّفوا على هذه العلاقة الجدلية، إذ يقول: " إننا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروةً من فاقد الجاه. والسبب في ذلك أنّ صاحب الجاه مخدومٌ بالأعمال يُتقرب إليه في سبيل التزلّف والحاجة إلى جاهه. فالناس معِينون له بأعمالهم في جميع حاجاته، من ضروري أو حاجي أو كمالي. والأعمال لصاحب الجاه كثيرة، و(هو) يزداد مع الأيام يساراً وثروةً. ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش " ([2]).

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٣٠٨٠ .

([2]) مركز دراسات الوحدة العربية، إسماعيل الشطي وآخرون: الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية، ط١، كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ٢٣٩ .(نقلاً من المقدمة لإبن خلدون، الباب الخامس من الكتاب الأول).

## المطلب السادس

## الترف والإسراف والتبذير

الترفُ لغةً: التنعُّم وسعة العيش، وأترفته وترَّفَتــْهُ النعمة: أطغتــه وأبطرتــه. والتــرفُ والترفُّهُ: التوسع في النعمة. وإستترَفَ: تكبَّر وطغى من الغنى والسَّعة، وأترف فلان فهو مُتــرَف ([1]).

ومن معانيها في اللغة يتبين أن لها ثلاث صفات، هي: (بطر النعمــة) و (الطغيــان) و (التنعّم والتوسع في ملاذ الدنيا) ([2]).

ووردت تصريفات كلمة (الترف) في سبعِ سورٍ من القرآن الكريم في ثمان مرات، وهي: (أترفناهم، وأترفتم، وأترفوا، ومترفوها-مرتان-، ومترفين، ومترفيها، ومترفيهم) ([3]).

الإسرافُ لغةً: السَّرَفُ: ضِدُّ القصد، والإغفال والخطأ.

والإسرافُ في الاصطلاح والعرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنســان، وإن كــان ذلك في الإنفاق أشهر، فهو مجاوزة الحد والاعتدال. والإسراف في النفقة: التبذير ([4]). وقال أحد العلماء: (ما أنفقتَ في غير طاعة الله فهو سَرَفٌ، وإن كان قليلاً) ([5]).

ووردت تصريفات كلمة (الإسراف) في (٢١) سورة من القرآن الكريم في (٢٣) مرة.

والتبذير لغةً: بَذِرَ، أي أكثر من الكلام، وبذَر ماله: أسرفَ في إنفاقهِ، وبذِر فلانٌ: تجاوز الحد في النفقة. والمُبَذِّرُ: المضيِّع لماله.

قال الشافعي (رحمه الله): (التبذير إنفاق المال في غــير حقــه، ولا تبــذير في عمــل الخير)([6]). وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مُدًّا في غير حقٍّ

---

([1]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٢، ص ٣٠ . الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ١٦٦ . الفــيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٧٣٣ . المعجم الوسيط، ص ٨٤ . جبران مسعود: الرائد، ص ٦٧ و ٢٣٩ .

([2]) ينظر: عبدالكريم زيدان: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشــريعة الإســلامية، ط١، ١٤١٣هـــ-١٩٩٣م، دار إحسان للنشر والتوزيع، طهران – إيران، ص ١٨٣ .

([3]) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ١٩٥ .

([4]) الجوهري: الصحاح، مج ٤ ، ص ١٣٧٣ . الرازي: مختار الصحاح، ص ٢٩٦ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٧٥٥ . الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٠٧ . مجمع اللغة العربية: المعجــم الوســيط، ص ٤٢٧ . جبران مسعود: الرائد، ص ٤٨٨ .

([5]) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٠٧ .

([6]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٩، ص ٦٠٢-٦٠٣ .

كان مُبذِّراً. فليست هي الكثرة والقلة في الإنفاق. إنما هو موضع الإنفاق. ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين، لانهم ينفقون في الباطل، وينفقون في الشر، وينفقون في المعصية ([1]).

ووردت تصريفات كلمة (التبذير) في سورة واحدة من القرآن الكريم، وهي الإسراء، في ثلاث مرات وهي: (تبذِّر، تبذيراً، المبذرين) ([2])، وفي آيتين فقط، وهما في: قوله تعالى:{**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا،إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا**}(الإسراء: ٢٦-٢٧).

**إنّ أبرز الخصائص التي يتصف بها النظام الاستبدادي، وتتصف بها الطبقة المستبدة، هي: الترف، والتبذير، والإسراف، وإهدار المال العام.**

فنرى السَرَفَ الشديد على الطبقة الحاكمة في النظام الاستبدادي، وذلك لإشباع شهوات الغي – في البطون والفروج –، ومُضِلاتُ الهوى مسيطرةٌ على القلوب والعقول، وعِبءُ هذه الثروات يقع على خزانة الشعب، فالنظام الاستبدادي لا يُبالي من أين يأخذ المال ؟ ولا أين يضعه ؟ ([3]). فالإسراف يدفع بالإنسان إلى الفساد والأمر به، قال تعالى:{**وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**}(الشعراء: ١٥١-١٥٢).

ويعبِّر القرآن الكريم عن ذلك بآيات كثيرة، منها:

قوله تعالى:{**فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ**}(هود : ١١٦) .

وقوله تعالى:{**حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ**}(المؤمنون: ٦٤).

وقوله تعالى:{**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**}(الزخرف: ٢٣).

ويعبر النص القرآني عن الطبقة المستبدّة بالمترفين، قال تعالى:{**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**}(الإسراء: ١٦).

وفي قوله تعالى:{**أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا**}، يقول الزجّاج: تقرأ أَمَرْنا مخفَّفةً: والمعنى أمَرْناهم بالطاعة ففسقوا. وتقرأ آمَرْنا: أي كثّرنا، والكثرة ههنا يصلح أن يكون شيئين، أحدهما: أن يكثر عدد المترفين، والآخر: أن تكثر جِدّتُهم و يَسارُهُم. وتقرأ أمّرنا مشدّدة: معناه، سلّطنا مترفيها، أي

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤ ، ص ٢٢٢٢ .

([2]) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ١٤٨ .

([3]) محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، ص ٤٤ .

جعلنا لهم إمرة وسلطاناً ([1]). وقال الضحاك ([2]):{أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} يقول: أكثرنا مترفيها، أي كبراءها ([3]).

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة ([4])، فهي الطبقة التي تستغل المال من أجل إشباع شهواتها، والتي تطغى على اهتماماتها الملذات والتنعُّم والانغماس في الشهوات والتطلُّع إلى الرياسة والسعي لها، وجمع الثروة وطلب أسباب العيش الهنيء، وترفض ما ينفعها في الآخرة ([5]).

وانه لو كان هناك في الواقع زعماء مصلحون: يحولون دون الفساد السياسي والاجتماعي والأخلاقي والسلوكي، ويمنعون إهدار المال العام على الملذات والشهوات من قبل الطبقة المترفة، ما أصابت المجتمعات الهلاك والدمار وخوف الفقر، ولا أطلقت العنان للإباحية الوقتية المغلفة في سلوك الجنس، ومعاداة وإرهاب الأمناء والمخلصين، قال تعالى:{فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ،وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}(هود: ١١٦-١١٧) ([6]).

وقال تعالى:{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}(القصص: ٥٨)، مخبراً عن الدول والمجتمعات (القرى) التي تخرج عن الحد في الترف والإسراف في المعايش وتغلوا في المرحِ والزّهو، وما حلّ بها، وذلك لا يكون طبعاً إلاّ على حساب الفقراء والمعدومين من أبناء الشعب. جاء في تفسير {بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} أخذها المَرَح والزّهو والكِبرُ، فاستخفّت نِعَمَ الله عليها، فكَفَرَتْها... فاستحقّت أن يُنهي الله عزّ وجلّ ظروف امتحانها، فيهلكها إهلاكاً جماعياً شاملاً ([7]).

---

([1]) الزجّاج: معاني القرآن وإعرابه، مج ٣، ص ٢٣١-٢٣٢ .

([2]) الضحاك (... – ١٠٥هـ /... – ٧٢٣م): هو الضحاك بن مزاحم، أبو القاسم، البلخي الخراساني، مفسر. كان يؤدب الأطفال. له كتاب في التفسير، توفي بخراسان. الزركلي: الأعلام، مج ٣ ، ص ٢١٥ .

([3]) الضحاك بن مزاحم، أبو القاسم، البلخي الهلالي: تفسير الضحاك، جمع ودراسة وتحقيق: محمد شكري أحمد الزاويتي، مج ١، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، دار السلام، القاهرة – مصر، ص ٥٢٥ .

([4]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٢١٧ .

([5]) عبدالكريم زيدان: السنن الإلهية، ص ١٨٥-١٨٦.

([6]) ينظر: محمد البهي:الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ط٢، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م، الناشر: مكتبة وهبة، دار غريب للطباعة، القاهرة، ص ٦١ .

([7]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٩، ص ٤٣٤-٤٣٥ .

ونرى تأثيرات الترف السلبية على الأفراد والمجتمع ككل، وما تؤدي إليه من نتائج خطيرة، منها: قسوة القلوب، وفساد الفطرة، ومن ثم رفض الهداية والإصرار على الباطل والتمادي فيه، قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ }(سبأ: ٣٤). فالترف يغلظ القلوب، ويفقدها شفافيتها وحساسيتها، وكذلك يفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية؛ فتستكبر على الهدي الإلهي وتصرّ على الباطل وتتمادى فيه، ولا تتفتح للنور ([1]).

وقال تعالى:{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا،إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا،وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا}(المزمل: ١١-١٣)، {أُولِي النَّعْمَةِ}: الطبقة المترفة، والنَّعمة: إسمُ مرَّة. ومعنى كونها اسمُ مرَّة: أنها توحي كأنّ النعمة لم تصب صاحبه إلاَّ مَرَّة واحدة، وتوحي بقِصَرِ مدَّتِها وسرعةِ زوالِها. وعليه ناسَبَ أن تأتي {النَّعْمَةِ} بالفتح، وأن يضافوا إليها- أي المكذّبون - {أُولِي النَّعْمَةِ} لتفيد معنى المرة الواحدة، كأنهم لم يتنعَّموا في حياتهم الدنيوية إلاَّ بنعمةٍ واحدة، مرةً واحدة، للحظةٍ واحدة، وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم في الأغلب أوّل المكذبين للرسل (عليهم الصلاة والسلام) لما شغلوا به أنفسهم من زخرفة الدنيا وما غلب على قلوبهم منها فهم منهمكون في الشهوات ومستهينون بمن لم يظفر منها ما ظفروا هم به ([2]).

ففي ظل الاستبداد تطفو على السطح طبقة من الأثرياء المترفين؛ فالطغمة الحاكمة هي التي تستأثر بموارد الدولة، وكذا الحاشية التي تدور حولها، وعليه فحين تحتكر فئة من الناس الثروة، أو تتمتع أسرة أو طبقة بامتيازات، تطفو على السطح طفيليات الغنى الاحتكاري، فيشيع الترف والتبذير والاسراف.

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥ ، ص ٢٩١٠ .

([2]) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: لطائف قرآنية، : ص ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤.

# الفصل الثالث

## أنماط الاستبداد وآثاره

### المبحث الأول: أنماط الاستبداد:

**المطلب الأول: الاستبداد الأسري**
**المطلب الثاني: الاستبداد الاجتماعي**
**المطلب الثالث: الاستبداد الديني**
**المطلب الرابع: الاستبداد السياسي**
**المطلب الخامس: الاستبداد الاقتصادي**

### المبحث الثاني: آثار ونتائج النظام الاستبدادي:

**المطلب الأول: آثاره ونتائجه على الفرد**
**المطلب الثاني: آثاره ونتائجه على المجتمع**
**المطلب الثالث: آثاره ونتائجه على الدولة**

# المبحث الأول

## أنماط الاستبداد

**المطلب الأول: الاستبداد الأسري**
**المطلب الثاني: الاستبداد الاجتماعي**
**المطلب الثالث: الاستبداد الديني**
**المطلب الرابع: الاستبداد السياسي**
**المطلب الخامس: الاستبداد الاقتصادي**

# المبحث الأول

## أنماط الاستبداد

إنّ الاستبداد يبدأ أولاً من النفس الإنسانية، ثم تتعداها إلى الدائرة الأولى في المجتمع ألا وهي الأسرة، فهو كالمرض المعدي ينتشر ويتغلغل في جميع مفاصل الحياة والمجتمع، إلى أن يصل إلى السلطة العليا التي تتحكم في مفاصل الدولة .

ولتسهيل معرفة هذه الأنماط أو تقسيمات الاستبداد ينبغي البحث في الصفات الجوهرية الداخلة في تعريفه، فللاستبداد صفات تقترن به، ويُضاف إليها، ويسمى تبعاً لمضافه فقد يكون أسرياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو دينياً أو... الخ، فتحكّم الولي أو الزوج أو الزوجة، وبعض الطبقات ومنها طبقة الأغنياء أو طبقة رجال الدين والكهنة، وتحكم الدولة أو الحكومة من خلال فرد أو فئة بمقدرات الشعب يوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الإضافة، مثل: الاستبداد الأسري والاستبداد السياسي والاجتماعي، وسيتم التعرّف على أنواع الاستبداد من خلال إضافته إلى الصفة، مع غلبة المعاني والمضامين التي تتميّزُ بها، وكما تم بحثه في الفصل الاول أن الاستبداد انفراد بالأمر أو بالرأي، وسيطرة غير مستندة على مبرر. فاذا أضيف إلى الأمر – أي الحكم – فهو استبداد سياسي، وإذا أضيف إلى الرأي فهو استبداد فكري، وهكذا.. وهناك شبه تداخل بين بعض الأنماط ومنها الاستبداد الاجتماعي والأسري مثلاً، ولكن لغلبة بعض معانيه أفردنا له مطلباً خاصاً، ومن خلال استقراء واقع الاستبداد وعند البحث عن كيفية نشوءه والمصادر والمنابع التي تغذّيه وتولّده، نخلص إلى نتيجة ألا وهي أنّ الاستبداد الاجتماعي أو النظام الاجتماعي العام في مجتمع ما، هو الأصل في تكوينه وتجذيره، وهذا ما سنشير إليه في مطلب الاستبداد الاجتماعي.

وفيما يأتي اشارة الى انماط الاستبداد في مطالب خمسة:

# المطلب الأول

## الاستبداد الأسري

ونقصد به انتفاء مفاهيم الحرية والمساواة والعدالة في الأسرة، وسيطرة الاستبداد عليها، وذلك بعدم إفساح المجال من قبل الولي، لمن هو مسؤول عنهم، كي يعبِّروا عن آرائهم، أو التحرك بحرية، أو إمكانية تحقيق الذات، مع فرض الآراء مسبقاً ودون مناقشة، وعدم إعطاء أية فرصة للاختيار، مع استخدام أسلوب الوعيد والتخويف والعنف معهم.

فالمستبِدّ في البيت قد يكون أباً يستغلّ نفوذه وسلطته للتحكم بكل شيء فيه، أو أمّاً تمارس التسلّط والاستبداد وقلة الصبر وضيق الأناة والصدر في بيتها مع زوجها وأولادها، أو أختاً تمارس ذلك كله على إخوتها وأخواتها، أو جدّة تمارسه على أولادها وحفدتها... ([1]).

ولهذا النوع من الاستبداد تأثير كبير وخطير على نفسية الفرد، وذلك باعتبار ((**الأسرة**)) هي المحضن الأول والبيئة الأكثر تأثيراً في صياغة شخصية الإنسان وتكوينه النفسي، وعليه فإن هذا النوع من الاستبداد له تأثيره السلبي في مسخ الشخصية وتشويهها منذ البدء، واتصافها ببعض الصفات السلبية، كالالتواء والازدواجية والاعتماد على الكبير، وتصنّع الخضوع والاستسلام وإظهار السمع والطاعة، وتسليم الإرادة للوالد أو الوصي أو... الخ، وهذه بدورها تؤدي إلى سلوكيات خاطئة مدمرة للنفس البشرية، مثل النفاق والكذب والخداع وتَحيُّن الفرص للتعويض، والتذلل، والى مراغمة الحس وإماتة النفس ونبذ الجِدّ وترك العمل.. ([2])، لأن الشخصية التي تعيش في ظل جو الاستبداد والقهر، تتلون بألوان متعددة.

فالتربية العائلية تساهم بشكل كبير في وجود الاستبداد، لأنّ الاستبداد سلوك يتعلمه الإنسان من خلال ما يكتسبه من قيم وتقاليد خلال فترات حياته، وخاصة في بدايات حياته في الأسرة، فالاسرة المستبِدّة هي المسؤولة الاولى في تشكيل وصياغة ما يعرف بالشخصية السلطوية التي تتسم بخضوعها للسلطة وبترعتها المحافظة، وهي التي تؤدي الى شلّ قدرة الفرد على التمرد، ونموّ أشخاص خائفين مستسلمين يتقبلون الاستبداد وقيمه من دون تردد، على رغم ما يتحملون

---

([1]) محمد شحرور: المجتمع والأسرة وحقوق الإنسان في التنزيل الحكيم، بحث منشور في كتاب (حقوق الإنسان في الفكر العربي، دراسات في النصوص، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية) ط١، نيسان/ابريل ٢٠٠٢، بيروت – لبنان، ص ٢٦٣ .

([2]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٠٣ . عاطف السعداوي: روافد الاستبداد في الثقافة المصرية، مقال منشور في (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٤٣٨.

من ألم ومهانة وتهميش نتيجة لهذا الاسلوب في التعامل داخل الاسرة ([1]). فالذين ولدوا وهم مغلولو الأعناق، ثم أطعموا وتربوا في ظل الاسترقاق، يقنعون بالعيش مثلما ولدوا ([2]).

فعندما يكون الجو العائلي مشحوناً بالتسلّط والقهر والأحادية، فان هذا ينعكس على الأولاد وذلك بتشكّل وتكوين سلوك عام تظهر كوامِنُهُ وآثاره على اتجاهين، الأول: يكون الاستبداد السلوك الأولي الذي ينتهجه الفرد في تعامله مع الغير، والثاني: اتجاه القابلية إذ يكون الفرد جاهزاً لقبول الاستبداد بكل أنواعه والتعاون معه.

والبيئة التربوية والثقافية لها تأثير كبير في صياغة شخصية الإنسان، وتُعدُّ من العناصر الأساسية في تجذير الاستبداد في العقل الاجتماعي العام ([3])، وتحويله إلى حالة طبيعية غير منفور منها، يعطل التفكير والإبداع وتحل التبعية ويفقد الفرد البصيرة والرؤية النافذة والقدرة على التغيير والتطور، وتصبح الحرية غير ذي معنى وغير مفهومة في هذه البيئة، لأن من طبيعته أن يتطبع بما نشأ عليه. فإنّ ما درج الانسان عليه وتعوّده يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي.. ومنه كانت العادة أول أسباب العبودية المختارة، فالانسان الذي ينصاع طواعية للاستعباد، هو كونه يولد رقيقاً – طبعاً لا يولد الانسان رِقّاً بالجينات ولكن المناخ الذي يولد فيه يجعله وكأنه هكذا، فالرقّ ثقافة مكتسبة – وينشأ كذلك. والانسان يسهل تحوّله تحت وطأة الاستبداد إلى جبان مخنث. فالبيئة والتربية لها التأثير الواضح في تكوين هذه الشخصية وتقبلها لما هو منفّر وغير مقبول نتيجة الألفة والتعوّد.. يقول الله تعالى:**{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ}**(البقرة: ١٧٠) ([4]).

فمن الواجب العمل والسعي بكل جدّ للتخلص من هذا النمط في الأسرة، وذلك بتربية وتثقيف المجتمع ككل والوالدين بشكل خاص على المفاهيم الشورية وعدم الاستئثار والانفراد بالرأي، ففي مجتمع الأسرة نرى أنّ الإسلام يعتمد على الشورى فلسفة للتراضي المؤسسة عليه المودة والنظام والانتظام ([5])، وهذا لا يكون مع سيطرة العقلية الاستبدادية في الأسرة.

---

([1]) ينظر: عاطف السعداوي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٤٣٨ .

([2]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٦٥-٦٦ .
محمد هلال الخليفي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٠٠ .

([3]) واقصد بـ ((العقل الاجتماعي العام)) المنظومة الفكرية العامة للمجتمع ككل والتي تحدد نمط التفكير العام وعقلية المجتمع في نظرته إلى الوقائع والأحداث، وكيفية معالجتها بالطرق والأساليب التي تتواءم مع المنظومة التي يحملها المجتمع.

([4]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٦٩-٧٠ و ٧٢ .

([5]) ينظر: محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص ١١٩ .

وقد ورد في القرآن الكريم نموذج من الاستبداد الأسري متمثلاً بوالد إبراهيم (عليه السلام)، إذ نرى التهديد والوعيد والاستنكار من والد إبراهيم (عليه السلام)، في حوار هادئ يبتدؤه إبراهيم (عليه السلام) بأسلوبه اللطيف وبأحبِّ الألفاظ وأرقِّها، وسجّل الله ((سبحانه وتعالى)) هذا الحوار اللطيف في قوله تعالى:**{إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا}**(مريم: ٤٢)، **{يَا أَبَتِ}**، يكرِّرها أكثر من مرة، وبهذا الخطاب اللطيف، يتحبب بها إلى والده، ولكن والده يقابله بـ**{لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}**، وفيه إنذار من الوالد القاسي القلب بالموت الفظيع، بهذه الجهالة والصلافة تلقى الرجل [أي والد إبراهيم] الدعوة إلى الهدى، وبهذه القسوة قابل القولَ المؤدَّب المهذَّب، فلا مجال لرأي يُطرح، ولا حرية لمعتقد آخر، مع ذلك لم يغضبْ إبراهيم الحليم، و لم يفقد برَّه وعطفه وأدبه مع أبيه ([1])، وجاء في تفسير قوله تعالى:**{لأَرْجُمَنَّكَ}** أي: بالحجارة أو بالقول: أي لأشتمنك، وذلك السبّ والقول القبيح، وقيل: لأظهرنّ أمرك، وكان الرد الجميل المتضمن كل معاني الود والحب والشفقة، وسجّله ((سبحانه وتعالى)) بقوله:**{قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}**(مريم: ٤٧)، فلم يعارضه إبراهيم (عليه السلام) بسوء الرد ([2])، فكان هذا منتهى الأدب مع الاستبداد بالرأي.

ومن هذا نستنتج بأنّ الأسلوب الأمثل في معالجة الاستبداد وخاصة الأسري وبين أفراد العائلة الواحدة ينبغي أن يتخذ منحاً إصلاحياً سلمياً وبالتدريج، ذلك أن الإصلاح يبدأ بالإنسان، فيكون الإنسان، الذي يغير الواقع تغييراً جذرياً شاملاً، بعد حدوث هذا التغيير في نفسه على نحو من الجذرية والشمول ([3]).

---

([2]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤ ، ص ٢٣١١-٣١٢ .

([3]) الطبري: جامع البيان، مج ٩، ج ١٦، ص ١١٤ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١١، ص ٨٥ .

([4]) محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص ١٣٤ .

# المطلب الثاني
## الاستبداد الاجتماعي

الاستبداد الاجتماعي بعيد عن التحديد وغامض، وذلك لأن للاستبداد أشكالاً كثيرة وامتدادات واسعة، تبعاً لمن يصدر عنه الاستبداد أولاً، وتبعاً لمن يقع عليه ثانياً، ثمّ تبعاً للوسائل المستخدمة في ممارسته ثالثاً. فإذا كان من يقع عليه الاستبداد فرداً أو جماعة أو طبقة أو كلهم مجتمعين، جاز تسمية ذلك استبداداً اجتماعياً، لأن الاستبداد إذا كان يحكم العلاقة بين اثنين فأكثر يكون اجتماعياً، مهما اختلفت مصادره ووسائله، فهو يشمل كل أشكال الاستبداد، مجتمعة أو متفرقة ([1]).

ونقصد بالاستبداد الاجتماعي هنا، أن تستبِدّ طبقة ما بمقاليد الأمور أو النفوذ، وتستبعد الآخرين ولا تسمح لهم بالتعبير عن رأيهم أو بالمشاركة في إبداء الرأي، وتفرض عليهم تصوراتها ومعتقداتها بالقوة. هذا باعتبار الجهة الصادر عنها فعل الاستبداد.

وأما الاستبداد الاجتماعي باعتبار الوسيلة المستخدمة في إيقاعها بالآخرين، فنقصد به الأعراف والعادات والتقاليد والموروث والنظام الاجتماعي العام الذي يستخدم كسيف مسلّط على رقاب أفراد المجتمع ([2])، وما يتبعه من تصرفات وسلوكيات ونظرات للحياة، تتضمن كل مفاهيم ومعاني التسلّط والاستبداد. وبما تقوم به هذه المفاهيم من حِجْرٍ على العقول والأفهام، وإماتةٍ للفكر والأذهان، وغرس لمعتقدات وأفكار وآراء سلبية في المجتمع.

فالواقع الاجتماعي والبيئة هما الأساس لغرس بذور الاستبداد، بما تحمله من عوامل وأسباب ودوافع، تهيئ الجو المناسب لإنبات شجرته في المجتمع.

وهناك عامل جوهري في ظهور الأنظمة الدكتاتورية: ألا وهو تطور مختلف أشكال ونماذج البنيان أو التركيب الاقتصادي – الاجتماعي للعالم الذي نحياه، فالحكم الدكتاتوري ينشأ نتيجة تفاعل عوامل اجتماعية تضرب بجذورها في نسيج البناء الاجتماعي. وإنّ أنظمة الحكم المستبِدّة تولد وتتشكّل خلال مرحلة اضطراب وعدم توازن البنيان والتركيبة الاقتصادية الاجتماعية للمجتمعات ([3])، هذا من ناحية الأحداث والوقائع والعوامل الذاتية والموضوعية التي تتحكم في سير حركة المجتمع، أما الجانب الفكري والعَقَدي والأعراف والتقاليد المسيطرة على

---

([1]) ينظر: محمد جمال طحّان: الاستبداد وبدائله، ط١، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م، دار النهج، حلب، ص٥٦ .

([2]) ينظر: محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٢٣٧ .

([3]) ينظر: محمد هلال الخليفي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٠١.

المجتمع، التي لها تأثير كبير في تكوين النمط الاستبدادي على كافة المستويات، نرى بأنّ لها الدور الأساس في إيجاد الإنسان المستبِد، والقابلية والاستعداد للاستبداد في المستبَدّ بهم.

وبرز القرآن الكريم هذا الاستبداد في طبقة عن طريق فرض آرائها وتصوراتها، واستخدام العنف والقسوة في التصدي لها بدلاً من مقارعة الحجة بالحجة، قال تعالى واصفاً الطبقة الاجتماعية والمتكونة من تسعة رهط من قوم صالح (عليه السلام):{**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ، قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**}(النمل: ٤٨-٤٩)، وهؤلاء هم الذين تمحضت أنفسهم للفساد والإفساد، و لم يعد بها متّسع للصلاح والإصلاح، فضاقت نفوسهم بدعوة النبي صالح (عليه السلام)، فبيّتوا فيما بينهم أمر القتل ([1])، بعدما عجزوا عن مقارعة حجته وآيته، مستخدمين نفوذهم الاجتماعي وسيطرتهم المادية في المدينة، والموروثات العقائدية الباطلة، للوقوف أمام صالح (عليه السلام) والذين آمنوا معه، وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود، لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم ([2]).

وفي عصرنا نرى الاستبداد الذي تقوم به طبقة الحزبيين من النفعيين والانتهازيين التي تمارس أبشع ألوان الاستبداد، حيث تسخّر كل مقدرات الدولة والمجتمع لأجل هذه الطبقة، وتجبى إليها الأموال والثروات، وحيث الوجاهة والرفاهية، فالشعب كله مسخّر لخدمة الحزب أو الطبقة الحزبية.

ويمكن أن يكون هناك سلوك منحرف لدى مجموعة من الناس يدفعهم إلى الاستبداد بالرأي، واستعمال العنف والقسوة في التعامل مع الآخرين، والقيام بطردهم من أرضهم ونفيهم من أوطانهم، وقد ذكر الله هذه الحالة، في قصة لوط (عليه السلام) في القرآن الكريم، قال تعالى:{**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**}(النمل: ٥٤-٥٦)، هؤلاء القوم استندوا إلى فكرهم ونظرهم المنحرفة والشاذة إلى الحياة، فعيّروا الذين آمنوا بأنهم {**أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**}، لمخالفتهم لهم في سلوكهم المنحرف والشاذ، وقولهم هذا قد يكون تهكماً بالتطهر من هذا الرجس القذر، وقد يكون إنكاراً عليه أن يسمى هذا تطهّر أو يقولون ذلك استهزاءً منهم، فإنهم يعيبون عليهم بأنهم يتطهرون من أعمال السوء. فهم من انحراف

---

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥ ص ٢٦٤٥ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص ١٥٣ .

([2]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٦٦ .

الفطرة بحيث لا يستشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة، وقد يكون ضيقاً بالطُهْرِ والتطهُّر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ !! ([1]).

## المطلب الثالث

## الاستبداد (الديني)

هناك قضية جديرة بالذكر، في هذا المطلب، وهي أنّ المستبِدّين الطغاة هم أكبر أعداء «**الدين الحق**» و «**التدين الصحيح**» و «**المتدينين الحقيقيين**»، ذلك أنّ «**الدين**» يعادي هؤلاء، ويمنع من موالاتهم، ويشجع الناس على تحدِّيهم والوقوف في وجوههم، والقرآن الكريم مشحون بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتساوي حتى في القَصَصِ منه، ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبأ تخاطب أشراف قومها: **:{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ، قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ، قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}**(النمل: ٣٢-٣٤). فهذه القصة تعلم كيف ينبغي أن يستشير الملوكُ الملأَ – أصحاب الرأي والشأن والتخصص في البلاد –، وأن لا يقطعوا أمراً إلا برأيهم، وتشير إلى لزوم أن تحفظ القوة والبأس في يد الجماهير، وأن يخصص الملوك –السلطة التنفيذية – بالتطبيق والتنفيذ فقط، وأن يكرموا بنسبة الأمر إليهم توقيراً، وتقبّح شأن الملوك المستبدين. ومن هذا الباب أيضاً ما ورد في قصة موسى (ﷺ) مع فرعون وغيرها كثير ([2])... وقال (ﷺ): ((سيدُ الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قامَ إلى إمام جائرٍ فأمَرَهُ ونَهاه فقَتله)) ([3])، فمن وقف في وجه الاستبداد والظلم والانحراف، ودفع حياته ثمناً للدفاع عن قيم الحق والحرية والعدل، وثمناً لشجاعته ووقوفه أمام المستبِدّ مبيناً وناصحاً، فهو ليس مجرد شهيد، بل سيد الشهداء ([4]) في ميزان الدين الحق.

فالاستبداد المنسوب زوراً وبهتاناً إلى «الدين»، لا يمت بأية صلة بالدين الحق الحقيقي، لأنه يعبّر عن قِيَم الحق والحرية والعدل، وهي قِيَم تتناقض ومفهوم الاستبداد. ولكن لتأثير البعد الديني في حياة الناس عموماً، استغلّت فئات كثيرة، ومنهم المستبِدّون الطغاة «الدين» كوسيلة

---

([3]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥ ، ص ٢٦٤٨ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص ١٥٦ .

([1]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٢٧-٢٨ .

([2]) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ١٩٥/٣، (وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه) . الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٢٦٦/٧ ، ٢٧٢/٧ .

([3]) نعمان عبد الرزاق السامرائي: دراسة في المعرفة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، أنوار دجلة، بغداد، ص ١٦٢ .

لتمرير مشروعهم التسلّطي التعسّفي القائم على الإكراه والعنف، وكوسيلة لتبرير تصرفاتهم وأفعالهم الشريرة، وتحت مظلة معتقدات ومفاهيم مغلوطة (التدين الشعبي)، يقوم بتأويلها، وتحريفها عن مسارها الصحيح، طبقة من يسمون بـ«رجال الدين». ولا يوجد في الدين الحق طبقة «رجال الدين» الذين يحتكرون الحقيقة وتفسير الدين وفق آرائهم وأهوائهم.

**المقصود من الاستبداد الديني:**

هو اتخاذ واستغلال الدين وسيلة للاستبداد بالناس، وذلك عندما يقع مصير «الدين» في أيدي قوات الاستبداد المضادّة للإنسانية، وتتسمى بأسماء عديدة، منها: الطبقة الروحانية أو طبقة ما يسمى بـ«رجال الدين»، وقيام هذه الطبقة -الناطقة باسم الدين- باستغلال الدين من أجل الحفاظ على امتيازاتها ووضعها الاجتماعي، ودعم السلطة الحاكمة، بإضفاء الصفة الشرعية عليها، ونشر المعتقدات الفاسدة والمفاهيم السلبية في مقارعة الظلم والطغيان، عن طريق التأويلات والتفسيرات الباطلة ([1]).

فالدين الذي يدعون إليه، ويمثلونه حقيقةً، هو ليس بالدين الحقيقي، بل دينٌ مُضلِّل منحرِف يمهِّد للاستبداد، ويقتل روح المقاومة ضده، وهو الدين «المزوَّر» الذي يستخدم ضد الدين الحقيقي، فالدين «المزوّر» هو الدين الأداة بيد الحاكم، شريك القوة والمال، أي دين الهامانات الذين يستغلون الدين من أجل ديمومة عمر الاستبداد، الدين الذي يتولاه طبقة من الرسميين الذين لديهم بطاقات للدين، لديهم إجازات للاكتساب وفيها علامات خاصة تنبأ عن احتفاظهم بالدين، وأنهم من الدعاة إليه ([2])، ولكنَّهم من شركاء أصحاب القوة والمال، السلطة السياسية والاقتصادية، إنهم يمثلون الضلع الثالث في المثلث الجائر، ويعبِّر عن هذا الثالوث المشؤوم بـ (فرعون، قارون، بلعم بن باعورا)، وبتعبير آخر (المَلِك، والمالِك، والملأ)، وأخرى بـ (السوط، والذهب، والمسبحة)، وغيرها من التعابير الدالة على هذا الثالوث الخطير ([3])، ويعبِّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى:**{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}**(غافر: ٢٣-٢٤)، وقوله تعالى:**{وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ }**(العنكبوت: ٣٩)، ففرعون يمثل السوط، وقارون يمثل الذهب، وهامان يمثل المسبحة.

---

([1]) ينظر: علي شريعتي: النباهةُ والاستِحْمار، ص ١٠٩.

([2]) ينظر: محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٢٤٥ .

([3]) ينظر: علي شريعتي: النباهةُ و الاستِحْمار، ص ١١٠ .

والنموذج للاستبداد الديني في القرآن الكريم يتمثل في «هامان» الوزير الأول لفرعون، وهو رئيس الكهنة، والحافظ لدين الآلهة، الرقيب على تنفيذها وانتشارها بين الناس، والتزامهم بها، وهو الحامي لحمى الدين، وإنه المعني به مباشرة، لذا كان من الطبيعي أن يطلب فرعون منه أن يعرِّفه بإله موسى (عليه السلام) ويأمره بأن يبني له الصرح:{**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ**}(القصص: ٣٨)، وعلاقة «هامان» بفرعون هي إعطاء الشرعية لسلطته المستبِدّة، وتبرير كل تصرفاتها، التي ترضى عنها الآلهة، وعدم قبول أية إصلاحات في المجتمع، والوقوف ضد الدعوات التغييرية، وتدجين الناس وتهيئتهم لقبول كل شيء، فدور «هامان» – وهو صلة الوصل بين فرعون وقارون من جهة، وبين الجماهير المستضعفة من جهة أخرى – دعوتهم إلى الرضا بأوضاعهم، وإيجاد المصالحة الدائمة بينهم وبين السلطة الحاكمة ([1]).

في الحضارات المبكرة ومنذ عهد الطوطميات الدينية الأولى، لجأ الرؤساء الحكام إلى الدين لتبرير الاستغلال والاضطهاد، في وقت لم يَكُفَّ فيه وكلاء الطواطم – من الكهنة ورجال الدين – من التنافس على الزعامة والعمل على تحسين مواقع نفوذهم الاجتماعي والسياسي باستخدام المعتقد الديني نفسه.

وكانت نظرية الحق الإلهي، هي الوسيلة التي استخدمها بعض المستبدّين لتبرير هيمنتهم وسلطاتهم المطلقة، وليبرروا ظلمهم للعباد ووجوب الطاعة لهم، من أجل استلاب الأموال والانفراد بالسلطة ([2]).

والأمر الأخطر من التبرير العقائدي والشرعي للاستبداد بدعوى الحق الإلهي، هو سيطرة مفاهيم الجبرية ([3]) على حياة الناس كنظام ثقافي واجتماعي، يحكم على سلوكهم ويقودهم نحو الرضا المطلق بالعبودية والتبعية والظلم.

---

([1]) ينظر: محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٢٥٣-٢٦٣ .

([2]) ينظر: نبيل هلال هلال: الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين، ص ٧٦ .

([3]) الجبرية: هي إحدى الفرق الكلامية المنحرفة التي تقول بالجبر، بمعنى أنّ العباد مجبورون على أعمالهم، وأن الله تعالى يخلق أفعالهم على الحقيقة، ولا دور لهم فيها. وأول من اظهرها (الجهم بن صفوان) في أوائل المائة الثانية للهجرة، والذي قال بالاجبار والاضطرار إلى الأعمال، وانكر الاستطاعات كلها. وقال: لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز. ينظر: عبد القهار بن طاهر بن محمد، البغدادي: الفَرق بين الفِرق، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (د. ت ، د. ط)، ص ١٥٨ . علي بن احمد، أبو محمد، المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري: الفِصل في الملل والهواء والنحل، ط٢، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، المج الثاني، ص ٥٤ .

ومنذ القدم تمحورت المجادلات الدينية حول مدى المشيئة الإلهية في تقرير أحوال الناس، انحاز معها الحكام المستبدّون خلافاً للمفهوم الصحيح للدين حول هذا الموضوع، إلى أفكار الجبر كأحد مظاهر الاستبداد العقائدي، وعملوا على تعزيز الإيمان بأن الأحداث الدنيوية يسيطر عليها القضاء والقدر، وهي بمشيئة الله التي لا يسع للبشر تقييدها أو تعديلها.

وبهذا القدر يجري التعامل بترويج مفاهيم الجبر والتواكل والتشفع كعقيدة يهرب معها المستسلم لها من التصدي للظلم والاستبداد إلى نوع من الترجي المهزوم والاصطبار الغيبي اللانهائي، انتظاراً لفرج قد لا يكون البتة دنيوياً، وهذا ما يكون في صالح المستبدّين وديمومة سلطتهم، وهو سلاحهم لتخدير معاني المقاومة والمناهضة والرفض التي يأمر بها الدين الحق في الشعوب ([1])، قال تعالى:{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}(الشورى: ٣٩).

لذلك حاول المستبدون أن يوجدوا منطقاً هزيلاً يغرر بالجهلاء وأنصاف المتعلمين عبر نفي حرية الإرادة والاختيار عقائدياً، وان الإنسان مسيَّر وغير مخيَّر، وأن الخالق هو الذي يجبر الناس على الفعل خيراً كان أم شراً، وذلك لتبرير شيئين، **الأول:** أنّ الناس مجبورون على الخضوع للمستبِدّ. **والثاني:** أنّ الحاكم غير مسؤول عن أعماله الجائرة واستبداده المطلق وإسرافه في الدماء والأعراض لأنه مجبور على أعماله وغير مسؤول عنها.

وقد حاولت الحكومات المستبدة على طول التاريخ نشر هذا المفهوم عبر وعاظها لفرض سيطرتها المطلقة وسلب الحريات، وعملوا لإيجاد مذاهب تدعو إلى هذا الأمر، فأسسوا الجبرية والمرجئة ([2])، فترى في باب الإيمان جرثومة الإرجاء وهي تنخر في جسد هذه الأمة، وتوطئ للطواغيت مهاداً، وتستأنس لهم القاعدة العريضة من الأمة، وتخذل عنهم كل بادرة للمقاومة

---

مانع بن حماد الجهني (إشراف وتخطيط ومراجعة): الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط٥، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، المجلد الثاني، ص ١٠٣٥-١٠٣٦ .

([1]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ٦٨ .

([2]) المرجئة: وهم الذين قالوا بالارجاء في الإيمان، وهي إحدى الفرق الكلامية التي تنسب إلى الاسلام ذات المفاهيم والآراء العقدية الخاطئة في مفهوم الإيمان، والتي لم يعد لها كيان واحد إذ انتشرت مقالتهم في كثير من الفرق، فمنهم من يقول: أن الإيمان قول باللسان وتصديق بالقلب فقط. وبعضهم يقصره على قول اللسان، والبعض الآخر يكتفي في تعريفه بأنه التصديق، وغالى آخرون منهم فقالوا إنه المعرفة. فالإيمان عندهم عقد بالقلب فقط. وسموا بالمرجئة لأنهم أخروا العمل عن الإيمان، والإرجاء بمعنى التأخير. ينظر: عبد القهار بن طاهر بن محمد، البغدادي: الفَرق بين الفِرق، ص ١٨ و ص ١٥١ . علي بن احمد، أبو محمد، المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري: الفِصل في الملل والهواء والنحل، المج الأول، ص ٣٦٨-٣٦٩ . مانع بن حماد الجهني (إشراف وتخطيط ومراجعة): الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المجلد الثاني، ص ١١٤٣-١١٤٤ .

والتصدي للظلم والظالمين بدعوى أن الإيمان والكفر من الغيوب المحجوبة في أعماق القلوب لا سبيل للإطلاع عليها ولا الحكم بها ولا يجوز الخروج على أئمة المسلمين !!.

وفي باب القدر ترى جبرية بغيضة تعتذر بالقضاء والقدر عن عجزها وتخاذلها واستسلامها واستنامتها لكل متكبِّر جبّار، وكأنّ الله فرض علينا هذا الواقع وأنّ هذا الأمر مقدور ولا مناص منه، فصاروا امتداداً لمن قال الله فيهم: **{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ}**(النحل: ٣٥) ([1]).

والهدف من هذه النظرية هو تبرير مظالم المستبِدّين وعدم تحميلهم أوزارها، وتيئيس الجماهير من مقاومة الظلم والجور، وإنكار وجود نظام متوازن قائم على العدل والحرية والشورى.

وهكذا يقوم الدين المزوَّر بالدور الأكبر في تشويه الدين الحقيقي، كون الدين الحقيقي يحول بين الناس وبين الاستعباد، ويدفع بالإنسان في صيرورة باتجاه تحقيق ماهيته المرسومة له في غاية الوجود، والدين المزوَّر يقوم بتحويل الدين الحقيقي من أيديولوجيا دافعة محرِّكَة نابضة إلى أيديولوجيا راكدة ميتة رجعية ([2]).

فعندما تتولد في الناس مفاهيم الجبرية وأنّ الإنسان ليس في يده أي قدرة لتغيير الواقع أو الإسهام في ذلك وأن كل ذلك بيد الله وحده، – وفي هذا الباب هناك خلط بين موضوعين في عقيدة القضاء والقدر، وهما موضوع يخص الخلق الإلهي، وموضوع يتعلق بالفعل البشري – ([3])، تساق الرعايا للموت كقطعان الماشية، وقد مسخت إلى عبيد لا روح فيها ولا إرادة لها.

لذا نصل إلى نتيجة أنّ الاستبداد الذي تقوم به السلطات المستبِدّة وبتنفيذ من قبل طبقة ما يسمى بـ «**رجال الدين**»، استغلّ الدين الحقيقي أبلغ استغلال، تارة بالتهميش والعزل، وذلك بتحويل الدين إلى مجرد شعارات فارغة جوفاء، وحصره على إقامة الموالد والحفلات (الدين الشعبي)، واستصدار فتاوى الدعم والتأييد للسلطات الغاشمة، وتارة بالاستغلال والتشويه؛ وذلك بتوظيفه لتبرير سياساتهم الباطلة، واستغلاله كوسيلة لتكميم الأفواه وإلغاء العقول.

---

([1]) ينظر: صلاح الصاوي: منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق، ١٩٩٨، دار نهضة مصر، ص ٦ ، (د. ط).

([2]) ينظر: علي شريعتي: النباهةُ والاستِحْمار، ص ٥١–٥٢ .

([3]) يراجع: محسن عبد الحميد: العقائد الإسلامية في ضوء العلم والعقل والوحي، ط١، ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م، ص ٥١–٥٧ ، (د. ت ، د. ط).

# المطلب الرابع
## الاستبداد السياسي

نقصد **بالاستبداد السياسي** هنا: انفراد فرد أو مجموعة (حزب – طائفة – طبقة) بسلطة الحكم، وما يتبعه من تحكم وسيطرة على كل المؤسسات، واستغلال واحتكار كل إمكانيات الدولة. فالمراد بالاستبداد عند إطلاقه **استبداد الحكومات** خاصةً – وهو الاستبداد السياسي – ([1]).

فعندما يوصف الاستبداد بـ«**السياسي**» يعني: الانفراد بإدارة شؤون الدولة من قبل فرد أو مجموعة أفراد من دون بقية الشعب. و " الاستبداد السياسي يفترض ابتداءً وجود علاقة بين طرفين متساويين في الحقوق والواجبات العامة، ينفرد أحدهما بالحقوق المشتركة (أي إدارة شؤون المجتمع السياسي) من دون الآخر. فهو فعل يقوم على الاستحواذ والاستيلاء والسيطرة على «شيء» هو حق مشترك مع الغير. فالمستبدّ يستولي على «الشيء» من دون وجه حق. فالسمة الجوهرية في الاستبداد هي: «الانفراد دون وجه حق» " ([2])..

فالاستبداد السياسي هو عبارة عن استبعاد الشعب من أن يكون مشاركاً في الحكم، وعدم الاعتراف به مشاركاً في الحق العام، فهو – أي الاستبداد السياسي– اعتداء واغتصاب وطغيان واحتكار لحق مشترك مع آخرين ([3]).

وهذا الاستبداد بعد أن يتحكم ويسيطر يصبح أشمل وأعمق، لما له من نفوذ وقوة وتسلّط، وهو المالك لأدوات ووسائل الإكراه في المجتمع ([4])، فهو مستبِدٌّ **في كل فروع الحياة ومفاصل الدولة** من المستبِدّ الأعظم إلى الشرطي، إلى الفراش، إلى كنّاس الشوارع، ولا يكون كل صنف إلاّ من أسفل أهل طبقته أخلاقاً، لأن الأسافل لا يهمهم طبعاً الكرامة وحسن السمعة، إنما غاية مسعاهم أن يبرهنوا لمخدومهم بأنهم على شاكلته، و أنصار دولته ([5]).

والقرآن الكريم قد أسهب في الحديث عن الاستبداد السياسي([6])

---

([1]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٣.

([2]) محمد هلال الخليفي: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٢٨٤ .

([3]) ينظر:المصدر نفسه، ص ٢٨٥ .

([4]) ينظر: محمد جمال طحّان: الاستبداد وبدائله، ص٥٨ .

([5]) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٥٧ .

([6]) ينظر: هذا البحث، الصفحات (١٦-٢٢) .

# المطلب الخامس
## الاستبداد الاقتصادي

الاستبداد الاقتصادي يتمثل في الاستغلال والاحتكار والسيطرة الكاملة للنظام الاستبدادي على كافة مرافق الدولة، واستئثار فئة بخيرات البلاد والتحكم بأقوات الشعب، والعمل على إفقاره، وتطبيق سياسة «**جوِّع كلبك يتبعك**» المبدأ الاستعماري الاستبدادي الذي تطبقه الأنظمة الاستبدادية في كل زمان ومكان.

ولأهمية وخطورة **الطغيان والاستبداد الاقتصادي والمالي** نزلت آيات في بدايات الوحي الأولى تندِّد به وتنبِّه الى خطورته وتأثيراته السلبية في حياة الانسان، منها، قوله تعالى:**{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا}**(المدثر: ١١-١٢)، وقوله تعالى:**{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا}**(المزمل: ١١)، وقوله تعالى:**{وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}**(الهمزة: ١-٣)، فهذه الآيات تدل على أن المال - طغيان المال - في الكثير من الأحيان يؤدي إلى التكذيب والظلم والاعتداء، وقد يكون خادماً أو وزيراً للاستبداد السياسي وهو يمهِّد له، ويوطِّن الصدور بكل قوة ([1]).

وظاهرة الاستبداد الاقتصادي والمالي في القرآن الكريم تتمثل في قصة قارون، الذي وصفه الله سبحانه بقوله:**{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}**(القصص: ٧٦) ([2])، وهذه الظاهرة تتصف بالبغي والعدوان، والبطر والغرور، والاحتكار والاكتناز والربا، والوقوف في صف الطغيان والاستبداد ضد كل الدعوات الإصلاحية، هذه الظاهرة التي تستغل قربها من رأس الهرم في النظام الاستبدادي، للسيطرة أكثر فأكثر على جميع الموارد واحتكارها، ولا تألو جهداً في تسخير إمكانياتها لدعم وتقوية النظام الاستبدادي والدفاع عنه، باعتباره الحامي لها، والذي يهيؤ الجو والمناخ لانتفاخها وتوسعها.

لذا ترى قارون «رمز الاستبداد المالي والاقتصادي» يسخّر ماله للإيقاع بموسى (عليه السلام) من خلال شراء الذمم، كما ورد في «قصة البغي» التي دفعها قارون لتشويه سمعة النبي (عليه السلام) ([3]).

---

([1]) ينظر: عمر عبيد حسنة: كيف نتعامل مع القرآن الكريم ؟ في مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي، ص **٢٢٧** و **٢٣٥** .

([2]) محمد شحرور: الدولة والمجتمع/دراسات اسلامية معاصرة، ص **٢٥٧** .

([3]) ينظر: نص القصة: ص ٦٧.

فقارون الذي يعدُّ رمزاً للاستغلال والاحتكار، يضربه القرآن الكريم مثالاً وأنموذجاً للاستبداد والفساد المالي والاقتصادي، لأنه استغل كنوزه للبغي والإفساد، وكان يستعرض ما آتاه الله من المال؛ لكي يفسد على الناس معتقداتهم، ويجرهم إلى صف الطاغية فرعون، ويحبّب إليهم ما هو فيه من التنعّم والبطر والغرور، وما هو عليه مع فرعون من العقائد الوثنية القائمة على تأليه البشر ([1]).

قال تعالى:{**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**}(القصص: ٧٩). هنا يذكر الله اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم، وعقب على ذلك، بأنه سبحانه خسف به وبداره الأرض، قال تعالى:{**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ**} (القصص: ٨١) ([2]).

وفي القرآن الكريم أنّ الله ((سبحانه وتعالى)) أرسل رسولاً إلى قوم، يمثلون الأنموذج الأسوء في الاستغلال والاستبداد الاقتصادي، وهم أصحاب مدين قوم شعيب (عليه السلام)، قال تعالى:{**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ..**}(الأعراف: ٨٥-٨٦)، وعَظَهم رسول الله بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم أي لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، وكانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعتهم. ووعَظَهم رسول الله أيضاً بأن لا يتوعدوا الناس بالقتل والعذاب إن لم يعطوهم أموالهم ([3]).

وفي ظل الأنظمة الاستبدادية يعتقد الحكام الطغاة أنّ البلاد والعباد ما هما إلاّ ملك شخصي لرأس السلطة الحاكمة، يتصرفون فيها وفيهم كيفما يشاؤون، وهنا يبرز الاستبداد النابع من هذا الاعتقاد الفاسد، والذي صرّح عنه رمز التسلط والاستبداد فرعون الطاغية، وسجّله سبحانه بقوله تعالى:{**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الانْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ**}(الزخرف: ٥١).

وعلى هذا الأساس تتصرف الطغمة القليلة الحاكمة ومن ينضم إليها، بخيرات وثروات البلد فهم المتمتعون والمتنعمون بجميع الخيرات، ويتمتعون بامتيازات غير معقولة، تجعلهم يملكون ما يشاؤون حيث يُتاح لهم من الفرص والإمكانات ما لا يتاح للآخرين، وغيرهم من عامة

---

([1]) ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر، مج ٩، ص ٤٦٢-٤٨٠ .

([2]) ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ١٠٠-١٠١ .

([3]) ينظر: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٢ . والنسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٢، ص ٦٣-٦٤ .

الشعب محرومون من كل خير، مظلومون في كل شيء، حتى ما كسبوه بأيديهم، تؤخذ منهم بأساليب ووسائل، وحتى القوانين والأنظمة التي تضعها السلطات تكون في معظمها لسلب كل شيء من الجماهير المغلوبة على أمرها ويتابع تنفيذها عليهم المنتفعون من سلطة المستبِدّين ([1]).

ومن أخون الخيانة تجارة الوالي في رعيته، وهي أن يتاجر بما تعم حاجتهم إليه من الأقوات وغيرها، ويحتمل الإطلاق ([2])، ومن هذا نعلم خطر أن يقوم الحاكم وكذا حاشيته في ممارسة الأمور الاقتصادية والاتجار بأقوات الشعب، بشكل يجعلهم فوق قانون البلد، فتلك الخصوصيات التي تعطى للمسؤولين وكذا أقاربهم، وحواشيهم، ما تسبب ثراءهم السريع، ذلك أنهم لا يخضعون غالباً لأنظمة الضرائب العامة، وكذا تفتح أمامهم أبواب تغلق دون سواهم، ويكرمهم أصحاب المصالح المرجوة منهم... وهكذا يصبح الشعب مستذلاً لهم ([3]).

وقد تفطن لمثل هذا الأمر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما كان رئيساً للدولة، فقام بمصادرة أموال العمال (الولاة)، فأخذ شطر أموالهم لما اكتسبوها بجاه العمل، واختلط ما يختصون به بذلك، فجعل أموالهم بينهم وبين المسلمين شطرين ([4])، وردّها إلى بيت المال، وذلك إذا رأى أنّ ما اكتسبوه كان بسبب ولايتهم، ومحاباة وإكرام الناس لهم بسبب سلطانهم وجاههم ([5]).

وعن التدخل في الأمور الاقتصادية والتسلّط على أموال الناس من قبل السلطات، وما يتبعها من نتائج سلبية من إفساد العمران والدولة، عدم سعي الناس للاكتساب، مما يؤدي إلى خراب العمران، جاء في مقدمة ابن خلدون: وعلى قدر الاعتداء [من قبل السلطات] ونسبتِهِ [على أموال الناس ومصالحهم] يكون انقباض الرَّعايا عن السّعي في الاكتساب... والعُمْرانُ ووُفُورُهُ وَنَفاقُ أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين... ومن أشد الظُّلامات وأعظمها في إفساد العُمران تكليف الأعمال وتسخير الرَّعايا بغير حقٍّ [من قبل السلطات وأجهزتها]... وأعظم من ذلك- أي تكليف الأعمال وتسخير الرّعايا بغير حقٍّ-

---

([1]) ينظر: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مج ٨، ص ٥٩ .

([2]) زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي، القاهري: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط٢، ١٣٩١هـ-١٩٧٢م، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ج ٦، ص ٨ .

([3]) محمد زكريا الندّاف: الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية في القرآن والسنة، ص ٢٧٣ .

([4]) ينظر: ابن قيم الجوزيّة: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية أو الفراسة المرضية في أحكام السياسة الشرعية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د. ط ، د. ت)، ص ١٦ .

([5]) ينظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة القدس، بغداد ص ٤٨ .

في الظلم وإفساد العُمرانِ والدَّولة، التسلُّط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثمّ فرضِ البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع ([1]).

ولذا نرى القرآن الكريم " حرّم الاحتكار، وحظر الربا، وهما الوسيلتان الرئيستان لجعل المال دُولة بين الأغنياء " ([2])، وتوعّد الله الذين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيله، ولا يتصدقون على الفقراء و المساكين بعذاب أليم، قال تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**}(التوبة: ٣٤). ورفض تجميع الثروات في أيدي فئات قليلة في المجتمع، فوضع قوانين وأنظمة تؤدي إلى منع هذا التجميع، وتوزيع الثروات بين أكبر عدد من أفراد المجتمع، وتوفير سيولة المال للجميع، ومنها فرض الزكاة، ومبدأ توزيع الميراث بين جميع الورثة من الأصول والفروع، وجعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء، بينما جعل الفيء ([3]) كله للمصارف المذكورة في الآية الآتية، قال تعالى:{**مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الاغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**}(الحشر: ٧)، "معنى الآية: كي لا يكون الفيء دُولة بين الرؤساء والأقوياء والأغنياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء؛ وذلك أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه، [وتسمى «المِرْباع»] ([4])، وفيه يقول الشاعر:

لكَ المِرْباعُ منها والصَّفايا  وحكمك والنشيطةُ والفضول ([5]) " ([6]).

قال تعالى:{**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الاغْنِيَاء مِنكُمْ**}،{**دُولَةً بَيْنَ الاغْنِيَاء**} أي: " مِلكاً مُتداولاً

---

([1]) ينظر: ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٥٣-٢٥٥ .

([2]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٦، ص ٣٥٢٥ .

([3]) الفيء: هي الغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة. أو هو كل ما حصل للمسلمين من أموال الكفار بغير قتال. الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٥٠ . سعدي أبو جيب: القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً، دار الفكر، دمشق – سورية، طبعة مصححة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص ٢٩١ .

([4]) المِرباع: رُبُعُ الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه في الجاهلية. الفيومي: المصباح المنير، ج ١، ص ٢١٦ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٦٦٢ .

([5]) ابن عثمة: هذا البيت الشعري لعبدالله بن عثمة الضبيّ، ابن منظور: لسان العرب، مج ١٠، ص ٢٨١ .
الخليل بن أحمد الفراهيدي: ترتيب كتاب العين، ج ١، ص ٦٤٧ .

([6]) أبو إسحاق أحمد المعروف بالإمام الثّعلبي: الكشف والبيان، دراسة وتحقيق: أبي محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان، مج ٩، ص ٢٧٦-٢٧٧ .

بينهم خاصة " ([1]).

ويكاد يجمع المفسرون على أنّ الفيء يقسم حسب ما ورد في الآية؛ كيلا يكون ذلك الفيء دُولة أي مداولةً واختصاصاً، يتداوله الأغنياء فيما بينهم دون من هم أحق به، والاستئثار به دونهم، وصرفه في حاجات أنفسهم، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، وأنّ هذا المال تُرك لمرافق المسلمين العامة وليس مما يعطى للأفراد ([2])، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:**{كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ}** " أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرّفون فيها بمحض الشهوات والآراء ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء " ([3]).

يقول وهبة الزحيلي: " فيكون الفيء مقسوماً خمسة أقسام... وعلة هذا التقسيم، ما قال الله تعالى:**{كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ}**، أي حكمنا بهذه القسمة بين هؤلاء المذكورين لئلاّ يكون تداول الأموال محصوراً بين الأغنياء ولا يصيب الفقراء منه شيء فيغلب الأغنياءُ الفقراءَ، ويقسمونه فيما بينهم، وهذا مبدأ إغناء الجميع وتحقيق السيولة للكل "، ويقول في علة قسمة الفيء: " إنّ تقسيم الفيء على النحو السابق [المذكور في الآية السابعة من سورة الحشر] كيلا يختص به الأغنياء كما كانوا يستأثرون بالغنيمة وكانوا يغترون به، وبذلك قضى الإسلام على **الطبقية وتجمع الثروة** في يد فئة قليلة وحرمان الأكثرية من سيولة المال " ([4]).

وفي ظل الاستبداد الاقتصادي للدولة، يتفنن النظام في إصدار الضرائب، ويتحول إلى مجرد جابي ضرائب، يرهق كاهل الشعب، هذا إذا لم يصادر الأموال بحجة التأميم، والسيطرة الكاملة على كل المرافق الاقتصادية؛ وعندها تقل رغبة المواطنين بالسعي في الاكتساب والاستثمار داخل البلد، ويفقد المواطن الإحساس بالأمان على ماله، وتنعدم الحوافز لتطوير الصناعات والزراعات، وتتجه رؤوس الأموال نحو الدول الأكثر أمناً وحرية، وكما هو حاصل فعلاً في عالمنا المعاصر.

---

([7]) حسنين محمد مخلوف، كلمات القرآن، تفسير وبيان، ص ٣٤٣ .

([1]) ينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج ١٤، ج ٢٨، ص ٥١ . محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مج ٨، ص ٥٣ . القاسمي: محاسن التأويل، مج ٩، ج ١٦، ص ٩٨ . عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، اعتنى به: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ص ١٠٢٤ .

([2]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٤٣ .

([3]) وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ٢٨، ص ٨١ ، ص ٨٩ .

وهذا مما يسبب في النهاية الإضرار بالاقتصاد الوطني وإضعافه، مما يؤدي بالحكومة إلى مد يدها للدول الأخرى التي لا تساعدها لسواد عيونها بل بشروط تكبِّل إرادتها وخصوصاً السياسية، فتقل هيبة الدولة وسيادتها، وتتحول إلى دولة محتلة بأسلوب مقنّع ([1]).

## المبحث الثاني

## آثار ونتائج النظام الاستبدادي

### المطلب الأول: آثارالاستبداد ونتائجه على الفرد
### المطلب الثاني: آثارالاستبداد ونتائجه على المجتمع
### المطلب الثالث: آثار الاستبداد ونتائجه على الدولة

([4]) ينظر: محمد زكريا الندّاف: الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية، ص٢٨٠ . ابن خلدون: المقدمة، ص٢٥٣ .

# المبحث الثاني

## آثار ونتائج النظام الاستبدادي

الاستبداد قضية اجتماعية وسياسية، الجميع يستشعر بتداعياتها، وعلى كل المستويات والمجالات، وهي حالة مركبة تنعكس سلباً على الفرد والمجتمع والدولة، وإنّ استقراء التاريخ البشري والتأمل فيه يظهر بجلاء أن كل الرذائل ترى موضع قدمها في ظل الأنظمة الاستبدادية، فآثار ونتائج هذه الظاهرة واضحة للعيان، وتظهر بشكل واضح على جميع نواحي الحياة الإنسانية.

وللنظام الاستبدادي آثار ونتائج سلبية على الفرد والمجتمع والدولة، لخصها القرآن الكريم في كلمة «الفساد» ([1])، قال تعالى:{**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ**}(الفجر: ١١-١٢)، فالطغيان يؤدي بالضرورة إلى زيادة الفساد وانتشاره، أي أنّ قانون «**الطغيان يؤدي إلى الفساد**» هو من سنن الله في المجتمعات الإنسانية -مسلمة كانت أم غير مسلمة - وينبغي عدم الانخداع بالإنجازات المادية للطغاة المستبدين، فالاستبداد يؤدي بالضرورة إلى تدمير الإنسان، الذي هو أغلى وأهم ما في الوجود ([2]). وقال تعالى:{**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الارْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**}(القصص: ٧٦-٧٧)، فالفساد في ظل الاستبداد يشمل الماديات والمعنويات النفسية والمفاهيم الفكرية، فإتلاف الأرواح والأنفس، والتدمير والتخريب للمدن والمزارع، وتربية النفوس على الحقد والحسد، وكيد الناس وسلب أموالهم بغير حق، والطمع بما آتاهم الله من فضله، وإفقارهم وإذلالهم وتسخيرهم بالإكراه واستعبادهم بغير حق من الفساد في الارض... ([3]).

وقد وردت في سياق الحديث عن (المستبَدّ بهم) و (المستبِدّ) في المبحث الثاني من الفصل الأول صفات تعدّ من الآثار والنتائج التي يخلفها النظام الاستبدادي، على الفرد والمجتمع والدولة، عليه اقتضى المبحث دراسة هذه الآثار والنتائج في مطالب ثلاثة، وكما يأتي:

---

([1]) الفساد: جاء في الوجوه والنظائر أنّ تفسير «الفساد» على ستة وجوه، ومنها: (المعاصي- الهلاك- القتل-الفساد نفسُهُ). هارون بن موسى: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ص ٤٠-٤١، مادة (الفساد).

([2]) ينظر: محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٣٥١ .

([3]) ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٩، ص ٤٧٢ .

# المطلب الأول
## آثار الاستبداد ونتائجه على الفرد

في ظل النظام الاستبدادي وفي سياق شدة القمع والعنف المتكرر، تظهر آثار ونتائج على الفرد (الإنسان-المواطن)، نحو: تشويه شخصيته الإنسانية، فالاستبداد يشوه الفطرة البشرية ويوجد شخصية إنسانية مشوّهة، وأول أثر ونتيجة للاستبداد على الفرد أنه يخلق إنساناً مهزوماً من الخارج أولاً، ثم تنتقل الهزيمة من الخارج إلى الداخل، فالمهزوم داخلياً، إنسان عاجز، يحتاج إلى وقت طويل لاستعادة صحته وحلّ أموره بنفسه وتحمل مسؤوليته، فالمسؤولية صنو الحرية، والإنسان يُسأل على قدر ما يتاح له من حرية ([1]).

وعليه فالفرد في النظام الاستبدادي يصاب بإصابات وأمراض متعددة مميتة، منها: اتصافه بالازدواجية وبروز ظاهرة النفاق لديه، أي ظهور الشخصية المزدوجة للفرد، الذي يبدي استعداداً للخضوع والطاعة للأعلى، في وقت يصبح فيه أكثر استعداداً لممارسة عدوانية تعويضية على الأدنى منه في التسلسل المراتبي أو المهني أو الأسري، وعليه نجد الأشد تعرضاً لقمع السلطة أكثر استبداداً وقسوةً في بيته وعلى أسرته، وينشأ أطفاله برغبات عدوانية دقيقة ([2])، وبعدها ينقلب الفرد إلى مجرد مسخ مشوه يتقن كل أساليب المكر والخداع والحِيَل والدَّجَل والغِش، ويحسن الكذب والتمثيل بأفضل من القرود، مع سيطرة معاني الخوف والجبن عليه، فيظهر خلاف ما يبطن، وتصبح عنده مَلَكَة ([3])، فالخوف من الغير، وعدم الثقة به، وسوء النية، وليس حسن النية هو القاعدة الأساسية، التي تحكم العلاقات؛ فالذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن، ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع والصفات الفاضلة، ومن الاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس ([4])، فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً، ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتخفي والالتواء لتفادي الأخطار والعذاب، والحركة في الظلام، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء. فالاستبداد يفسد النفوس، يفسد طبيعة الإنسان،

---

([1]) ينظر: محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٣٢٩ .

([2]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ٣٧ .

([3]) المَلَكَة: هي صفة راسخة في النفس، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال، فتصير مَلَكَة، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادةً وخُلُقاً . الجرجاني: كتاب التعريفات، ص ٢٢٩ .

([4]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥ ، ص ٢٦٩٠ .

فتلتوي الفطرة وتنحرف التصورات وتمتلئُ النفوس بالجبن والذل من جانب، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر، وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطغيان.. ([1]).

وهذه الرذائل تقتل العزة في الأنفس، والشجاعة في القلوب، وتميت الرجولة في الشباب، وفي هذا دمار الأمم، وجاء في الحديث قوله (ﷺ):((إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ)) ([2])، فكيف إذا كان الاستبداد يلقنها كل يوم أن تقول للظالم: أيها البطل المنقذ العظيم؟! ([3]).

الفرد في ظل النظام الاستبدادي فاقد لمواطنيته، محروم من كل حقوق وامتيازات المواطنة، فلا يتأهل للمواطنة إلاّ من هم من حاشية النظام الاستبدادي أو الذين يسيرون في ركابه.

محروم من الحقوق المدنية – وهي تلك الحريات والامتيازات في المجتمع التي يمتلكها المواطن والتي يعد الحرمان منها حرماناً من وضع المواطن – وعدم تمتع شخص بالحقوق المدنية، لا تنطبق عليه صفة المواطنة، لأنّ المواطن في دولةٍ ما هو العضو الذي له أن يتمتع بالحقوق المدنية في تلك الدولة، وعليه التزامات بشأن تلك الحقوق ([4]).

يقول أحد علماء النفس عن طريقة بناء الإنسان بالتخويف: " إنّ مجرد وجود العصا في (الدولاب) أو على المنضدة في غرفة الدراسة بالنسبة لبعض الطلبة مصدر رعب وفزع.. وإن أغلبية المتصفين بالخضوع والذلة، هم نتاج ذلك الخوف القديم من العصا في الطفولة.." ([5])، فالتخويف الذي يعد أحد وسائل الاستبداد الرئيسة له تأثير كبير وواضح في تكوين النفسية المتصفة بالخضوع والذلة، وتقبل الظلم والضيم.

والشخصية الإنسانية المشوهة في عالمنا الثالث هي نتيجة حتمية للسياسات التي تنتهجها الفئات المستبدة الضالة المتسلطة على رقاب الشعوب، والتي تمثل السلطة الفرعونية في عصرنا الحديث، بكل معنى الكلمة.

---

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٣، ص ١٣٦٤ .

([2]) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ١٦٣/٢، ١٩٠/٢ .

([3]) يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، ١٣٠٨هـ–١٩٨٨م، الدوحة، (د. ط ، عدم ذكر دار النشر)، ص ١٣٩ .

([4]) ينظر: جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٦٦ .

([5]) عباس مهدي البلداوي: الانسجام في النفس والمجتمع، ١٩٨٠م، مطبعة عصام، بغداد، (د. ط)، ص ١١٦ .

وفي ظل النظام الاستبدادي تتعرض كرامة المواطن (الإنسان) إلى الامتهان والمسخ والتشويه، ويتلقى الاضطهاد والتنكيل، ولا يتورع عن تعطيل الممارسة الاجتماعية وإيقاف حركة الوعي واستتراف الاقتصاد في فعاليات أقل ما توصف به أنها قائمة على الغنيمة ومحاولة النهب المنظم ([1]).

ويصبح المواطن (الإنسان) جسداً لا روح فيه، شكله الخارجي يوحي بأنه لا ينقصه شيء، ولكنه في داخله مقهور مدمّر مهزوز، فاقد لروح المبادرة وروح الجماعة والاهتمام بالأمور والقضايا العامة؛ فأول ما يُقتل في الإنسان في ظل هذا النظام، هو الشعور بالمسؤولية. ولذا نرى العمل المستمر والدؤوب من قبل منظومة الاستبداد لمنع النباهة والوعي لديه، أي العمل على فقدان القدرة على استيعاب الحقائق والأحداث من حوله، وترسيخ مفهوم الانعزال والانغلاق على الذات، إيثاراً على السلامة وخوفاً من العقاب، وهذه موجودة حتى في الأمثلة الشعبية، ومنها: (عاش سعيداً من عاش في الظل)، قال المتنبي ([2]):

يرى الجبناء أنّ العجز عقلٌ وتلك خديعة الطبع اللئيم ([3])

من الظواهر التي يخلفها الاستبداد، ظاهرة الانسحاب الطوعي من المجتمع، وهذا الذي نقدر أن نسميه السلبية السياسية أو السلبية الاجتماعية تجاه القضايا العامة، والتي ترسّخت نتيجة لتغلب النزعة الفردية التي تتميز بالأنانية والأثرة وحب الذات، أو إيثاراً للسلامة والرضا بالعيش في الظل. وهذه الشخصية تتفنن في أسلوب المحافظة على الذات والحياة الذليلة، ولو على حساب الكرامة والمبادئ والمثل العليا، قال تعالى:{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ }(البقرة: ٩٦)، فنراها تجيد (فن الصمت) و (تلقي الأوامر) و (تنفيذها)، والتنكير في لفظ {حَيَاةٍ} يدل على أن المراد حياة مخصوصة، وعلى الحياة المتطاولة مهما كان نوع هذه الحياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الاطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات!

---

([1]) ينظر: إسماعيل نوري الربيعي: الثقافة والاستبداد: مفارقات القوة والعنف والشقاق، ص٣٥٣ .

([2]) المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ / ٩١٥-٩٦٥م): هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة، ولد بالكوفة، ونشأ بالشام ثم تنقل في البادية. وتنبأ في بادية السماوة، ثم تاب ورجع عن دعواه، وفد على سيف الدولة الحمداني صاحب حلب، وكافور الأخشيدي في مصر، وزار بلاد فارس ومرّ بأرجان ومدح فيها ابن العميد، ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي، وعاد يريد بغداد فالكوفة، فعرض فاتك الأسدي بجماعة له فقتلوه وابنه وغلامه بالنعمانية، أما ديوان شعره فمشروح شروحاً وافية. الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ١١٥ .

([3]) عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، مج ٢، ج ٤، ط٢، ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ص ٢٤٦ .

إنها صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة، فالجباه عنت والرؤوس نكست جبناً وحرصاً على الحياة.. أي حياة ! ([1]).

فالواقع الذي يفرضه الاستبداد تطغى فيه حالة السكون، وينتج اللامبالاة التي تنشر أذيالها على فضاء هذا الواقع بعمومه، حيث الركود والفشل والاتكالية والإحباط وتوقف الفعاليات وانعدام الإرادة وغياب المبادرة، وهي حالة من النكوص اللافت الذي يغلّف كلّ شيء إلى الحدّ الذي يوصل لحالة بائسة يبلغها الوضع بحيث لا يتوقف عن السلبية والتي تنشر خلالها على المواطن، بل تتخطاه لتصل إلى أحوال وأوضاع السلطة ذاتها ([2]).

والمواطن – الإنسان – في المجتمع الاستبدادي لا يشعر بأية مسؤولية تجاه المجتمع وقضاياه الصغرى والكبرى، لكونه بالأصل يعيش على الهامش، فلا وجود له حقيقة، إذ لا كرامة، ولا حرية ، ولا رأي، فقد اعتاد على كلمة ((**نعم**)) دائماً ([3])، لأنه في مناخ الاستبداد والذي تسود فيه أجهزة القمع والتنكيل، لا يمكن تحقق نموذج الإنسان الذي يعي ويستشعر بمهمته ورسالته في المجتمع، وما ينبغي عليه القيام به تجاهه، فهو إنسان غير واثق بنفسه وقدراته.

لذا فانّ الصورة القاتمة والمزرية والمتمثلة بالصمت المطبق وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه القضايا الكبرى والمصيرية والعامة بالنسبة للمجتمع، إلى حدٍّ يعمل فيه المواطن جاهداً من أجل الحفاظ على البقية الباقية من ذاته الممزّقة المحطّمة والتي أوهنها الحرمان والتكميم والإرهاب المنظم من قبل المؤسسة السلطوية، هي النتيجة الحتمية والمنطقية للأوضاع والظروف العسيرة والمعقدة التي يوجِدها نظام الاستبداد ([4]).

وفي هذه الأوضاع والجو الخانق الذي يوجِدُهُ الاستبداد، يفقدُ المواطن مسؤوليته تجاه الأشخاص والأشياء، فيصبح غير حريص على حياة الآخرين، أو حريتهم وكرامتهم وراحتهم، وغير حريص على الأملاك العامة، وفي بعض الأحيان لا يجد هذا المواطن من يفرغ عليه شحنات الغضب والحقد الذي أوجده الاستبداد في نفسه، سوى الأشياء، فنراه يقطع الأشجار والزهور في الحدائق، ويتلف المصابيح في الشوارع، ودور العرض... الى آخره من التصرفات التي تنصب في المحصلة استبداداً بتخريب الأشياء التي لا تستطيع الردّ، وهذا الأمر واضح في ظواهر هيجان

---

([1]) ينظر: سعيد حوّى: الأساس في التفسير، مج ١، ص ١٩٠ . النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ١، ٦٣ . الزمخشري: الكشاف، ص٨٧ . سيد قطب: في ظلال القرآن، مج١، ص٩٢ .

([2]) ينظر: إسماعيل نوري الربيعي: الثقافة والاستبداد: مفارقات القوة والعنف والشقاق، ص ٣٥١ .

([3]) ينظر: محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٢٦٩ .

([4]) ينظر: إسماعيل نوري الربيعي: الثقافة والاستبداد: مفارقات القوة والعنف والشقاق، ص ٣٥١ .

الجماهير بالبلدان المستبِّدة، وهذا المواطن لا يعنيه حب الوطن والغيرة عليه في شيء، وهذا كله ردّ على سلبه الحرية باديء ذي بدء ([1]).

والإشكالية الكبرى التي تقف أمام تحرر الشعوب من الاستبداد، هو تشويه (**الشخصية الإنسانية**) التي توالت عليها أنظمة الاستبداد لمدة طويلة، فهذه الشخصية اعتادت على الخمول والكسل، و لم تتعود على حمل المسؤولية، فماتت فيها (**روح المبادرة**)، وفقدت (**روح الجماعة**)، و لم تتعود (**الاعتماد على النفس**)، فقد اعتادت على وجود من يقرر لها، وعليه فلا نستغرب ظاهرة تأييد الاستبداد تحت شعار الامن والاستقرار والطمأنينة؛ وهذا يدل على انخفاض وعي الذات و وعي المجتمع ([2]).

وعندما يشتد واقع الظلم والطغيان، وتطول فترته، تنقلب الموازين، وتنعكس الصور، فنرى الشعوب تظاهر مُستَعْبِديها، وتقاوم مُحَرِّريها، وتستكين إلى الوضع القائم على ظلمه وقساوته، وتنفر من الوضع الجديد على عدله ([3])، ونرى إنساناً يقبل الظلم، وربما يرفض ويستهجن مقاومة الطغيان، فالطبيعة الإنسانية تستجيب لضروب الضغط والقسر ما دامت محتومة عليها، وهي ككائن حيّ تكيف نفسها حسب بيئتها، وإرادة الحياة الغريزية الغلاّبة في النفس الإنسانية تدفع بالإنسان إلى الاستجابة للوضع الاجتماعي كيفما كان وتكييف النفس على أساسه، بل وقد تزيد فتبدع له فلسفة الخضوع والاستخذاء بحيث يجد الفرد مبرراً ويحس التذاذاً في الوضعية غير السوية التي يعيشها. ونراها تتلذذ وتستعذب من أتفه الأشياء، على حد قول أحدهم: لي لذة في ذلتي وخضوعي ([4]).

ويصوِّر سيد قطب هذه النفسية الوضيعة، ويحلل هذا الواقع الأليم ببراعة فائقة في تفسيره لقوله تعالى:{**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**}(القصص: ١٩)، إذ يقول: " وإنه ليقع حينما يشتد الظلم، ويفسد المجتمع، وتختل الموازين، ويخيم الظلام، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذي يشكل الأوضاع والقوانين والعرف؛ ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه، ويرون البغي فلا تجيش نفوسهم لدفعه؛ بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم... ذلك لأنهم ألفوا رؤية

---

([1]) ينظر: محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٣٣٠-٣٣١ .

([2]) ينظر: المصدر نفسه، ص ٢٦٩-٢٧٠.

([3]) هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٢٣ .

([4]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٢٥ .

الطغيان يبطش وهم لا يتحركون، حتى وهموا أن هذا هو الأصل، وان هذا هو الصلاح! فإذا رأوا مظلوماً يدفع الظلم عن نفسه، فيحطم السياج الذي أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التي يقوم عليها.. وَلْوَلُوا ودَهِشُوا، وسَمَّوا هذا المظلوم سفاكاً أو جبّاراً، وصبّوا عليه لومهم ونقمتهم. ولم ينل الظالم الطاغي من نقمتهم ولومهم إلا القليل! ولم يجدوا للمظلوم عذراً -حتى على فرض قهوره- من ضيقه بالظلم الثقيل ! " (١). لذا ترى النفوس التي تعيش في العذاب وفي ظل الإرهاب وفي الهوان والصَغار والسخرة فترة طويلة تستمرىء حياة الذل، بل تستعذبه في أحيانٍ كثيرة.

ومن آثاره على الفرد أنه يجعله يعيش خاملاً خامداً ضائعاً فاقداً للإبداع والتفكير، مما يؤثّر على الإنتاج من الناحية الاقتصادية، وقد برهن التاريخ على أنّ الإنسان الحر ينتج أكثر من العبد، في جميع مجالات العطاء والإنتاج، والإنسان الذي يعمل في ظل نظام يشعر فيه بوجوده وكرامته ولا يضطهده، ينتج أكثر من الذي يعمل في ظل نظام مستبِدّ لا يشعر فيه بوجوده وكرامته ولا توجد فيه حرية رأي (٢)، ولابن خلدون كلام دقيق ومعبِّر حول هذه المسألة إذ يقول: " اعلَمْ أنّ العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لِما يرونه حينئذٍ من أنّ غايتَها ومصيرَها انتهابُها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباضُ الرعايا عن السَّعي في الاكتساب " (٣).

يقول الكواكبي: "يعيش الإنسان في ظل العدالة والحرية نشيطاً على العمل بياض نهاره، وعلى الفكر سواد ليله، إن طعِم تلذّذ، وإن تلهّى تروَّحَ وتريَّض، لأنه هكذا رأى أبويه وأقرباءه، وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم. يراهم رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء... كلهم دائبين على الأعمال يفتخر منهم كاسب الدينار بكده وجده، على مالك المليار إرثاً عن أبيه وجده... أما أسير الاستبداد، فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد، حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدرج أيامه وأعوامه، كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب " (٤).

وجناية الاستبداد والمستبِدين عظيمة وكبيرة من الكبائر، فليست جنايتهم على الفرد أنهم سلَبوه حريتَه وكرامتَه فحسب، بل جنايتُهُم الكبرى عليه أنهم أفسدوا عليه فطرته ووجدانه

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥ ، ص ٢٦٨٣ .

(٢) ينظر: محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٢٧٠ .

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٥٣ .

(٤) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٠٠-١٠١ .

فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ولا يذرف دمعة عليها. فالاستبداد يفعل فِعلَه في إفساد فطرة ووجدان الفرد، وانحطاط أخلاقه، وتعطيل طموحه، وبالتالي الحط من إنسانيته، وإذا ما استمر طويلاً يهدم الكائن البشري، لأنه يحول دون أن تكون الطبيعة الخُلُقية على أتمها، وبكلمة إنه يجعل من الإنسان أقلّ من الإنسان ([1]). فللاستبداد دور كبير في الحط من آدمية الإنسان، طبيعته الخُلُقية.

وفي ظل النظام الاستبدادي ينعدم القانون، وإذا وجِدَ، فهو قانون للجماهير لغير ذي الطول وللضعيف والفقير، ويطبق بصرامة عليهم، أما الطبقة الحاكمة والحاشية والنبلاء والقوي والغني، فلا وجود لشيء اسمه قانون بالنسبة لهم، بل الاستثناءات والخِدَع والتدليس والتحايل عليه هو الأصل إذا ما وجِد ظاهراً، مع التهاون في التطبيق تجاههم.. وفي مثل هذا المناخ الذي يسوده الخوف والقلق وعدم الاطمئنان وعدم الأمن من مكر السلطات والحاشية، تولد الأوبئة والأوجاع في الفرد الذي يعيش في مثل هذه الظروف والأحوال، ومنها وباء الاشمئزاز الذاتي، وعدم الاطمئنان القلبي، والتخلي عن الدنيا، واحتقار العلم والمعرفة والأخلاق ([2]). ولا يتعارض هذا مع ما قلته سابقاً من أنّ المستبَدّ به يحرص على الحياة الدنيا وأي حياةٍ كانت، لأن مقصودنا في هذا المحل هو التخلي على أن يكون عضواً نشطاً وفعالاً في واقع الحياة وعمارة الأرض.

فالاستبداد أعظم بلاء على ((**الانسان**))، يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة ((**الأنفة**)). نعم، الاستبداد أعظم بلاء على ((**الانسان**))؛ لأنه وباء دائم بالفتن وجدب مستمر بتعطيل الاعمال، وحريق متواصل بالسلب والغصب، وسيل جارف للعمران.. وظلام يعمي الابصار.. وقصة سوء لا تنتهي ([3]).

---

([1]) ينظر: عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص ٤٦-٤٧ .

([2]) ينظر: نبيل هلال هلال: اعتقال العقل المسلم ودوره في انحطاط المسلمين، ص ١٤١.

([3]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٩-٢٠ .

# المطلب الثاني
## آثار الاستبداد ونتائجه على المجتمع

نرى شرائح المجتمع تتأثر بصفات المستبِدّ، ويتسلل فساده كالجرثومة إلى كل خلايا المجتمع ليقضي تدريجياً على كل القيم والقوانين، وهكذا نرى الفساد يصبح ممارسة طبيعية عند أبسط أعوان المستبِدّ بدءاً من الحارس والى الموظف البسيط والى جميع المؤسسات والدوائر ([1])، ومع انتشار الفساد والمفسدين واتساع نطاق ((**الدخول الخفية**)) الناجمة عنه، فإن العمل الشريف الجاد يفقد قيمته بل ان القانون نفسه يفقد هيبته واحترامه. والعلاقة المباشرة بين الفساد والاستبداد تتمثل في أن الفساد عندما يستشري ويترسّخ فإنه يعمل على حماية نفسه وذلك بابقاء كل الهياكل التي أنتجته على حالها، فلا تغيير في القوانين ولا تعديل في اللوائح ولا تطوير في السياسات، لذلك نرى أعوان الاستبداد من النفعيين والمصلحيين وفي كافة مفاصل الدولة والمجتمع غير مبالين بالتغيير نحو الاحسن وبمشاريع التنمية والتطوير؛ وذلك ضماناً لاستمرار المناخ الذي يضمن لهم المزيد من التربح واستغلال النفوذ والابقاء على الامتيازات الممنوحة لهم, وهو ما يصفه البعض بانتشار نمط ((**ثقافة الاستبداد**))، لذا فالاستبداد جرثومة وأصل كل فساد في المجتمع ([2]).

ولعل أعنف ما يجتاح المجتمع والسلطة السياسية والإدارية فيه هو شيوع الرشاوى وأساليب الهدايا المتنوعة بين الناس، والمحسوبية ([3])، بحيث يصبح الجميع أسرى الابتزاز المادي الرخيص في الوصول إلى حاجاتهم مهما كانت صغيرة أم كبيرة، وغالباً ما تكون هذه الوسائل منتهكة للقانون، وعليه فإنها ترتبط بالفساد الناتج من الاستبداد ارتباطاً وثيقاً ([4]).

---

([1]) كمال المنوفي: نظريات النظم السياسية، ص ٩٣ .

([2]) ينظر: ثناء فؤاد عبد الله: ((الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة))، ص ٤٠٦ . عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٤٧ .

([3]) المحسوبية: مجموعة علاقات بين الرعاة والمواطنين – المسؤولين والزبائن –، يقدم فيها الرعاة الذين يتمتعون بمركزٍ عالٍ وثروةٍ ونفوذ الرعاية في شكل حماية وتمكنٍ من الوصول إلى المنافع المقدمة من الدولة أو الحزب وكذلك المكافآت المادية والأعمال والسمعة..الخ، لزبائنهم مقابل الإذعان لهم والسير في ركابهم ودعمهم سياسياً. ينظر: جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ٧١ .

([4]) ينظر: قصي الحسين: الفساد والسلطة – أركيولوجيا المنشأة المزدوجة التمفصل الوقائعي للسلطة في العصور الوسطى، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص ١٩١ .

والقرآن الكريم يبين حكمة تخصيص إرسال الرسل إلى الطغاة المستبدين بسبب ما يحدثه حكمهم ونظامهم الفاسد الطاغي، فالاستبداد يضرّ ويفسد، وهو أصل كل فساد، فله أثر سيىء في كل واد، فهو يضغط على العقل فيفسده، ويلعب بالدين فيفسده، ويحارب العلم فيفسده، ويعادي الأخلاق فيفسدها.. ([1])، قال تعالى:{**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**}(طه: ٤٣)، فحكمة تخصيص فرعون بالذهاب إليه، هي أنه ((**طغى**))، أي: وكان طغيانه سبباً في فساد شعبه في زمانه، وسبباً في طغيان آله وملئِهِ وأنصارهم وأعوانهم وجنودهم ([2]).

فمن أهم نتائج السلطة المطلقة – الاستبداد – إنما هو ((الفساد))، قال تعالى:{**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ**}(الفجر: ١١-١٢)، الفساد بكل أنواعه ومجالاته وخاصة التأثيرات السلبية على المجتمع وتشويه شخصيته وزرع وغرس مفاهيم وعادات وتقاليد وقيم بعيدة عن المُثل العليا فيه، ففساد السلطة الاستبدادية يكون الخطر فيها ليست بكمية الثروات والأموال التي تبددها وحتى الأنفس التي تزهقها ولكن بقدر ما هو إيجاد مجتمع فاسد ومشوه. وقال تعالى:{**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الارْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**}(القصص: ٧٦-٧٧)، فالفساد يشمل الماديات والمعنويات النفسية والمفاهيم الفكرية، فإتلاف الأرواح والأنفس، والتدمير والتخريب، وتربية النفوس على الحقد والحسد، وكيد الناس وسلب أموالهم بغير حق والطمع بما آتاهم الله من فضله وإفقارهم وإذلالهم وتسخيرهم بالإكراه واستعبادهم بغير حق من الإفساد في الأرض... وهذه النصيحة الموجهة لقارون {**لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**}... تدل على أنه كان يتخذ وسائل يحصل بها فساد في الأرض كالظلم والعدوان على الناس وأموالهم وممتلكاتهم وإذلالهم وسوقهم مسخّرين لأسياده آل فرعون، ونشر الفاحشة، وأكل أموال الناس بالباطل وتسليط بعض الناس على بعض، ونشر العقيدة الوثنية القائمة على تأليه فرعون واعتباره الرب الأعلى ([3]).

وجدير بالملاحظة أنّ هناك لفتة لطيفة وردت في القرآن الكريم حول موضوع ((**الرشاوى**)) والذي أطلقت عليه ملكة سبأ كلمة ((**الهدية**))، تحريفاً وتزويراً وتلاعباً بالمصطلحات، ثم سار المنحرفون المزوِّرون على هذه الطريقة، فصاروا يسمُّون الرشاوى هدايا.

---

([1]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٤٧ .

([2]) ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٨، ص ١١٦-١١٧.

([3]) ينظر: المصدر نفسه، مج ٩، ص ٤٧٢ .

قال تعالى على لسان بلقيس:{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ، }(النمل: ٣٥)، فكلمة الهديَّة لم ترد في القرآن إلاَّ مرَّتيْن، في سياقٍ واحد لقصةٍ واحدة، في سورة واحدة. وهي سورة النمل ([1]).

استخدمتها ملكة سبأ في الردِّ على كتابِ سليمان النبي (عليه السلام) ودعوته، و عندما نمعن النظر في السياق، سنخرج بدلالة وهي: أنّ الملكة قد استخدمت سلاح الإغراء بالمال – أو الرشوة – لتقف به أمامَ رسالة سليمان (عليه السلام)، وقد أطلقت على هذه الرشوة كلمة «**هدية**». ولكن سليمان النبي الحكيم (عليه السلام) اكتشف الغرضَ فرفض باستعلاء واعتزاز، وهدّدها بالحرب إنِ استمرت على هذا الأسلوب:{**فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**} ([2]).

ومن نتائج الفساد ظهور طبقة فاحشة الثراء في المجتمع، وعادةً ما تكون هذه الطبقة فارغة العقول، لا تهتم بالعلم والثقافة كاهتمامها بإشباع غرائزها الحيوانية، ويدفعها (**الجنس والعدوان**) إلى سلوكيات وتصرفات طائشة، فترى مغامراتها الصبيانية واندفاعاتها تلوث المجتمع بمختلف أنواع الاعتداءات من قتل واغتصاب وسرقة المال العام وتبذيره، واستهتار بالقيم والمثل العليا وبالتالي تهديد السلام الاجتماعي للمجتمع.

وأمّا العلاقات الإنسانية بين فئات المجتمع المختلفة فتحكمها الشك والريبة، وتنتشر أساليب المكر والخداع، فالأسلوب الأمثل للتعامل مع النظام الاستبدادي عموماً هو أسلوب المكر والكذب؛ لعدم وجود القوانين، وإن وجدت فإنها تفرغ من مضامينها، فلا وجود لحق و لاضمان لفرد من تعسف السلطة وبطانتها السوء، وما يلبَثُ أن يصاب الفرد بمرض كراهية المجتمع.

وإنّ ما يجعل الحياة سهلة بالنسبة للأنظمة الاستبدادية هو تخلي المواطنين عن النقد السياسي، لأنهم يرون فيه عملاً خطِراً وصعباً لا طائل منه... فالمبادئ العادلة بعيدة جداً، وغالباً ما يَمُلّ الناس من المناداة بها، والسعي وراءها، وتكون النتيجة إعطاء المسوِّغ للطغاة ليظهروا في المقدمة وينقضّوا على السلطة ([3]).

---

([4]) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٩٠٥ .

([1]) صلاح عبد الفتاح الخالدي: لطائف قرآنية، ط١، ١٤١٢هـ–١٩٩٢م، دار القلم، دمشق، ص ١١٦–١١٨ .

([2]) غاستون بوتول: فن السياسة، نصوص مختارة، ص ١٧٧ .

والمجتمع الذي تتحكم فيه الانظمة الاستبدادية يصاب بالتخلف الاجتماعي حيث الجمود والارتباك وعدم فعالية المؤسسات البنيوية التي يتكون منها البناء الاجتماعي، بحيث تعجز هذه المؤسسات عن إشباع حاجات الأفراد والمساهمة في تحقيق أهداف المجتمع القريبة والبعيدة ([1]).

فالاستبداد عامل تدمير لكل المؤسسات البنيوية التي يتكون منها البناء الاجتماعي، وعامل إيجاد الفجوات الكبيرة فيما بينها، نرى الفجوة بين الدولة والمجتمع، بين الحاكم والمحكوم، وحتى بين طبقات وفئات المجتمع المختلفة، مما يؤدي إلى خلخلة الوضع الاجتماعي العام، وإضعافه بل وتدميره.

فتتردى البلاد إلى حالة تغلب فيها المنافع الذاتية على الجماعية، والمصالح الشخصية على العامة، وتتحلل أنظمة القيم ومعايير الأخلاق التي تشد الرباط الإنساني وتحافظ على وحدة المجتمع ([2])، فـ " الاستبداد يسلب من المواطنين كل عاطفة مشتركة، وكل حاجة متبادلة، وكل ضرورة للتفاهم فيما بينهم، وكل فرصة للتحرك الجماعي، ويمكن القول إنه يغرقهم في حياتهم الخاصة " ([3])، لذا فالاستبداد يعيق تقدم وتعميق العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع بل يميتها، فلا أحد يأمن جانب أحد، وتنتشر ظاهرة غياب الضمير – قول الحق بدون خوف – من بين أفراد الأسرة الواحدة، ويقِل فعل الخير بين الناس، وتتشوه المثل العليا للمجتمع، وفي ظل هذا الوضع المتردي يصبح الذي يحصل على المال دون أن يعمل والذي يتحايل على القانون (**شاطراً**)، والذي يحتكر ويغش في السلعة والمواصفات (**تاجراً ماهراً**)، وتنمو ظاهرة الغنى غير المنتج (الريعي) ([4])، مما يزيد من نمو الأحقاد بين الناس، وتفشو ظاهرة الاعتماد على الحظ، فالذي يحصل على الملايين دون أن ينتج (**محظوظ**) ([5]).

إنّ الاستقرار الظاهري الذي يلحظه الناظر غير المدقق وغير المدرك لحقيقة الاستبداد وما يتبعه من متواليات سلبية تؤدي إلى تدمير المجتمع، وخاصة بناؤُه الأساس ومحور وجوده «**الإنسان**»، هذا الاستقرار الذي يحققه الاستبداد إنما هو استقرار المستنقعات، إذ السطح هادئ والأعماق زاخرة بالعفن.

---

([1]) إحسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع، ص ١٦٦.

([2]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ٣٧ .

([3]) غاستون بوتول: فن السياسة، نصوص مختارة، ص ١٦١ .

([4]) الريع: هو الدخل الإضافي المتأتي بانتظام، عن الرأسمال والأرض أو الأملاك وغير المرتبط بعمل صاحبه. عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٨٢٣ .

([5]) ينظر: محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ص ٢٧٠-٢٧١ .

فالاستبداد له دور أساسي في تشكيل الأخلاق الفردية والعامة، ويساهم في إضعاف الأخلاق الحسنة بل ويفسدها، ويقتل في الإنسان الخاضع للاستبداد إنسانيته، ويصرفه إلى الملذات البهيمية فينشغل بها عن غيرها من الأعمال والأمور، ويحرمه من التعرّف على معاني الحياة الاجتماعية ([1]).

والاستبداد يدمِّر المنظومة الأخلاقية والقيمية للمجتمع، ويعبث بالمعايير الأخلاقية، فيسوق الإنسان إلى الاعتقاد بأنّ طالب الحق (فاجر)، وتارك حقه (مطيع)، والمشتكي المتظلم (مفسد)، والنبيه المدقق (ملحد)، والخامل المسكين (صالح أمين)... ويقوده إلى متابعة الاستبداد في تسمية النصح فضولاً، والغيرة عداوة، والشهامة عتواً، والحميّة حماقة، والرحمة مرضاً، كما يجارونه في جعل النفاق سياسة، والتحيّل كياسة، والدناءة لطفاً، والنذالة دماثة... والاستبداد يحمي ويشجع الفساد الأخلاقي والفاسدين. لأنه يعطل ضابطاً أخلاقياً مهماً، وهو ((**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**))، أي حرص الأمة على حراسة نظام الاجتماع، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير مقدور عليهما في عهد ((**الاستبداد**))، والمطلوب هو أن كل غيور على نظام قومه أن يقوم بالنصح الانكاري الذي يفيد في تخفيف الظلم ومؤاخذة الحكام، والذي أطلق عليه النبي (ﷺ) اسم ((**الدين**)) تعظيماً لشأنه فقال: ((**الدين النصيحة**)) ([2]).

فالاستبداد ينحط بالحياة الاجتماعية للأمة، ويحدث الخلل في العلاقة بين الفرد والجماعة؛ لأن المستبِّد وحده لا يظلم بل معه أعوانه الذين هم سنده، يطغون ويظلمون ويفسدون. وهكذا يعم الفساد والظلم والبلاء عموم الناس لأنهم أصبحوا محكومين من مستبِّدين طغاة وظلمة على رأسهم الحاكم المستبِّد وليسوا محكومين من هذا الحاكم المستبِّد فقط.

وهذا أمر مشاهد في الماضي والحاضر في كل أمة ابتليت أو تبتلى بحاكم ظالم مستبِّد طاغية فهو لا يطغى وحده ولا يظلم وحده وإنما يشاركه في ظلمه وطغيانه سائر جنده وأعوانه، وهكذا تعم البلوى عموم المجتمع، حتى إذا حان أجل الظالمين وآن أوان هلاكهم هلكوا جميعاً: الحاكم المستبِّد الطاغية وأعوانه الطغاة، والله ((سبحانه وتعالى)) جمعهم بوصف الخطيئة، قال تعالى:{**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**}(القصص: ٨) ([3]). وقوله: {**كَانُوا خَاطِئِينَ**} " أي

---

([3]) ينظر: الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٧٩ .

([4]) ينظر: المصدر نفسه، ص ٨١-٨٥ .

([1]) ينظر: عبدالكريم زيدان: المُستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج ١، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ص ٣١٧-٣١٨ .

كانوا مذنبين عن عمَدٍ وإصرار، اتباعاً للأهواء والشهوات وتحقيقاً لمصالحهم من الحكم والسّلطان، بفرض جبروتهم وكبريائهم في الأرض " ([1]).

## المطلب الثالث
## آثار الاستبداد ونتائجه على الدولة

وعلى مستوى الدولة فللإستبداد آثار ونتائج خطيرة جداً؛ لأنها في النهاية تؤدي إلى خلخلة النظام العام للدولة، وربما إلى انهياره وتدميره. وكما هو معلوم فإنّ القمع والتنكيل بالشعب يؤدي إلى حالة دولة ضعيفة يصعب الدفاع عنها شعبياً، فيسهل تعرضها للأطماع الخارجية، بل ويتاح غزوها وتدميرها بيسر وبساطة، كما حدث لدول كثيرة في التاريخ. والدولة المستبِدّة تحمل بذور ضعفها رغم مظاهر القوة فيها، وغالباً ما تكون الدول التي تؤسس على الاستبداد والقمع قصيرة الأجل، محكوم عمرها بالمدى الذي يورث فيه الحاكم المؤسس أو البطل المنقِذ استبداده إلى من يخلفه ([2]).

من جهة أخرى وكما تكون سلطة القمع رديفاً لسلطة الاستبداد، تستثار العصبيات الفئوية المختلفة التي يصبح معها الولاء للفئة بديلاً عن الولاء للمجموع أو الانتماء للوطن، وهنا يكمن الخطر عندما يكون الولاء للفئة على حساب الدولة والوطن، ومن الصعب تصور استمرار نظام استبدادي حقيقي بغير تنافر وتصادم اجتماعي يغذيه الحاكم ومنظومة نظامه الاستبدادي كي يخلق ضرورات السيطرة عليه. ويسعى المستبِدّ الأنموذجي إلى اصطفافات من هذا النوع تكون موضع ثقته وحصانته، فتخضع الدولة لمصالح فئوية يحتمي بها، وتتهمّش في سياقها الفئات الأخرى من المجتمع ([3])، وهذا يؤدي إلى حدوث شروخ كبيرة في البناء الاجتماعي للدولة، مما يعرضها للانهيار والتدمير.

وعلى مستوى الدولة نرى انخفاض المستوى المعاشي لعامة الشعب وضعف وشلل الاقتصاد الوطني عموماً؛ لأن كثيراً من الأموال لا تنفق في حقها، ولا توضع في موضعها، بل تذهب لحماية أمن الحاكمين، والتنكيل بالخصوم والمعارضين، وتدبير المؤامرات في الداخل

---

([2]) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر، مج ٩، ص ٣٥٤ .

([1]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ٣٦ .

([2]) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٧ .

والخارج، وتكثيف الدعاية لأشخاصهم ونظامهم، وتمويل المغامرات الجنونية الحربية والسياسية لإرضاء طموح الزعيم في فتح البلاد، وقهر العباد ([1]).

ونرى أيضاً ارتفاع نسبة الأمية ومحدودية التعليم والتدريب وتفشي القيم والممارسات الاجتماعية المتخلفة، وتدني المستويات الصحية والغذائية وعدم توفر مشاريع الرعاية الاجتماعية وعدم وجود المشاركة الشعبية وظهور الهوة الكبيرة بين السلطة والشعب.

ومما لا ريب فيه أنّ النشاط الإداري للدولة يرتبط أشد الارتباط بالممارسات السياسية المستبدّة في إطارها الشامل، ويأخذ معها علاقة طردية، فكلما زادت القيادة ظلماً وطغياناً، واحتكاراً واستغلالاً، أصيب الجهاز الإداري بالتفكك والاضطراب والعجز ([2]).

ومن صيغ الفساد الإداري وضع الرجل غير المناسب في المفاصل الحساسة لماكنة الدولة الإدارية، وإبعاد أو إهمال العناصر الكفوءة، فالاستبداد يقدم أهل الثقة عند الحاكم، لا أهل الكفاية والخبرة، ويقرّب المحاسيب والمنافقين، على حساب أصحاب الخُلُق والمخلصين. وبهذا تضطرب الحياة وتختل الموازين وتقرب الأمة من ساعة الهلاك، فالاستبداد مفسد للإدارة، مفسد للحياة ([3])، وقد وصف الرسول (ﷺ) هذا الأمر بالخيانة وهو وصف خطير جداً، قال (ﷺ): ((من تولى من أمراء المسلمين شيئاً، فاستعمل عليهم رجُلاً وهو يعلم أنّ فيهم من هو أولى بذلك وأعلم منه بكتاب الله وسنة رسوله فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين)) ([4])، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ (ﷺ) فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: (مَتَى السَّاعَةُ؟) فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: (سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ)، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: (بَلْ لَمْ يَسْمَعْ) حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: ((أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةِ؟))، قَالَ: (هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ)، قَالَ: ((فَإِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ))، قَالَ: (كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟)، قَالَ: ((إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ)) ([5])، وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول

---

([3]) يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، ص ١٣٨.

([1]) ينظر: عماد الدين خليل: مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٥م، الناشران: الدار العربية للعلوم، لبنان – بيروت، والمركز الثقافي العربي، المغرب–الدار البيضاء، ولبنان – بيروت، ص ١٧٢ .

([2]) يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، ص ١٣٧ .

([3]) الطبراني: المعجم الكبير، ٩٤/١١ .

([4]) البخاري: صحيح البخاري، ٢١/١ . أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٣٦١/٢ ، ٤٢٦/٢ ، ١٦٥/٢ .

اللهﷺ: ((مَنِ استَعْمَلَ رَجُلاً مِنْ عِصابةٍ وفي تِلْكَ العِصابَةِ مَنْ هُوَ أرضى للهِ مِنْهُ فَقَدْ خـــانَ اللهَ وخانَ رسُولهُ وخانَ المؤمنين)) ([1])

ومن أقوال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة لا يســـتعمله إلا لذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين) ([2])، ونرى ابن تيمية ([3]) يتوسع في بيان تفاصيل مفهوم أداء الأمانات في إدارة شؤون الدولة، فيشدد على استعمال أو تولية الأصلح في جميع مســـتويات الوظائف، من دون استثناء، وضرورة استبعاد من يطلب الولاية ومن تكون له قرابة أو مصـــلحة مع صاحب الولاية (متخذ القرار). والآيات والأحاديث حول الموضوع تصلح أن تكون ميثاقـــاً لأخلاقيات الإدارة في كل عصر ([4]).

ومن صيغ الفساد الإداري أيضاً بيع مناصب الدولة لمن يدفع أكثر، ومنحه – بـــذلك – الفرصة لكي يجمع أكثر بغض النظر عن الأساليب التي يعتمدها لتحقيـــق أهدافـــه، وتعارضـــها وتناقضها مع الحقوق العامة للمواطنين، ومنها أيضاً انتشار الرشوة، ومصادرة الأمـــوال العامـــة، وخراب الذمم، وأثرة الموظفين وجشعهم واستغلالهم، وتحكم مراكـــز القـــوى في المؤسســـات الإدارية ([5]).

وهكذا نرى بأنّ الفساد يستشري في جميع المؤسسات سواءً الحكومية وغير الحكوميـــة، نتيجة للممارسات الإدارية الفاسدة، والارتباك وضياع الشعور بالمسؤولية، وتغليب الشكل على المضمون في آلية عمل إدارات الدولة ومؤسساتها، فتنشأ البيروقراطية، أي الروح الشكلية المكتبية،

---

([5]) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ٣٤٥/١٦ ، (وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه) .

([6]) المتقي الهندي: كنز العمال، ٧٦٠/٥ .

([7]) ابن تيمية (٦٦١–٧٢٨هـ / ١٢٦٣–١٣٢٨م): هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاســـم النُميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام، ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق، فنبغ واشتهر، داعية إصلاح في الدين، سلفي النزعة، مجدد، شديد العداء للخرافات والبدع، اعتقل وسجن بسبب مواقفه الفكرية وصراحته في الحق الذي يعتقده، جاهد التتار، آية في التفسير والأصول، وتصانيفه ربما= =تزيد على أربعة آلاف كراسة، وفي فوات الوفيات أنها تبلغ ثلاث مئة مج، منها: السياسة الشرعية، الإيمان، الجمع بين النقل والعقل، منهاج السنة، الصارم المسلول على شاتم الرسول، الحسبة في الإسلام..وغيرها من التصانيف التي كان لها التأثير الواضح في فكر الإصلاح الحديث. مات معتقلاً بقلعة دمشق. ينظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٥٢/٢٢. الـــذهبي: تذكرة الحفاظ، ١٤٩٦/٤ . عبد الحي بن عماد، أبو الفلاح الحنبلي: شذرات الذهب من أخبار من ذهـــب، ٨٠/٦ . الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ١٤٤. عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ١، ص ٢٢ .

([1]) ينظر: بشير محمد الخضرا: النمط النبوي – الخليفي في القيادة السياسية العربيـــة ..والديموقراطيـــة، ط١، أيار/مـــايو ٢٠٠٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ص ١٨٦ .

([2]) ينظر: عماد الدين خليل: مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص ١٧٣ .

في أجهزة الدولة، التي يهمها استكمال الشكل الورقي المستندي في المعاملات سواءً كان ذلك حقاً وصدقاً أم لا ([1]). مما يؤدي إلى سلبيات متتالية – متواليات – من فقدان الخدمات وضعفها، إلى ظهور طبقة ثرية غير عادية... ففي الدول التي تتحكم بها الانظمة الاستبدادية – لا تتطور الخدمات إلا باتجاه تقوية وترسيخ أجهزة الأمن – التي تراقب المواطن باستمرار في كل حركاته وسكناته، ولا يكون ثمة اهتمام بالخدمات، وما يجب أن تقوم به الدولة تجاه مواطنيها، من ناحية تقديم الخدمات والارتقاء بها.

وكما هو معلوم فإنّ إحدى العناصر التي تتكون منها الدولة هو الشعب (الإنسان)، فتدميره وتحطيم شخصيته ونفسيته، يؤدي بلا شك إلى تحطيم وتدمير الدولة، فتسلّط وتحكّم السلطة والدولة بالشعب (الإنسان) وتسييرها للمجتمع بالقمع والإرهاب والتنكيل، يدمِّر (الإنسان) المواطن، وهذا – التسلّط والتحكّم – سيؤدي بالدولة – الشعب – بالمراوحة وتقبُّل كل ما هو خارجي (غير وطني) سواءً كان فكراً أم أشخاصاً أو عاداتاً وتقاليد.. وسيصبح (الإنسان) و(الأرض) مهيئاً لأن يكون مستعمَراً ولو بأبخس الأثمان.. وهذا الأمر واضح وملموس في الدول الدكتاتورية.

والأخطر من هذا كله أنّ الفرد في ظل النظام الاستبدادي، ولشعوره بالظلم قد يجعله لا يتحمس للدفاع عن وطنه (الدولة)، الذي لم يطعمه من جوع، و لم يؤمنه من خوف ([2]).

فالإنسان (المواطن) لا يشعر بمواطنيته وكرامته في بلده... لذا نرى مظاهر ونظرات عديدة سلبية تجاه الأرض والإنسان (الوطن) أو (الشعب) من قبل الذين لا يشعرون بوجودهم وكرامتهم في هذه الأرض (الوطن)، الذي يهدر حقوق مواطنيه لحساب فئة خارجة عن إنسانيتها، الفئة الحاكمة المتسلطة، التي تضحي بكل شيء من أجل الحفاظ على امتيازاتها ومناصبها ولو على حساب الأرض (الوطن) أو الشعب (المواطنين)، مستخدمة جميع الوسائل والأساليب للتشبث بالكراسي والنفوذ.

وهذا ما جعل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) يقول لواليه على حمص حين كتب إليه يطلب مالاً لبناء سور المدينة، فقال له: (**حصِّنها بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم!!**).

---

([2]) محمد شحرور: دراسات اسلامية /الدولة والمجتمع، ص ٣٢٥ .

([1]) يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، ص ١٣٢ .

يريد أنّ المدينة التي يشعر أهلها بقيام الحق والعدل فيها يحميها أهلها ويستميتون في الدفاع عنها، قبل أن تحميها الأسوار والتحصينات ([1]).

فالشعب الذي لا يشعر بالسعادة والأمن في بلده لا يمكن أن يحب وطنه، ناهيك عن الدفاع والموت في سبيله، وإذا أردنا أن يُحترم النظام، وتكون للدولة هيبتها وقدسيتها ومكانتها في قلوب الجميع، فعلينا أن نقي الشعب من الظلم والطغيان ([2])، فالضرب والضريبة لا يجتمعان، ولا يجد المنتج حافزاً على الإنتاج إنْ تَسلَّط عليه الحاكم ورهطُهُ، ولا ينصر الشعب الحاكم الظالم إنْ دارت حرب، لأنّ نصره يعني إطالة أجل الظلم ([3]).

فالسياسات القمعية والإرهاب الذي تمارسه أنظمة الاستبداد، والتخويف بالمؤامرات الوهمية من قبل الأعداء الخارجيين، الأداة والوسيلة لإمرار غاياتها وأهدافها المتعلقة بأهمية الحفاظ على مصالحها الخاصة وتكريس امتيازاتها على حساب المصلحة العليا للدولة، مع إدراك غالبية الشعب بعدم وجود المحتوى الوطني والهمّ المخلِص من أجل المصلحة العامة، تُفقد **الروح الوطنية الأصيلة والفاعلة**، ومن هنا تتعرض إرادة العمل والتغيير وروح الابتكار للتعطيل، بل إنّ الفشل والركود يصبحان بمثابة المِلحّ والثابت في مجمل الحقول والقطاعات، هذا بحساب انعدام الحرية وكبت التوجهات التي من شأنها أن تتطلع نحو التفكير العلمي البنّاء والمدروس. **فالوطن في ظل الاستبداد يصبح مستشفى**، المواطنون نزلاؤه، وكأنه لا يحق لهم التصرف من دون مشورة الطبيب المسؤول، والذي تمثله السلطة المستبِدّة الحاكمة ([4]). ففي نظر الحاكم المستبِدّ أنّ الناس مرضى واستبداده وحكمه بالنسبة لهم من أنجح وأنجع المعالجات، وعليهم أن يرضوا بما يراه غير معترضين على ما يمليه عليهم من آراء وأفكار وطروحات، فهو القائد الملهم الذي أرسلته العناية الإلهية كهبة للشعب في الظرف والواقع المرّ الذي يمرّ به الوطن.

ويصبح القمع والإرهاب في قانون المستبِدّين الضعفاء إدماناً، وفي بعض الأحيان تسلية لذواتهم المريضة، ويصير نهجهم فيه غاية بذاتها تسارع في تداعيات الدولة وضعفها وانهيارها. غير أنه وفي بعض الحالات، يتلاشى التباين بين الوسيلة والغاية عندما يُدمِن المستبِدّ القوي وسيلة قمعه، ويتحول محترفاً للبطش تتسابق مؤسساته القمعية بتنفيذ رغباته بأمانة، وبذلك تضيق

---

([2]) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٣٢ .

([3]) ينظر: غاستون بوتول: فن السياسة، نصوص مختارة، ص ١٤١ .

([4]) عادل سعيد بشتاوي: تاريخ الظلم العربي، ط١، ٢٠٠٥م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٥٨ .

([1]) ينظر: إسماعيل نوري الربيعي: الثقافة والاستبداد: مفارقات القوة والعنف والشقاق، ص ٣٥٢-٣٥٣ .

المساحة بين حالة القمع كوسيلة، وبين حالته كغاية، الأمر الذي يسارع بدوره في ضعف الدولة وتداعيها ([1]).

وفي ظل الاستبداد تطفو على السطح طبقة من الأثرياء المترفين؛ فالطغمة الحاكمة هي التي تستأثر بموارد الدولة، وكذا الحاشية التي تدور حولها، وعليه فحين تحتكر فئة من الناس الثروة، أو تتمتع أسرة أو طبقة بامتيازات، تطفو على السطح طفيليات الغنى الاحتكاري، فيشيع الترف.

وبروز أصحاب الترف نذير شؤم بهلاك الدولة وهلاك الأمة، قال تعالى:{**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**}(الإسراء: ١٦)، فالآية تقرر سُنَّةَ الله في مثل هذه المجتمعات وهي الهلاك، فإذا قدّر الله لدولة أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، كثُرَ فيها المترفون، الذين اعتبرهم القرآن أعداء كل رسالة، وخصوم كل إصلاح، وبالنتيجة تكثر فيها الفواحش والمجون، وتسترخص القيم العليا التي لا تعيش الأمم إلا بها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها ([2]).

والنص القرآني يعبِّر عن خطورة بروز هذه الطبقة المترفة المتنعمة التي تطغى على اهتماماتها المسائل الصغيرة، في نتاج متوارث يقف بوجه أي إصلاح في المجتمع ويرفضه، يقول ((سبحانه وتعالى)):{**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**}(الزخرف: ٢٣) ([3])، ويبين النص القرآني أيضاً عادة مطردة للمترفين في موقفهم من رسل الله وهي تكذيبهم لهم، فلم يبعث الله رسولاً في قرية إلا كذّبَهُ مترفوها ([4])، قال تعالى:{**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ، وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**}(سبأ: ٣٤-٣٦).

فسنة الله في المترفين الهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى:{**حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ** }(المؤمنون: ٦٤). فالهلاك سنة كونية وقانون حياتي لأنّ الاستبداد يسير ضد

---

([2]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ٣٦ .

([3]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤ ، ص ٢٢١٧ . يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، ص ١٣١-١٣٢ .

([1]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٢-١٥٣ .

([2]) عبدالكريم زيدان: السنن الالهية، ص ١٨٤ . نقلاً عن (تفسير ابن كثير، مج ٣، ص ٥٤٠ ).

تيار القوانين والسنن الكونية التي وضعها الله في الوجود، فالدول تموت حتماً عندما تكون محمية فقط بالحديد ([1]).

يقول ابن خلدون: " إن الظُّلم مخرِّبٌ للعُمران وأنَّ عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض " ([2]). وعليه فنتيجة الظلم والاستبداد هو تدمير الدولة وهلاكها.

فالنتيجة المنطقية للتشوه الذي يحدثه الاستبداد وعلى كافة الأصعدة، هو: الهلاك والدمار للمجتمع والدولة، فالطغاة يهلكون بسبب ضعف القوانين التي هيجتهم وأثارت أعصابهم ([3])، ومصداق ذلك، قوله تعالى: **{وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ، لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ}**(الانبياء : ١١-١٣)، يقول الزمخشري: "**{قَصَمْنَا}** واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم؛ لأن القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم. **{لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ}** تهكم بهم [أي بالمترفين] وتوبيخ أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما جرى عليكم " ([4]).

---

([3]) ينظر: غاستون بوتول: فن السياسة، نصوص مختارة، ص ٥٠ .

([4]) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٥٤ .

([5]) ينظر: غاستون بوتول: فن السياسة، نصوص مختارة، ص ١٤١ .

([6]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٦٧٣-٦٧٤ .

# الفصل الرابع

## معالجة القرآن الكريم للنظام الاستبدادي

### المبحث الأول: المبادئ الأساسية لمعالجة الاستبداد: (رؤية قرآنية)

**المطلب الأول: إعلاء قيمة الحياة والإنسان**
**المطلب الثاني: إعلاء قيمة الحرية**
**المطلب الثالث: إعلاء قيمة العدل والمساواة**
**المطلب الرابع: إعلاء قيمة الشورى**

### المبحث الثاني: المعالجة التطبيقية للنظم الاستبدادية: (رؤية قرآنية)

**المطلب الأول: المواجهة الفكرية**
**المطلب الثاني: الإعداد والبناء**
**المطلب الثالث: المواجهة العملية**
**المطلب الرابع: السنن الإلهية في معالجة الاستبداد**

### المبحث الثالث: التصور القرآني للنظام العادل الراشد

**المطلب الأول: المرجعية العليا للدولة ونظام الحكم العادل**
**المطلب الثاني: أسس ومبادئ الدولة ونظام الحكم العادل**
**المطلب الثالث: الحقوق والحريات في النظام العادل**

# المبحث الأول

## المبادئ الأساسية لمعالجة الاستبداد (رؤية قرآنية)

**المطلب الأول: إعلاء قيمة الحياة والإنسان**
**المطلب الثاني: إعلاء قيمة الحرية**
**المطلب الثالث: إعلاء قيمة العدل والمساواة**
**المطلب الرابع: إعلاء قيمة الشورى**

# المبحث الأول
## المبادئ الأساسية لمعالجة الاستبداد (رؤية قرآنية)

في النسق القرآني مبادئ وأفكار وطروحات متعددة حول ترسيخ وتثبيت قيمة الحياة والإنسان، وقيم المساواة والعدل والشورى، والتي تعدّ من المبادئ الإنسانية العظيمة التي من شأنها بناء مجتمع قائم على أسس سليمة وصحيحة، تؤدي به إلى حياة حرة كريمة بعيدة عن الاستبداد والظلم والطغيان، وهي مؤشرات إيجابية أولية لرفض الاستبداد والظلم والطغيان، وإقامة النظام العادل المبني على تلك القيم.

مع النظرة السلبية في النسق القرآني أيضاً للاستبداد والظلم والطغيان، إذ تندد الآيات القرآنية بكل أشكال الظلم والعدوان والاستعباد والاستبداد، وتشن حملة في غاية الوضوح على المستبدين المتألهين، الذين يستعبدون الناس، ويستخفون الشعوب، وتنذرهم بأشد العذاب، وتوعدهم بأقسى العقوبات في الدنيا والآخرة.

والقرآن الكريم يحمل ويعيب على الذين يستمرؤون حياة الذل والعبودية، ويسيرون في ركاب الظلمة، وتوعدهم ايضاً بالخزي والعذاب في الدنيا والآخرة. قال تعالى:{**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ**}(هود: ٩٨)، هذه الآية الكريمة تصف فرعون وقومه الذين استعبدهم واستخف بهم، فأطاعوه وقبلوا حياة الذل والعبودية، مبينةً الجزاء والعقاب اللاحق بهم، وهم سواء في ذلك، وقال تعالى في ذلك أيضاً:{**وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**}(القصص: ٦)، وقال تعالى:{**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**}(الزخرف: ٥٤)، وقال تعالى:{**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**}(الشعراء: ٢٢٧).

وكذلك يرسخ التصور القرآني في شخصية المسلم موانع وحواجز تقيه الوقوع في هاوية العبودية وحياة الذل والهوان والتبعية والتصفيق للطغاة المستبدّين، كما تحول بينه وبين الغطرسة والوقوع في مستنقع الاستعباد والاستبداد، ووضع عوامل ضبط وتوازن للحد من نزعات الاستبداد في نفسية الإنسان وتصرفاته، فآية:{**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } (القصص: ٨٣)، تمثل الحاجز الذي وضعه الله على حافة الاستعباد والعلو والإفساد حتى لا يقع فيه الإنسان. وآية:{**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا، إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**}(النساء: ٩٧-٩٨)، تشكل الحاجز الآخر الذي يحفظ الإنسان ويمنعه من السقوط في وحل

العبودية، فالإنسان بما وضع الله في نفسه من تكريم مقدّس، وما غرس في نفسيته من حواجز، وما وضع في مسيرته من معالم ترشد طريقه حتى لا يقع في وحل العبودية أو وحل الاستعباد والاستبداد، يمثل أقوى اللبنات... ومن أفضل الضمانات للحقوق والحريات ([1]).

ولكون القِيَم معايير ومقاييس للفعل البشري، ومحددات للسلوك، وضابط أهداف للنشاط الإنساني في المجالات جميعاً، لم يُترك أمرها للإنسان ابتداءً، ومنذ النبوة الأولى، وذلك حتى لا يُفسد في الأرض، ويسفك الدماء، وانتهاءً بالرسالة الخاتمة، التي هي جماع النبوات، وإنما جعلت المعايير، التي تضبط موازين العدالة والمساواة بين البشر من خصائص رسالة النبوة وعطاءِ معرفة الوحي، حتى لا تكون محلاً للعبث والتلاعب والانتقاص والتطفيف ([2]).

إذاً هناك مبادئ أساسية لمعالجة الاستبداد بكافة أشكاله وأنواعه من خلال الرؤية القرآنية، وهي مبادئ واضحة في القرآن الكريم كإعلاء قيمة الإنسان والحياة، وترسيخ مبدأ الحرية والشورى والمساواة، وفيما يأتي دراسة لتلك المبادئ:

# المطلب الأول
# إعلاء قيمة الحياة والإنسان

إنّ القرآن الكريم يضفي على الإنسان هالة من التقدير والاحترام، ويكرمه ويفضله ويرفع من قيمته ويجعلها فوق كل قيمة، ويجعله يشعر بقيمة ووزن هذا التكريم والتفضيل في تقديره لنفسه وفي تقديره للآخرين، فالقيمة التي يمنحها القرآن للإنسان قيمة تفوق كل قيمة سياسية أو اجتماعية؛ لأنها القيمة التي يمنحها له الله ((سبحانه وتعالى)) في قوله:**{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}**(الإسراء: ٧٠)، فهذا التكريم يكون الشرط الأساسي للتعبير اللازم في الفرد نفسه، فنظرة الأنموذج الإسلامي إلى الإنسان، هي نظرة إلى التكريم الذي وضعه الله فيه، أي نظرة إلى الجانب الروحي فيه، بينما النماذج الأخرى تمنحه النظرة إلى الجانب الجسدي – المادي والجانب الاجتماعي،

---

([1]) ينظر: مالك بن نبي: القضايا الكبرى – مشكلات الحضارة ، إعادة طباعة ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م، دار الفكر، دمشق – سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، ص ١٤٧ . خليل إبراهيم محمد: شخصية المسلم بين التراث والوافد/ضوابط ومعايير، ط١، ٢٠٠٨م، ديوان الوقف السني، العراق، ص ٢٧٣–٢٧٤ .

([2]) بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة / رؤية نقدية، العدد ٨٦ ، ذو القعدة ١٤٢٢هـ ، السنة الحادية والعشرون، من سلسلة كتاب الأمة، يصدره مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية–قطر، ص ١١–١٢ ، (تقديم: عمر عبيد حسنة للكتاب).

فالتصور القرآني يضفي على الإنسان شيئاً من الاحترام والتقدير والقداسة، بحيث ترفع قيمته فوق كل قيمة تعطيها له النماذج الوضعية، فالإنسان الذي يحمل بين جانبيه الشعور بتكريم الله له، يشعر بوزن هذا التكريم في تقديره لنفسه وتقديره للآخرين ([1]).

وهذه الآية الكريمة:{**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...**} إعلاء لقيمة الإنسان فهو ذو كرامة ومفضّل عند الله، إنه بذاته قيمة عليا، وهذه القيمة في الشريعة الإلهية لا حدود لها. وهذه القيمة وهذا التكريم للإنسان سينعكس في حماية الروح البشرية ([2])، لذا نرى بأنها أتت بأحكام شديدة غير قابلة للتأويل والتغيير في مواجهة أي اعتداء يلحق بالحياة أو بالنفس الضرر، فحياة الإنسان هِبة من الله سبحانه، لا يجوز الاعتداء عليها بأي شكل من الأشكال، ورتّبَ عليها عقوبات لا يمكن تجاوزها أو التغاضي عنها، قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى... وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**}(البقرة: ١٧٨-١٧٩)، وقال: {**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**}(المائدة: ٣٢).

فالله ((سبحانه وتعالى)) قد ذكر صراحة في القرآن الكريم جميع حالات قتل النفس: الفردية والجماعية، وذلك لإخراجها من دائرة الاجتهاد والفتوى والقياس وإجماع الجمهور ([3])، فالحفاظ على الحياة، ارتفعت درجته في الرؤية الإسلامية، إلى مرتبة الفرائض الدينية والواجبات الإلهية والضرورات الاجتماعية، فتجاوزت مكانة الحقوق، التي يجوز التنازل عنها بالرضا والاختيار، فأصبح فريضة يأثم المُفرِّط فيها - بالانتحار - أو المتقاعس عن تحصيل مقوماتها، حتى ولو بالقتال !..([4])، فحرّم الإسلام قتل النفس - الانتحار -، والمبارزة، وقتل الجنين واهتم بحقوق النفس والجسد، قال الرسول (ﷺ): ((... ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً)) ([5])، ([6]). وقد تكرر في القرآن الكريم قوله تعالى: {**لاَ تَقْتُلُواْ**}، قال تعالى:{**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ**}(النساء: ٢٩)، وقال:{**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ**}(الإسراء: ٣١)، وقال:{**وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**}(الأنعام: ١٥١). وفي هذا التكرار دلالة كبيرة على عِظَم الجريمة التي ترتكب بحق الحياة عند

---

([1]) ينظر: مالك بن نبي: القضايا الكبرى- مشكلات الحضارة، ص ١٤٦ .

([2]) شمس الدين الكيلاني: مفاهيم حقوق الإنسان في المذاهب الإسلامية، بحث منشور في كتاب (حقوق الإنسان في الفكر العربي)، ص ٣١٥ .

([3]) محمد شحرور: دراسات إسلامية /الدولة والمجتمع، ص ٢٦٨ .

([4]) محمد عمارة: الإسلام والأمن الاجتماعي، ص ١٠١ .

([5]) البخاري: صحيح البخاري، ٢٤٣/٢ ، (اللفظ له) . مسلم: صحيح مسلم، ١٦٣/٣ .

([6]) شمس الدين الكيلاني: مفاهيم حقوق الإنسان في المذاهب الإسلامية، ص ٣١٥ .

إزهاقها بدون وجه حق، وفي هذا تقدير وتعظيم لهذه النفس التي منحها الله ((سبحانه وتعالى))، وضرورة الإبقاء والحفاظ عليها، وتكريمها بالقيام لها حتى وهي في حالة الموت، ولو كانت غير مؤمنة، وفي هذا يضرب النبي (ﷺ) المثل الأسمى في التكريم والتقدير للنفس الإنسانية، إذ كان يقوم (ﷺ) إذا مرّت به جنازة؛ فقيل له ذات يوم: (إنها جنازة يهودي)، فقال (ﷺ): ((أليست نفساً؟)) ([1])، ([2]). فالإسلام يحترم الذات الإنسانية المجرَّدة، سواءً كانت مسلمة أو غير مسلمة ([3]).

وفي حِكمة القصاص وتشريع الدية يقول سيد قطب في تفسير قوله تعالى: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**(البقرة: ١٧٨-١٧٩)، إنه ليس الانتقام، وليس إرواء الأحقاد، إنما هو أجلّ من ذلك وأعلى، إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة... والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء. فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل.. جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد. كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل. شفائها من الحقد والرغبة والثأر... وفي القصاص حياة على معناها الاشمل الأعم. فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي... وكف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها. وكان في هذا الكف حياة. حياة مطلقة. لا حياة فرد أو أسرة أو جماعة.. بل حياة. وامتن الله على الذين آمنوا بشريعة الدية عند حدوث فعل القتل، بما فيها من تخفيف ورحمة، لأنه لم يكن هذا التشريع مباحاً لبني إسرائيل في التوراة. إنما شرع للأمة المسلمة استبقاءً للأرواح عند التراضي والصفاء ([4]).

والجدير بالذكر أنّ العالم لم يعرف إلاّ في العصر الحديث موضوع ((**الحق العام**)) في الفقه القانوني، بينما نجد القرآن الكريم قد سبق القوانين الوضعية بأكثر من (١٤٠٠) عام، فالله تعالى يبين بشكل واضح **{أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}** فالجريمة

---

([1]) البخاري: صحيح البخاري، ٨٧/٢ ، (اللفظ له) . مسلم: صحيح مسلم، ٥٨/٣ .

([2]) فاروق السامرائي: حقوق الإنسان في القرآن الكريم، بحث منشور في كتاب (حقوق الإنسان في الفكر العربي)، ص١١٢.

([3]) وهبة الزحيلي: حق الحرية في العالم، ط١، دمشق، دار الفكر، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص ٧٨ .

([4]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ١، ص١٦٤-١٦٥ .

ليست اعتداءً على فرد، بل اعتداءٌ على البشرية جمعاء، وتعدّ خطراً يعمّ المجتمع، فهناك حق عام لابدّ أن يُؤخَذ ([1]).

وقد بدأ إعلاء قيمة الإنسان يوم أن خلقه الله، {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}(التين: ٤)، {وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ}(السجدة: ٩)، وخاطبه بصيغة المفرد بـ :{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}(الانفطار: ٦)، وزاد في تكريمه بأن جعله خليفته في الأرض، قال تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}(البقرة: ٣٠)، وهذا الاستخلاف يجعل الإنسان ويرفعه إلى درجة أن يكون مواطناً في مملكة الله، ويجعل منه نكتة الكون وحقيقة الوجود وبرزخ الغيب والشهادة ([2])، يقول سعيد حوّى في تفسير هذه الآية: " إنّ أقوى الأقوال هي أنّ آدم خليفة عن الله " ([3]).

وفي آيات خلق آدم، والأمر بالسجود له من قبل الملائكة – والذي ورد في سبعة مواضع: خمسة مواضع منها بلفظ الأمر{اسْجُدُواْ} وموضعين بلفظ {فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}، وهي عبارة عن مبادرتهم إلى السجود ([4]) – وإدخاله الجنة، وفي " آيات إخبار آدم بأسماء المسميات، دلالة واضحة على شرف الإنسان وتفضيله على غيره من المخلوقات... وعلى أفضلية آدم على الملائكة " ([5]). قال تعالى:{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}(البقرة: ٣١)، قال مجاهد في تفسير قوله تعالى:{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاء كُلَّهَا} " علّمه اسم كل شيء " ([6])، وقال الشوكاني: " الأسماء: هي العبارات والمراد: أسماء المسميات، قال بذلك أكثر العلماء وهو المعنى الحقيقي للاسم " ([7])، وقال سعيد حوّى: " علّم آدم أسماء المسميات كلها، فأراه الأجناس التي خلقها " ([8])، " والدليل على أنه تعالى علّمه أسماء المخلوقات، ما جاء في حديث الشفاعة العظمى قوله (ﷺ): ((.. فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس، خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كل شيء ..)) ([9])، قال ابن كثير: "

---

([5]) ينظر: عمرو خالد: خواطر قرآنية، ص ٨٩ .

([1]) شمس الدين الكيلاني: مفاهيم حقوق الإنسان في المذاهب الإسلامية، ص ٣١٤-٣١٥ .

([2]) سعيد حوى: الأساس في التفسير، مج ١، ص ١١٥ .

([3]) ينظر: الراغب الاصبهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٨٨٠، (مادة وقع ).

([4]) وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ١، ص ١٣١ .

([5]) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج ١، ج ١، ص ٣٠٩ .

([6]) الشوكاني: فتح القدير، مج ١، ص ٩٤ .

([7]) سعيد حوى: الأساس في التفسير، مج ١، ص ١١٦ .

([8]) البخاري: صحيح البخاري، ١٤٧/٥ .

هذا مقامٌ ذَكَرَ الله تعالى فيه شرَف آدم على الملائكةِ بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم " ([1]).

وحرّر الله هذا الإنسان من عقدة الخطيئة – التي ظلّت تلازمه في المسيحية – عندما قبِل توبته، قال تعالى:{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}(البقرة: ٣٧)، فلم يعد يحتاج لوساطة أحد للوصول إلى النجاة سوى استقامته الشخصية ([2]).

وحول إعلاء ((**قيمة الإنسان**)) في الشريعة الإسلامية، ذهب العلماء إلى ضرورة الحفاظ على نوعه وإيجاد حقوقه المتعددة من الكسوة والمسكن والقوت والأمن.. والمحافظة على هذه الحقوق وسيلة لقيام الدين.. ونظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، ونظام الدين بالمعرفة والعبادة، ولا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن... ولا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على الضروريات ([3]).

ولا يمكن أن يكتمل تكريم الله سبحانه للإنسان إلا إذا تحقق لهذا الإنسان الأمن الاجتماعي على الكفاية من حاجات المعاش... وعلى ما تزدهر به إنسانيته من حقوق. ولا سبيل لقيام الأمن الاجتماعي، في المعاش المادي وفي الحقوق الأدبية، إلا إذا كان لهذا الإنسان الوطن الآمن، الذي يقيم فيه العمران، ويحقق على أرضه الأمانة التي حملها عندما استخلفه الله ((سبحانه وتعالى))، في استعمار الأرض وعمران هذه الحياة ([4])، قال تعالى:{لإِيلافِ قُرَيْشٍ، إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}(قريش: ١-٤)، ففي هذه الآية الكريمة يمتن الله على ((**قريش**)) بأمرين: **الأول: الاكتفاء الذاتي (الاقتصادي – الغذائي)، والثاني: الأمن الاجتماعي والسياسي.**

وهما عماد الحياة والحضارة. فالاكتفاء الذاتي والأمن قيمتان رئيستان وشاملتان تشملان الاكتفاء والأمن للفرد والمجتمع والدولة، ولجميع مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية..

---

([9]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٩٤ .

([10]) شمس الدين الكيلاني: مفاهيم حقوق الإنسان في المذاهب الإسلامية، ص ٣١٥ .

([1]) ينظر: محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد، الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، قدم له وعلق عليه وشرحه: علي بو ملحم، ط١، دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٣م، بيروت، ص ٢٥٤-٢٥٥ .

([2]) ينظر: محمد عمارة: الإسلام والأمن الاجتماعي، ص ١٢١-١٢٢ .

ويؤكد القرآن على هذا الأمر بالنسبة لكل السابقين من أهل الأديان جميعاً، قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}(البقرة: ٦٢) ([1]).

([3]) ينظر: إسماعيل عبد الفتاح: القيم السياسية في الإسلام، ط١، ٢٠٠١م، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ص١٦٤ .

# المطلب الثاني
# إعلاء قيمة الحرية

جعل القرآن الكريم ((العبودية)) لله ((سبحانه وتعالى))، ونعني بها الخضوع والدينونة العامة له ((سبحانه))، قمة الهرم القيمي في المجتمع الاسلامي، قال تعالى:{**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**}(الذاريات: ٥٦)، فهي من أكبر الثوابت والمقدسات في المجتمع، وتحقيق هذه القيمة وعدم المساس بها، لها الأولوية المطلقة التي ينبغي أن تخضع لها أو تتقيد بها أو تنتظم معها قيم المجتمع الأخرى بما فيها الحقوق والحريات.

وفي هذا الإطار نلاحظ أن تحقيق ((العبودية)) لله ((سبحانه وتعالى)) يتناسب طردياً مع ((التحرر)) من المخلوقات؛ فكلما عظمت حقيقة ((العبودية)) لله ((سبحانه وتعالى)) وارتفعت في نفس الإنسان، ازداد تحرره من المخلوقين. وتجعله يتحرر حتى من سيطرة الأشياء والتعلق بها، قال النبي (ﷺ): ((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ)) ([1]).

فالحرية الانسانية في الاسلام تبدأ من العبودية لله تعالى وحده كأساس لتحرر الأفراد في علاقاتهم مع غيرهم، قال تعالى: {**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**}(آل عمران: ٦٤)، وعلى هذا المبدأ تقرر في النص القرآني، أن: {**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ**}(البقرة: ٢٥٦)، حيث أن الحرية في اختيار الدين هنا، تشكل أنموذجا متقدماً لممارسة الحرية الانسانية، باعتبار أن الرشد قد تبين من الغي، مما لم تعد معه حاجة للإكراه، لاسيما وأن الدين ليس كلمات جامدة ترددها الشفاه بغيبية – أي بدون شعور أو بدون إدراك لمعانيها ومضامينها –، أو بمجرد طقوس يؤديها الجسم، وإنما هو عقيدة وقناعة وصدق ومنهج في التفكير والسلوك ([2]).

وعليه فالإسلام بهذه العقيدة يحرر الإنسان من عبودية الأشخاص والأشياء، يحرره من كل ألوان الطواغيت المادية التي تستلب منه الإرادة والحرية والاختيار !.. ([3])، ويجعله يعيش في فضاء الحرية الواسع الرحب.

---

([1]) خالد أبو الفتوح: الإسلام والليبرالية، مقال منشور في مجلة البيان: السنة ٢٠، العدد ٢١٩، ٢٠٠٥م، ص ٦٠–٦١، وهي: (مجلة إسلامية شهرية جامعة تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن). والحديث سبق تخريجه: ص ١١٠ .

([2]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ١٤٧–١٤٨ .

([3]) محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، مارس ١٩٩٧، القاهرة، دار نهضة مصر، (د. ط)، ص ١٠٠ .

والمقصود بالحرية، كما حدّدها المادة الرابعة من إعلان حقوق الإنسان الفرنسي الصادر سنة (١٨٧٩م): هو قدرة الإنسان على إتيان كل عمل لا يضرّ بالآخرين. وعرّفها بعض القانونيين بأنّها الملَكة الخاصة التي تميز الإنسان من حيث هو موجود عاقل، يصدر في أفعاله عن إرادته هو، لا عن إرادة أخرى غريبة عنه، فالحرية تعني انعدام القسر الخارجي.

وفي الاصطلاح الشرعي: هي ما يميز الإنسان عن غيره، ويتمكن بها من ممارسة أفعاله وأقواله وتصرفاته، بإرادة واختيار، من غير قسر ولا إكراه، ولكن ضمن حدود معينة ([1]). وهي الإباحة التي تُمَكِّنُ الإنسان من الفعل المُعبِّر عن إرادته، في أي ميدان من ميادين الفعل أو الترك، وبأي لون من ألوان التعبير. فالحرية ضد العبودية.. والحرّ نقيض العبد والرقيق.. ([2]).

يتبين من هذه التعاريف: أنّ الحرية ليست مطلقة، بل مقيدة بعدم إضرار الشخص لغيره، لذا وجب تنظيمها على نحو يمنع الإسراف فيها أو إساءة استعمالها، وينبغي أن يكون تنظيمها عاماً، أي أن توضع للجميع بناء على قوانين أو لوائح تنتظم كل الأفراد، دون تفريق أو تمييز من خلال التنفيذ أو التطبيق العملي ([3]).

فالحرية مفهوم سياسي واقتصادي وفلسفي وأخلاقي عام ذو مدلولات متعددة ومتشعبة، ويمكن تمييز ثلاثة مستويات لتعريفها:

**الأول:** المستوى اللغوي العادي، والذي يعني انعدام القيود القمعية أو الزجرية، كما أنها نقيض العبودية والتبعية.

**والثاني:** يقع في نطاق التفكير الأخلاقي والسياسي، وتتضمن عدداً معيناً من الحقوق المكتسبة المعترف بها والمكرّسة في إطارات ومؤسسات، منها: الحريات المدنية، السياسية، العامة، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية..

**والمستوى الثالث:** مستوى الفلسفة الخالصة، أي التساؤل عن ماهية الواقع الذي يكون فيه الإنسان هو صاحب أفعاله والمسؤول عنها، أي عن ماهية الحرية وجوهرها ([4]).

**أنواع الحريات:** للحرية تقسيمات مختلفة لدى المفكرين وفقهاء القانون، ويرى بعضهم التمييز بين نوعين من الحريات الفردية، وهما:

---

([1]) وهبة الزحيلي: حق الحرية في العالم، ص ٣٩ .

([2]) محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص ٩٧ .

([3]) ينظر: وهبة الزحيلي: حق الحرية في العالم، ص ٣٩ .

([4]) عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

**النوع الأول:** الحريات ذات المضمون المادّي أو المتصلة بمصالح الفرد المادّية ومظاهرها، وهي أربعة أنواع: (الحرية الشخصية وحرية التملك أو حق التملك وحرية المسكن وحرمته وحرية العمل والتجارة والصناعة).

**النوع الثاني:** الحريات المتصلة بمصالح الأفراد المعنوية، وهي تشمل أربعة أنواع أيضاً: (الحرية الدينية وحرية الرأي والاجتماع والصحافة وتكوين الجمعيات وحرية التعليم والتعلّم وحق تقدم العرائض: وهو حق الإنسان في أن يتقدم بمطالبه مكتوبة إلى السلطات العامة ([1]).

**ماهية وضرورة الحرية:**

الحرية هي الوضع الطبيعي الذي يولد عليه البشر، يؤكد ذلك قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) [٤٠ ق. هـ - ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م] لعمرو بن العاص: (مُذ كمْ تعبّدتمُ الناسَ وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً !.) ([2])، واحترام وتقدير وحفظ هذا الوضع الطبيعي الذي يولد عليه البشر هو الامر الذي يضفي الجمال والجلال على الحياة ([3])، فهي نداء الفطرة السليمة في النفس البشرية، لذلك كل الناس يحنّون إليها، من دون مطالبة أو إكراه أو فرض.

والحرية ضرورة وجودية إنسانية قبل أن تكون ضرورة شرعية أو اجتماعية أو سياسية. فهي الأساس لتكوين الشخصية المستقلة للإنسان، والأساس في ابداعه وتفوقه، فهي قيمة ايجابية تمنح الأفراد والجماعات: ((**حقوق التصرف غير المقيد**)) شريطة أن لا تمس هذه الحقوق حقوق الآخرين ولا تتقاطع مع ضوابط وقوانين المجتمع ومثله وعاداته وتقاليده ([4]).

فالحرية تعدّ من العوامل الأساسية لتنمية وتقدم المجتمع في المجالات كافة، وتمكّن المجتمع من تكوين الأجواء الحضارية الايجابية التي تساعد على ظهور الأفكار والطروحات والنظريات الجديدة التي لا تُنظِّم المجال القيمي والسياسي والايديولوجي فحسب بل تُنظِّم المجال العلمي والتكنولوجي أيضاً ([5]).

وتعبر الحرية عن نفسها في مجالين أساسيين، هما: المجال الجمعي للحرية، وهو قدرة أو حق المجتمع على اختيار الطريق الذي يسير فيه والذي يحقق طموحاته وأهدافه. والمجال الفردي

---

([1]) ينظر: وهبة الزحيلي: حق الحرية في العالم، ص ٧١-٧٣ .

([2]) المتقي الهندي: كنز العمال، ٦٦١/١٢ . نهج البلاغة: خطب الإمام علي (عليه السلام)، ٩٨/١١ .

([3]) ينظر: هارولد ج . لاسكي: الحرية في الدولة الحديثة، ص ١٣٣ .

([4]) احسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع، ص ٢٥٦ .

([5]) المصدر نفسه، ص ٢٥٧ .

للحرية، وهو المجال الذي يمنح الفرد حق التفكير والسلوك الحر الذي يطوِّر إمكانياته الذاتية، ويفجِّر قابلياته المبدعة والخلاّقة ([1]).

**الإسلام والحرية:**

مقام ((**الحرية**)) في الإسلام يبلغ في الأهمية وسلّم الأولويات، مقام ((**الحياة**))، التي هي نقطة البدء والمنتهى وجماع علاقة الإنسان بوجوده الدنيوي .. فهي فريضة اجتماعية، وتكليف إلهي، تتأسس عليها أمانة المسؤولية ورسالة الاستخلاف، التي هي: جماع المقاصد الالهية من خلق الانسان.. فالإسلام عدّ ((الرق)) بمثابة ((الموت)) وعدّ ((الحرية)) إحياءً و ((حياةً)) .. فعتق الرقبة – أي تحرير الرقيق – هو إخراج له من الموت الحكمي، الى حكم الحياة، ((**الحياة**)) التي يمكن من خلالها القيام بوظيفة ((**الخلافة**)) على الأرض ([2]).

يقول الإمام النسفي ([3]) في تفسيره للآية:{**وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خطئاً فتحرير رقبة مؤمنةٍ**}(النساء: **٩٢**): " لما أخرج – أي القاتل – نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قِبَلِ أن الرقيق مُلحقٌ بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكماً {**أوَ مَنْ كانَ ميّتاً فأحيَيناه**} !.." ([4]).

فالإسلام عندما يهدي إنما يحرر، وعندما يحرر فإنه يحقق للإنسان الضرورة المحققة لمعنى ((**الحياة**)) وحقيقة ((**الحياة**)) ! .. فالحرية، في النظرة الإسلامية ضرورة من الضرورات الإنسانية، وفريضة إلهية وتكليف شرعي واجب .. وليست مجرد ((**حق**)) من الحقوق، يجوز لصاحبها أن يتنازل عنها إن هو أراد !.. ([5]).

ومما يؤهل القيم الإسلامية، أو رسالة الإسلام للعالمية، إقرارها الحريات العامة، وأهمها: حرِّية النفس وتقديس حقّ الحياة، وحرمة العقل والعرض والمال والمنزل، وحرِّية الاعتقاد والرأي والتعبير وحق العمل وحريته، وحرية التعلم على أنه حق وواجب، والحرية الاقتصادية: التي

---

([1]) إحسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع، ص **٢٥٧–٢٥٨** .

([2]) ينظر: محمد عمارة: معركة المصطلحات، ص **٩٨** . محمد عمارة: الاسلام والامن الاجتماعي، ص**٨٥–٨٨** .

([3]) النسفي (...– **٧١٠هـ**): عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات، حافظ الدين: فقيه حنفي، مفسر، نسبته إلى (نسف) ببلاد السند، له مصنفات جليلة، منها: (مدارك التنزيل) في تفسير القرآن ، (كنز الدقائق) في الفقه، (المنار) في أصول الفقه، (عمدة العقائد) في العقيدة. توفي في إيذج. الزركلي: الأعلام، مج ٤، ص ٦٧ .

([4]) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج **١**، ص **٢٤٣** .

([5]) محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص **٩٨** .

تتضمن حرية التملك وإقرار حق الملكية الفردية مقرونة بالعدالة الاجتماعية، وحرية التعاقد والاشتراط، وحرية الاتِّجار والتَّصرفات، وإلزام الوفاء في العقود، مع التقيّد بالمحظور شرعاً ([1]).

وإنّ من أهم الحريات التي قرّرها الإسلام، هي: ((**حرية التدين**)) و ((**مبدأ الاختلاف**))، إذ إنَّ حرية التدين تعدّ من أرقى خصائص الإنسانية وكرامتها، قال تعالى:{**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**}(البقرة: ٢٥٦)، وقال تعالى:{**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**}(الغاشية: ٢٢) وقال تعالى:{**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**}(الإنسان: ٣)، ومصداق ذلك عملياً أن قَبِل الإسلام في مجتمعه ((**الآخر**))، المغاير عقيدةً وديناً، واعترف به، و عَدّه محلاً للدعوة والحوار، وأفرد القرآن الكريم مساحات كبيرة جداً لهذا ((**الآخر**))، ليتمكن المسلم من فهمه وكيفية التعامل معه، و عَدّ الإسلام سنن المدافعة، سبيلاً لحماية حرية التدين، وحماية أماكن العبادة المختلفة، قال ((سبحانه وتعالى)): {**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**}(الحج: ٤٠) ([2]).

وفي قوله تعالى:{**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**}(البقرة: ٢٥٦)، يقول الشوكاني: "اختلف أهل العلم في قوله تعالى:{**لاَ إِكْرَاهَ..**} على أقوال.. وذكر منها: سبعاً.. وقال في السابعة: والذي ينبغي اعتماده ويتعين الوقوف عنده: أنها في السبب الذي نزلت لأجله **محكمة غير منسوخة**، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلاتًا فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ فَقَالُوا لا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ**} قَالَ أَبُو دَاوُد: الْمِقْلاتُ الَّتِي لا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ " ([3]). وقد وردت هذه القصة من وجوه، حاصلها ما ذكره ابن عباس (رضي الله عنهما) مع زيادات تتضمن أن الأنصار، قالوا: إنما جعلناهم – أي أبناءنا – على دينهم – أي دين اليهود –، ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا، وأن الله جاء بالإسلام فلنُكْرِهنَّهم؛ فلما نزلت:{**لاَ إِكْرَاهَ..**}، خيِّر الأبناءَ رسولُ الله و لم يكرههُمْ على الإسلام ([4]). ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية:{**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**} " أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكْرَهَ أحدٌ على الدخول فيه... فإنه لا يفيده الدخول في الدين مُكرهاً

---

([1]) ينظر: وهبة الزحيلي: حق الحرية في العالم، ص ٨٣–٨٤ .

([2]) ينظر: بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة / رؤية نقدية، ص ٥٣–٥٤ .

([3]) أبو داود: سنن أبي داود، ٦٠٦/١ . النسائي: السنن الكبرى، ٣٠٥/٦ .

([4]) ينظر: الشوكاني: فتح القدير، مج ١، ص ٤٠٩–٤١٠ .

مَقسوراً " ([1]). وفي مبدأ ((**عدم الاكراه**)) يظهر ويتجلى تكريم الله للإنسان؛ واحترام إرادته وفكره ومشاعره؛ وترك أمره لنفسه فيما يخص بالهدى والضلال في الاعتقاد؛ وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.. وهذه أخص خصائص التحرر الإنساني.. ([2])، وتقرير الإسلام لحرية الضمير في الاعتقاد الديني وترك أمر الإنسان لنفسه فيما يختاره في الاعتقاد، لشاهد على تقديس حرية الإنسان في كل الميادين.. قال تعالى: {**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**}(البلد: ١٠)، وقال تعالى:{**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**}(الإنسان: ٣)، فهو حر حتى في أن يكفر، إذا كان الكفر هو خياره واختياره، وقال:{**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**}(هود: ٢٨)، وقال:{**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**} (يونس: ٩٩)، لقد أراد الله للناس الهدى والإيمان.. لكنه جعل لهم، مع هذه الإرادة الإلهية، الحرية والتخيير والتمكين.. ([3]).

فالقرآن الكريم يؤسس منهجه في الحياة على **أصول الحرية**، وذلك برفعه كل سيطرة وتحكم عن الإنسان، وفق مبدأ ((**اللاإكراه**))، بقوله تعالى:{**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**}(البقرة: ٢٥٦)، وأمره أيضاً بالعدل والمساواة والقسط والإخاء، وحضه على الإحسان والتحابب، بقوله تعالى:{**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**}(النحل: ٩٠)، وقوله تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ**}(النساء: ١٣٥).

لذا فإن قيمة الحرية التي أكّدت عليها النصوص القرآنية، مع تأكيدها على إشراك الأمة في اختيار الحاكم، تعدّ إحدى المبادئ الأولية للوقوف أمام فكر الاستبداد فمن السبل لحماية الحرية هو المساهمة في الحكم، وذلك يعني إشراك المحكومين في ممارسة السلطة لمنع هذه الأخيرة – أي السلطة – مِنْ أن تُفرض عليهم تدابير تعسفية ([4])، وخير ما يدلُّ في الإسلام على تحمل مسؤولية احترام الحريات والحقوق الإنسانية: الآية الكريمة:{**وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً**}(الإسراء: ١٧)، والحديث المتفق عليه: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...)) ([5]).

---

([5]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٦٢ .

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ١، ص ٢٩١ .

([2]) محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص ١٠٠ .

([3]) ينظر: صالح جواد كاظم–علي غالب العاني: الأنظمة السياسية، ص ٢١ .

([4]) وهبة الزحيلي: حق الحرية في العالم، ص ٦٢ . والحديث أخرجه البخاري: صحيح البخاري، ٢١٥/١ ، ٧٩/٢، ٨٨/٣ ، ١٢٥/٣، (واللفظ له). ومسلم: صحيح مسلم، ٨/٦ . وأحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٥/٢ ، ٥٤/٢.

وعليه فاحترام الحقوق والحريات، تُعد ضمانة أساسية للتصدي للاستبداد والحد من التسلّط والاستفراد.

# المطلب الثالث

## إعلاء قيمة العدل والمساواة

في القرآن الكريم آيات عديدة تؤكد وتركّز على قيمتي العدل والمساواة وتأمر بالقسط، وتظهر وتبين أنّ إرساء العدل وتقويم واقع الناس بأحكام الدين وتحقيق المساواة لا يقل منزلة وأهمية عن إنزال الكتب وإرسال الأنبياء ([1])، قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}(الحديد: ٢٥)، وقال تعالى:{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ}(الأعراف: ٢٩)، وقال تعالى:{وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ}(الشورى: ١٥).

وقد وردت تصريفات كلمة ((**عدل**)) في (١١) سورة من القرآن الكريم (٢٨) مرة.

وقد وردت تصريفات كلمة ((**القِسْط**)) أيضاً وهي في أغلبها أتت بمعنى العدل في (١٧) سورة من القرآن الكريم (٢٧) مرة، – ماعدا المأخوذة من القَسْطِ، مثل القاسطون، فهي بمعنى الجور والظلم–، قال تعالى:{وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا}(الجن: ١٥)، و((**القسطاس**)) بمعنى: الميزان، ويُعَبَّرُ به عن العدالة كما يُعَبَّرُ عنها بالميزان ([2]).

وفي موضوع العدل والقِسْط نجد باقة من الآيات القرآنية تحض عليه وتأمر به: أمراً مجملاً شاملاً للشؤون كلها – في عديد من الآيات – وأمراً مفصلاً خاصاً ببعض الأمور التي يتوقع فيها الحيف والظلم – في بعض الآيات الأخرى – ([3])، منها:

قوله تعالى:{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}(النساء: ٥٨).

وقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}(النساء: ١٣٥).

وقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(المائدة: ٨).

---

([1]) ينظر: بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة / رؤية نقدية، ص ١١، ( تقديم عمر عبيد حسنة للكتاب).

([2]) ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٦٩١–٦٩٢. الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٧٠ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٦٢٨.

([3]) محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، طبعة دار الشروق الأولى، ١٤١٠هـ–١٩٨٩م، دار الشروق، القاهرة، ص ٢٠٥ .

وقوله تعالى:{اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ}(الشورى: ١٧)، قال الزجّاج: " الميزان: العدل " ([1])، " كذا قال أكثر المفسرين، حيث قالوا: وسمى العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق " ([2]).

ومن هنا يظهر لنا بأن العدل من المنظور القرآني فريضة واجبة، وضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية والاجتماعية، فرضها الله ((سبحانه وتعالى))، على الجميع بلا استثناء.. حتى لقد جعل ((**العدل**)) اسماً من أسمائه الحسنى ([3]) !.. وتتسع دائرة مسؤوليته – أي العدل – من مستوى علاقات الأفراد والأسرة لتشمل دائرة الحياة والمجتمع في كل شؤونهما، فهو واجب على أولياء الأمور في المجتمع وفي السياسة..

وقد فرضها على الأنبياء المعصومين (عليهم الصلاة والسلام)، وأمرهم بالعدل وعدم إتباع الهوى، قال تعالى:{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}(ص: ٢٦)، قال تعالى:{فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ} أي: بالعدل ([4])، وقال تعالى:{وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ}(الشورى: ١٥).

وفرضها على أولياء الأمور، من الحكام والقضاة، تجاه المحكومين والمتنازعين، قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}(النساء: ٥٨) ([5])، وتسمى هذه الآية بـ ((**آية الأمراء**))، وقد كتب فيها ابن تيمية رسالة خاصة سمّاها بـ (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، وحول موضوع رسالته يقول: وهذه رسالة مبنية على آية الأمراء في كتاب الله، ويذكر الآية، وبعدها يقول: قال العلماء نزلت الآية في ولاة الأمور؛ عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا

---

([1]) الزجّاج: معاني القرآن وإعرابه، مج ٤، ص ٣٩٦ .

([2]) الشوكاني: فتح القدير، مج ٤، ص ٧٤٥ .

([3]) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ١٧/١، (الحديث بلفظ: إن لله تسعة وتسعين اسماً... ذكر منها: – العدل والمقسط – أي العادل–). البيهقي: السنن الكبرى، ٢٧/١٠ .

([4]) عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج، جمال الدين، الجوزي القرشي البغدادي: زاد المسير في علم التفسير، ج٧، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ص ٢٠ . محمد بن أحمد، الأنصاري، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٥، ١٤٠٥هـ –١٩٨٥م، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د. ط)، ص ١٨٩.

([5]) ينظر: محمد عمارة: الإسلام والأمن الاجتماعي، ص ٨٩–٩٠.

حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل... فالآية أوجبت عليهم أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماعُ السياسة العادلة، والولاية الصالحة ([1]).

وقال الرازي في تفسير قوله تعالى:{وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}، " أجمعوا على أنّ من كان حاكماً وجب عليه أن يحكم بالعدل " ([2]). قال النسفي:{بِالْعَدْلِ} أي " بالسوية والإنصاف " ([3]).

" وقد يبدو للوهلة الأولى أنّ هذه الآية الكريمة يقتصر نطاقها على التطبيق في مجال القضاء، والحكم في المنازعات وفق قواعد العدالة. غير أن هذا الفهم لا يتفق وما ذهب إليه جماهير المفسرين لكتاب الله إذ يقررون أنّ «المراد من الحكم في هذه الآية هو ما كان عن ولاية عامة أو خاصة» " ([4]).

ومن وصية النبي (ﷺ) لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه)، وقد بعثه إلى اليمن قاضياً، ندرك ونشعر بضخامة المسؤولية في الظلم، وبحساسية حق المظلوم وبمدى قربه من الله، يقول (ﷺ): ((اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ)) ([5]).

وفي مستوى علاقات الأفراد والأسرة والمجتمع، يقول (ﷺ): ((اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ)) ([6])، ويقول (ﷺ): ((فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ)) ([7])، وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَقَالَ: (إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلامًا) فَقَالَ: ((أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ)) قَالَ: (لا) قَالَ: ((فَارْجِعْهُ)) ([8])، وقال (ﷺ): ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ..)) ([9]).. وإلى غيرها من الأحاديث التي تأمر بالعدل وتحرم الظلم.

---

([1]) ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص ٤-٥ .

([2]) الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ٥، ج ١٠، ص ١٤١ .

([3]) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ١، ص ٢٣٢ .

([4]) محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص ٢٠٥-٢٠٦ .

([5]) البخاري: صحيح البخاري، ١٣٦/٢ ، ٩٩/٣ ، ٣٣/٤ ، ١٠٩/٥، (واللفظ له) . مسلم: صحيح مسلم، ٣٨/١ .

([6]) البخاري: صحيح البخاري، ١٣٤/٣ .

([7]) البخاري: صحيح البخاري، ١٣٤/٣ . البيهقي: السنن الكبرى، ١٦٧/٦ .

([8]) البخاري: صحيح البخاري، ١٣٤/٣ . علي بن عمر الدارقطني: سنن الدارقطني، تحقيق: مجدي بن منصور الشوري، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ٣٧/٣. أحمد بن علي، أبو عبد الرحمن، النسائي: سنن النسائي، ط١، ١٣٤٨هـ-١٩٣٠م، دار الفكر، بيروت، ٢٥٨/٦. أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٢٦٩/٤.

([9]) البخاري: صحيح البخاري، ٩٨/٣ . أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٩١/٢ .

وجعل الله القيام بالعدل في الأمور كلها سبباً لصلاح الأحوال، وضده سبباً لفسادها واختلافها شاهدُهُ، قوله تعالى:{وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}(الرحمن: ٧-٩) ([1]).

وبذلك رسّخ النص القرآني مفاهيم العدل، وأمر بالتصدي للظلم والاستبداد، ومحاربة الظالمين ومقاومة الطغاة، قال تعالى:{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(آل عمران: ١٠٤)، وكرَّرَ التحذيرَ من الظلمِ وبيّن عاقبته ونهايته في آيات مستفيضة، منها، قوله تعالى:{وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ}(الأعراف: ١٦٥)، وقوله أيضاً:{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}(يونس: ١٣).

والسنة النبوية حملت على الأمراء الظلمة والجبابرة، وحملت على الذين يسيرون في ركابهم، ونددت بالأمة التي لا تأخذ بيد الظالم ولا تَقْدِر أن تقول له: يا ظالم. قال رسول الله (ﷺ): ((إنّ في جهنم وادياً، وفي الوادي بئر، يقال له هبهب، حقٌ على الله أن يسكنه كل جبار عنيد)) ([2])، وقال (ﷺ): ((إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ)) ([3]).

ولأهمية العدل في حياة البشرية، يبين الله ((سبحانه وتعالى)) أنه ما أرسل الرسل بالبينات، وما أنزل معهم الكتاب والميزان، إلاّ ليقيموا بالعدل، قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}(الحديد: ٢٥).

والآيات تحذرنا من إتباع الهوى، وتشدد على القيام بالعدل، قال تعالى:{فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى} لأنه عامل خطير في التسبب بظلم الناس والتحيّز وعدم الإنصاف ([4])، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}(النساء: ١٣٥)، يقول الزمخشري:{قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ} أي: " مجتهدين في إقامة العدل حتى لا

---

([1]) عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ص ١٩٥ .

([2]) الطبراني: المعجم الأوسط، ٣٧/٤ . عبد الله بن بهرام الدارمي: سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق، (د. ت ، د. ط)، ٣٣١/٢ . الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ٥٩٧/٤، وقال: هذا حديث صحيح .

([3]) ينظر: يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة، ج ٢، ص ٧٠٩ . والحديث سبق تخريجه: ص ١٤٣ .

([4]) ينظر: عمرو خالد: خواطر قرآنية، ص ٧٧ .

تجوروا " ([1])، والآية تأمر بالقسط على إطلاقه، من دون أي تقييد، في كل حال وفي كل مجال، القسط الذي يمنع البغي والظلم – في الأرض – والذي يكفل العدل – بين الناس – والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين.. ففي هذا الحق يتساوى عند الله، المؤمنون وغيرُ المؤمنين... ويتساوى الأقارب والأباعد، ويتساوى الأصدقاء والأعداء، ويتساوى الأغنياء والفقراء ([2]).

والقرآن الكريم يقرر العدل حتى مع القوم الذين يصدون عن بيوت الله، قال تعالى:{**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**}(المائدة: ٢)، وهذا إقرار للعدل وعدم الاعتداء ولو كان القوم من الذين يصدون عن ((**بيوت الله**)).

وقال تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**}(المائدة: ٨)، فهذه الآية، والآية التي قبلها تعدّان قاعدة مهمة وأساسية من قواعد الحكم في الإسلام في تسامحه وعدله مع الجميع، ومن دون تحديد هوية المقابل، فالقيم التي يدعو إليها القرآن الكريم ليست حكراً على طبقة، أو جنس، أو قوم، أو زمان، أو مكان، أو أشخاص، {**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ**} فالعدل مأمور به ومطلوب ولو مع الناس الذين نبغضهم ولو مع الناس الذين نحاربهم، فالآيات واضحة وصريحة في وجوب العدل حتى مع الأعداء!..([3])، وهكذا يتحقق للعالم إقامة الميزان، وينعم بالمساواة، ويتخلص من كل معاني الانحياز والتسلط والهيمنة والتمييز.

والخطاب القرآني في الكثير من المرات يبدأ بـ:{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**} ويأمرهم جميعاً بالتقوى، متضمناً التحذير من الظلم والطغيان فيما بينهم، ومبيناً أن أصلهم واحد، وذلك لأن العدل قانون عام للجميع بلا استثناء ، قال تعالى:{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**}(النساء: ١).

فهذه الآية تخبرنا بأنّ الأصل الإنساني واحد{**مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**} فَلِمَ الظُّلْمُ ؟؟. والملاحظ أنّ السورة بدأت بخطاب عالمي عام بقوله تعالى:{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**} وذلك لأن العدل قانون عام للأمم جميعاً فلا يمكن لأمة أن تسود في الأرض وهي ظالمة، فالعدل أساس الملك وأساس الاستقرار

---

([5]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٢٦٤ .

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٢، ص ٧٧٥ .

([2]) ينظر: عمرو خالد: خواطر قرآنية، ص ٨٦ .

وأساس الاستخلاف ([1])، يقول ((سبحانه وتعالى)):{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}(النساء: ٥٨)، فالآية تشير بكل صراحة ووضوح إلى موضوع ((الحكم)) وإلى ضرورة أن يكون ((عادلاً))، ومن دون تحديد هوية الذين يتم الحكم بينهم أو عليهم، فالخطاب عام، والنص مطلق غير مقيد، والمطلوب هو العدل الشامل بين الجميع. فالأصل هو العدل، والعدل المطلوب أن يُحكم به في هذا النص القرآني بين الناس – كل الناس – وليس بين المسلمين فقط، فالنص يطلقه هكذا عدلاً شاملاً {بَيْنَ النَّاسِ} جميعاً.. فهو حق لكل إنسان بوصفه ((إنساناً، وهي الصفة التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني. وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعاً ([2])، والنص يأمر بالعدالة في الأرض، والحكم بالعدل حتى مع الأقربين والأبعدين والأصدقاء والأعداء، **ومبدأ العدالة** الذي يقرره النص القرآني يضمن حقوق ومصالح الناس في كل زمان ومكان ويتسع لكل تنظيم يحقق العدل ([3]).

وخليفة الله في الارض إنما هو خليفة لكي يحكم بين الخلق بالعدل، يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}(البقرة: ٣٠)، " إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وإنّ ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه " ([4]).

وحديث الرسول (ﷺ): ((يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة)) وجاء في رواية أخرى ((عدل ساعة خير من عبادة سنة)) ([5]) يلخص النهج الذي أراده الإسلام لنوع الحكم ([6]).

وتبدو أهمية قيمة العدل في الحياة السياسية والاجتماعية إلى حد أنه يبدو طبيعياً أن نعدّها الشرط الأساس لوجود ((**دولة**)) بتنظيمها السياسي والقانوني والاجتماعي، فهي ضرورة اجتماعية لأن الحق هو قاعدة الاجتماع السياسي – الدولة – وتقرير العادل هو ذلك الذي

---

([3]) ينظر: المصدر نفسه، ص ٦٦ .

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٢، ص ٦٨٩ .

([2]) ينظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص ٤٨ .

([3]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٦٨.

([4]) البيهقي: السنن الكبرى، ١٦٢/٨. جمال الدين الزيلعي، نصب الراية لأحاديث الهداية، تحقيق: أيمن صالح، ط١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٢م، دار الحديث، القاهرة، ٤٤/٥ ، ((رواه اسحاق بن راهويه في مسنده، رواه الطبراني في الأوسط والكبير). جمال الدين الزيلعي: نصب الراية، ٤٤/٥ .

([5]) فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٨ .

يرتب الحق، فإذا غاب العدل فنحن أمام أي شكل اجتماعي آخر غير الدولة، فالنظام العادل هو الذي يعمل لصالح المجتمع ويحترم حقوق المواطنة ويقيم ((**دولة القانون**)) ([1]).

وأينما ظهرت أمارات وعلامات العدل، فإن الإسلام يُقِرُّه، ولا يضيق بأي أسلوب يُحَقِّقُ أغراضه ويؤدي إلى حسن تطبيق مبادئه، فالله ((سبحانه وتعالى)) أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات، فإن ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان: فثم شرع الله ودينه، عليه فكل نظام غير عادل هو نظام ساقط الشرعية غير جدير أن يحمل اسم الإسلام؛ ذلك أنّ الإسلام أمر بالعدل، وحيثما تحقق العدل فثم شرع الله ودينه، وكلما كان العدل أقرب الى الكمال كان أقرب الى الشرع، قال تعالى:{**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**}(النحل: ٩٠)، وقال تعالى:{**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ**}(النساء: ٥٨)... ([2]).

وأمّا القانون فمهمته إحقاق العدل، وذلك بمعاقبة المجرم على قدر جريمته، وبإعطاء كل شخص ما أُخذ منه ظلماً، وبتوزيع الحقوق والواجبات على المواطن، ((**المساواة أمام القانون مثلاً**))، ((**والتفاوت فيما هو متفاوت**))، ((**المكافآت بحسب الاستحقاقات مثلاً**)) ([3]).

وقد نص القرآن الكريم على وجوب فرض العدل على الناس ولو بالقوة، فقال تعالى:{**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**}(الحديد: ٢٥) فالمقصود من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، أن يقوم الناس بالقسط، في حقوق الله، وحقوق خلقه، ثم قال تعالى: {**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ**}، فمن عَدِلَ عن الكتابِ و لم يقم بالعدل بين الناس قُوِّمَ بالحديد –أي بالقوة – ([4]).

فتركيز النص القرآني على مفاهيم العدل ومحاربة الظلم ومقاومة الطغاة، فيها من المعاني والأفكار ما تقوم بتجريد حقيقي لأبرز مقومات الاستبداد، لاسيما وإنّ صلاح الرعية (المحكومين) يسهل تلك المهمة في علاقة ترابطية مع الراعي (الحاكم).

---

([6]) ثناء فؤاد عبد الله: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٨٨ .

([1]) ينظر: ابن قيم الجوزيّة: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ص١٤ . عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص٤٨ .علي جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، ط٢، ١٩٨٦م، دار الوفاء، المنصورة، ص ١٧١. جودت سعيد: مذهب ابن آدم الاول، ط٥، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، دار الفكر المعاصر، لبنان– بيروت، ص٢٧ .

([2]) فرنسيس واوليفر: تاريخ الافكار السياسية، ترجمة: خليل أحمد خليل، ص ٢٥ .

([3]) ينظر: ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص ٢٦ .محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص ٢٠٦ .

و لم يكن الله الحق، المطلق العدل، ليأذن بالظلم أياً كانت صورته، ولقد جاء قوله ((سبحانه وتعالى)) في الحديث القدسي صريحاً: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا)) ([1])، وللظلم صور كثيرة، حرمتها الآيات القرآنية صراحة، منها:

- **العدوان على حدود الله**، قال تعالى:{وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}(الطلاق: ١).
- **العدوان على حقوق الأفراد**، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ... وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...}(الحجرات: ١١).
- **السكوت عن الظالم**، قال تعالى:{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}(الأنفال: ٢٥) أي لا تختص إصابتها لمن يباشر الظلم منكم بل تعمه وغيره، والمراد بالفتنة: إقرار المنكر بين المجتمع، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكاسل عن الجهاد، فوقوع الظلم سببٌ في وقوع البلاء على الأمة من ظلم منها ومن لم يظلم ([2]).
- **الركون إلى الظالمين**، قال تعالى:{وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ}(هود: ١١٣) ([3]).

وتتكرر الآيات للتحذير من الظلم وعذاب الظالمين، بما كانوا يظلمون ويفسقون، فعاقبة الظلم في الدنيا وخيمة، وعاقبته في الآخرة أشد. ويقول الرسول (ﷺ): ((اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ([4])، وإلى غيرها من الآيات والأحاديث التي تحذر من الظلم ومن النهاية المخزية للظالمين، وفيها من العبرة والاتعاظ للابتعاد عن الظلم وعن الظالمين، والعمل ضدهم والتصدي لأفعالهم وتصرفاتهم، وعدم الركون إليهم أو معاونتهم أو الرضا بما يفعلون ويعملون.

واللافت في القصص القرآني، أنّ ((**الامامة**)) التي يعهد بها الله تعالى، لا تورث للظالمين، وفيه من الدلالة الواضحة على وجوب الاتصاف بالعدل في الذين يعهد الله تعالى إليهم الحكم في

---

([1]) ينظر: الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٤٠٩ . الآلوسي: روح المعاني، مج ٥، ج ٩، ص ١٩٢-١٩٤ . ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢٢ . البغوي: معالم التنزيل، مج ٣، ص ٣٤٥-٣٤٦ . محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ط٢، دار المعرفة، بيروت-لبنان، (د. ت)، ج ٢، ص٢٧٥ .

([2]) ينظر: علي جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، ص ١٧٣-١٧٤.

([3]) سبق تخريجه: ص ٥٦ .

([4]) مسلم: صحيح مسلم، ١٧/٨ .

الأرض، قال تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}(البقرة: ١٢٤) ([1]).

وفي هذا كله بناء ثقافة معادية للاستبداد وما يحمله من معاني الظلم والاضطهاد، وفيه تجريد لكل ما يمت للظلم والظالمين، وتعرية لهم، لكي يصبحوا نماذج مرفوضة في الوجود كله.

**وأما بالنسبة للمساواة،** فهي كلمة مأخوذة من سَوَّى الشيء بالشيءِ: أي جعله مثله سواء، فكانا مثلين، والسِّيُّ: المِثل، وهما سِيَّانِ: أي مثلان. والسّواء: العدل، ووسط كل شيء. وسواء الشيء: وسطه، واستوى الشيء: اعتدل ([2]).

والمساواة هي تشابه المكانة الاجتماعية والحقوقية، والمسؤوليات، والفرص للناس في المجتمع، على النحو الذي تقوم فيه الحالة المماثلة فيما بينهم ([3]).

ومفهوم المساواة ببساطة، هو: الاعتقاد بأنّ الأفراد متساوون أو يجب أن يعاملوا بوصفهم متساوين. وأكثر جانب شيوعاً لهذا الاعتقاد يتعلق بالمساواة في الحقوق السياسية، منها: ((**حقوق المشاركة في النشاط السياسي**)) و ((**المساواة في المعاملة أمام القانون**)). ويستعمل المصطلح أيضاً للاعتقاد بالمساواة في فرص السعي لتحقيق الأهداف، والمساواة في المكافآة ومنها الرعاية المادية والوضع والسلطة... الخ ([4]).

والنص القرآني يقرِّر وحدة البشر في المنشأ والمصير، في المحيا والممات والأجداث، لا فضل بين الناس لغير العمل الصالح، ولا تفضيل إلا للأتقى بخُلُقِهِ وسلُوكِهِ. فأساس التفاضل بينهم العمل الصالح ومقدار ما يقدمه الفرد من خير، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}(الحجرات: ١٣)، وقال تعالى:{فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}(النساء: ٩٥). وهذا الأساس – التفاضل بين الناس بالعمل الصالح – الذي جاء به القرآن الكريم في وقتٍ كانت العصبية للجنس والقبيلة هي الأساس في المجتمع، وفي تمايز الناس وتفاضلهم. وقد طبق هذا المبدأ العادل واجتثت جذور العصبية و لم يعد

---

([4]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٧-١٥٨.

([1]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٦، ص٤٤٢-٤٤٩. الجوهري: الصحاح، مج ٦، ص ٢٣٨٤-٢٣٨٦ . الرازي: مختار الصحاح، ص ٣٢٣ . الفيومي: المصباح المنير، ج ١، ص ٣٠٠ .

([2]) محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص ١١١ .

([3]) جيفر روبرتس واليستاير ادواردس: المعجم الحديث للتحليل السياسي، ص ١٣٩ .

هناك امتياز للون أو لجنس، وصار ميزان التفاخر الوحيد لديهم، السمو الأخلاقي، وما يقدِّمه المرء من صالح الأعمال ([1]).

وعليه فالقرآن الكريم يقرِّر حق المساواة بين جميع الناس، فهم متساوون في القيمة الإنسانية المشتركة؛ خلَقهم الله تعالى من نفس واحدة، قال سبحانه:{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**}(الحجرات: ١٣)، وبهذه المساواة ينعدم التفاضل والتمايز بين الناس باللون أو الجنس أو المال، بل يقوم على أساس التفاوت في الدين والعلم والنفع للمجتمع على الوجه الذي يرضاه الله تعالى ([2]). وفي خطبة الوداع، قال الرسول (ﷺ): (( يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم..)) ([3])، فالتقوى، هي: معيار التفاضل والتمايز والتفاوت — والتقوى، هي: اتقاء كل ما هو سلبي – وهي معنى جامع لعمل المعروف وتجنب المنكر ([4])، وصار الجميع متساوون أمام القانون حتى أنّ الرسول (ﷺ) قال لمن استشفع لامرأة من بني مخزوم سرقت: ((إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)) ([5])، وعليه تم نفي امتيازات المولد والوراثة واللون والعرق والجنس والمعتقد.

ونرى مبدأ المساواة تقرِّره شريعة الله في القصاص، المساواة في الدماء والمساواة في العقوبة... قال تعالى:{**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**} (المائدة: ٤٥)، و لم تكن شريعة أخرى – غير شريعة الله – تعترف بالمساواة بين النفوس، فتقتصُّ للنفس بالنفس، وتقتصُّ للجوارح بمثلها، على اختلاف المقامات والطبقات والأنساب والدماء والأجناس.. النفس بالنفس. والعين بالعين. والأذن بالأذن. والسن بالسن. والجروح قصاص.. لا تمييز. ولا عنصرية. ولا طبقية. ولا حاكم. ولا محكوم.. كلهم سواء أمام شريعة

---

([4]) شمس الدين الكيلاني: مفاهيم حقوق الإنسان في المذاهب الإسلامية، ص ٣١٧ .

([1]) فاروق السامرائي: حقوق الإنسان في القرآن الكريم، ص ٨٢–٨٣ .

([2]) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٤١١/٥ . ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط٤، إحياء التراث العربي، (د. ت)، ٣٨٢/٦ . الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٢٦٦/٣ ، ٨٤/٨ .

([3]) محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص ١١٣ .

([4]) البخاري: صحيح البخاري، ٩٧/٥ ، ١٦/٨ ، ١٥٠/٤ ، ٢١٣/٤ . النسائي: سنن النسائي، ٧٣/٨ .

الله، أمام القانون. فكلهم من نفس واحدة في خِلْقَةِ الله. إنّ هذا المبدأ العظيم الذي جاءت به شريعة الله هو الإعلان الحقيقي الكامل لميلاد «**الإنسان**» الإنسان الذي يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة.. أولاً: في التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد. وثانياً: في المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة ([1]).

والقرآن الكريم يؤكد على المساواة بين المسلمين وغيرهم أمام القانون، ولعل من أروع النماذج التي جاءت لتؤكد هذا الحق ما نزل من قوله تعالى:**{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا، وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا، وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا...وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا}**(النساء: **١٠٥-١٠٧ و ١١٢**)، وهي تخاطب الرسول (ﷺ) والمسلمين بخطاب شديد**{وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا... إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا}** ثم تشتدّ اللهجة على الظالم الذي يكسب الخطيئة أو الإثم ثمّ يرمِ به بريئاً، قال تعالى: **{وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا}** فشهد الله تعالى من فوق سبع سماوات ببراءة اليهودي مما نُسب إليه ليرسخ في الإسلام قاعدة حضارية في التعامل مع غير المسلمين ([2]).

وسبب نزول هذه الآيات أنّ رجلاً من الأنصار من بني ظفر سرق درعاً في زمن النبي (ﷺ) ثم طرحها في بيت يهودي، فلمّا تحاكم الأنصاري واليهودي إلى رسول الله (ﷺ)، نفى اليهودي السرقة، وبرّأ بنو ظفر صاحبهم، حتى مال النبي (ﷺ) إلى قولهم فعاتبه الله في ذلك عتاباً شديداً ([3])، وكان نزول الآيات في وقت كان اليهود يبثون سمومهم داخل المجتمع المسلم، فيشجعون الكافرين، ويؤلبون المنافقين، ويطعنون في قيادة النبي (ﷺ)، فجاءت تلك الآيات لتنصف رجلاً يهودياً، اتهم ظلماً بالسرقة، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه وهم بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذٍ هم عدّة الرسول (ﷺ) وجنده في مقاومة الباطل، ودفع المخاطر من حوله، والمصلحة الظاهرة والظروف المحيطة تقتضي تبرئة الأنصاري لأسباب عدّة، **أولها:** عدم بث النزاعات داخل بيوت الأنصار، **وثانيها:** عدم إعطاء فرصة للتشهير بالأنصار. ومع كل هذا تتضاءل تلك المصالح الوقتية وتلك الاعتبارات أمام القاعدة المتينة التي أساسها العدالة الإلهية المطلقة للحكم بين أبناء البشر مهما تغايرت العقائد، وتباينت الأصول والمنابت ([4]).

---

([5]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٢، ص ٨٩٨-٨٩٩ .

([1]) ينظر: عمرو خالد: خواطر قرآنية، ص ٧٧ .

([2]) الترمذي: سنن الترمذي، ٣١٠/٤ . الطبراني: المعجم الكبير، ١٠/١٩ ، ١١/١٩ .

([3]) فاروق السامرائي: حقوق الإنسان في القرآن الكريم، ص ٨٣-٨٤ .

وهذه الآيات تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيراً، ولا تعرف لها البشرية شبيهاً.. وتشهد وحدها بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله؛ لأن البشر مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم لا يمكن أن يرتفعوا بأنفسهم إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات؛ إلا بوحي من الله.. أي مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامي! ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى؟ وكل كلام، وكل تعليق، وكل تعقيب، يتهاوى دون هذه القمة السامقة؛ التي لا يبلغها البشر وحدهم. بل لا يعرفها البشر وحدهم. إلا أن يقادوا بمنهج الله، إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء ؟! ([1]).

فالأصل أنّ غير المسلمين من المواطنين سواءٌ أمام القانون مع المسلمين إلا فيما يخص العقيدة أو ما يتصل بها وذلك من سماحة الإسلام مع هؤلاء، وتقريرا لحرية العقيدة الدينية ([2]).

فالمساواة مبدأ عظيم، ومن أبرز مظاهره هو المساواة أمام القانون، فلا امتيازات لأحد من المواطنين فالكلّ سواءٌ أمام القانون، والمساواة تشمل الجميع من رئيس الدولة حتى أبسط مواطن، ومن ثَمَّ فهذا المبدأ صالح لكل زمان ومكان ولا يتخلف عن أي مستوى عالٍ تبلغه جماعة ما ([3]).

وقرر الإسلام المساواة في أداء الفرائض، وتنفيذ الأحكام الشرعية، وفي الحقوق والواجبات، ومنها حق العمل وحق المشاركة في تنفيذ السلطة، في نسق لا فرق معه بين حاكم ومحكوم، ولا استعلاء من أحد على أحد، ولا مزية لواحد على آخر، وفي الحج تمثيل عملي لهذا المبدأ ([4]).

وفي الدولة التي تحكم بالإسلام يطبق أيضاً مبدأ المساواة على المختلفين في العقيدة مع مراعاة جانب ما يعتقدونه، مثلاً: الدولة الإسلامية تلزم المسلم بأداء الزكاة ولا تلزم غير المسلم ((**الذمي**)) بأدائها، وتمنع المسلم عن أكل لحم الخنزير والتجارة به، وتعدّ ذلك جريمة، وهي تبيحه للذمي... وغيرها من الأمثلة، وكل ذلك مراعاة لجانب العقيدة، وهذا هو التطبيق السليم الدقيق العادل لمبدأ المساواة، فليس من المساواة حمل الناس للتصرف والعمل على خلاف عقائدهم، ولهذا

---

([4]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٢، ص ٧٥١ .

([1]) منير حميد البياتي: الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي ((دراسة دستورية شرعية وقانونية مقارنة))، ط١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، الدار العربية للطباعة، بغداد، ص ١٥١ .

([2]) ينظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص ٣٦ ، ص ٤٨ .

([3]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٢ .

كانت القاعدة في الشريعة بالنسبة لأهل الذمة «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**» ([1])، وأنهم متساوون في الحقوق والواجبات مع المواطنين المسلمين... ([2])، وقرّرت مساواة الجميع في حق العمل وحق المشاركة في تنفيذ السلطة، ويطلق على هذا بالتحديد عبارة المساواة الاجتماعية والسياسية ([3]).

وهكذا نرى أنّ النصوص القرآنية والأحاديث النبوية تلغي جميع ما يؤدي إلى التمييز بين البشر، فلا يوجد هناك جنس نقي، ولا شعب مختار، ولا طبقية اجتماعية متميزة، فالكل عيال الله وعباده، ولا امتيازات خاصة للبعض، لأن المساواة تعني انعدام الامتيازات، وانعدام المساواة يعني منح امتياز خاص للبعض وحرمان البعض الآخر منه ([4]).

## المطلب الرابع
## إعلاء قيمة الشورى

وضع القرآن الكريم مبدأ الشورى في صورة واضحة لا لبس فيها، وجعله " فريضة شرعية واجبة على الأمة كافة حكاماً ومحكومين في الدولة والمجتمع وفي الأسرة، وفي كل مناحي السلوك الإنساني " ([5])، فالشورى في الإسلام قاعدة اجتماعية عامة، وهي عروة وثقى، تربط بين أفراد المجتمع وبين السلطة التنفيذية، وقد جعلتها «**آية الشورى**» تلي الإيمان والعبادة في الترتيب، فهي ليست فقط نظرية سياسية أو قاعدة لدستور الحكم... بل إنها الأساس الشرعي لنظام المجتمع الذي يلتزم بحقوق الإنسان وسلطان الأمة والتضامن الاجتماعي، وارتباط مبدأ الشورى بما سبق يجعله مبدأً اجتماعياً شاملاً وليس مجرد مبدأ سياسي ([6])، فهي فريضة شرعية واجبة في أمور الأمة والدولة كلها، ويُنظر إليها بنظرة تقديس واحترام؛ لتشريع الدين لها. وهو أي مبدأ «الشورى» بالنسبة إلى نظام الحكم يعد من أسمى ما ينشده البشر، ولا يمكن أن يتخلف

---

([4]) أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك المعروف بـ ابن أبي عاصم: كتاب السنة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، ص ٥٥٨ .

([5]) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص ٣٥ .

([6]) ينظر: إبراهيم دسوقي أباظة وعبد العزيز الغنام: تاريخ الفكر السياسي، ص ١٩ .

([7]) ينظر: هارولد ج . لاسكي: الحرية في الدولة الحديثة، ص ٢٩ .

([1]) محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان/ ضرورات.. لا حقوق، ١٩٨٥، سلسلة عالم المعرفة، ٨٩، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (د. ط) ، ٣٤ .

([2]) ينظر: توفيق الشاوي: فقه الشورى والاستشارة، ط٢، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م، دار الوفاء، المنصورة، ص ١٩، ٣٣-٣٤.

عن أي مستوى عالٍ تبلغه الجماعة في نظام الحكم. وقد جاء هذا المبدأ القويم الشامل على نحو من العموم والمرونة بحيث يتسع لكل تنظيم قانوني يوضع لتحقيق هذا المبدأ ([1]). وقد أثنى الله على المؤمنين ومدحهم ([2]) بذلك في قوله تعالى:{**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**}(الشورى: ٣٨)، وكان هذا في فجر الدعوة الإسلامية والمسلمون في مكة مضطهدون ومطاردون، دعاهم القرآن إلى إيجاد مجتمع متضامن متكامل، تضم أفراده روابط الأخوة والتضامن، وهي الإيمان بالله وعبادته سبحانه – بإقامة الصلاة – والتعاون بتبادل المشورة والالتزام بالشورى، والتكافل في الإنفاق في الشؤون المالية والاقتصادية بصفة خاصة، وبذلك جعل الشورى – بالمعنى العام – أحد أركان التضامن الاجتماعي، وقدّر الله مبدأ الشورى وكرّمه بأن جعله عنواناً لسورة مكية في القرآن الكريم، وهي: سورة ((**الشورى**)) وهي من السور المكية، وعدد آياتها (٥٣) آية: منها أربع آيات مدنية، أما الآيات الأخرى فقد أنزلت في مكة، ومنها الآية الخاصة بالشورى وهي الآية رقم (٣٨) ([3]). وهي تدل على أنهم يتشاورون فيما بينهم ولا يعجلون ولا ينفردون بالرأي، وقيل المراد: تشاورهم في كل أمر يعرض لهم فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي، وكان الأنصار يتشاورون فمدحهم الله تعالى به وأثنى عليهم خيراً، ومدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك، والمشورة بركة ([4]).

والنص الثاني بشأن ((**الشورى**)) ورد في سورة مدنية كلها، وهي: سورة آل عمران، وفيها يأمر الله تعالى به نبيه (ﷺ) فقال تعالى:{**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**}(آل عمران: ١٥٩)، يقول سيد قطب: " لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة! فقد كان من جرائها ظاهرياً وقوع خلل في وحدة الصف المسلم! اختلفت الآراء. فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون في المدينة محتمين بها... وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين... ولم يكن الرسول (ﷺ) يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج... ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات. لأن إقرار المبدأ، وتعليم الجماعة، وتربية الأمة، أكبر من الخسائر الوقتية... ومن هنا جاء الأمر الإلهي، في هذا الوقت بالذات:{**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ**

---

([3]) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص ٤٧ .

([4]) ابن عطية الأندلسي: المحرّر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ج ١، ص ٥٣٤ .

([5]) ينظر: توفيق الشاوي: فقه الشورى والاستشارة، ص ٤٩ .

([1]) ينظر: الشوكاني: فتح القدير، مج ٤، ص ٧٥٧ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، ص ٢٧–٢٨ . الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ١٤، ج ٢٧، ص ١٧٧ . ابن العربي: أحكام القرآن ، مج ٤، ص ٩١ .

**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**}.. ليقرر المبدأ في مواجهة أخطر الأخطار التي صاحبت استعماله؛ وليثبت هذا القرار في حياة الأمة المسلمة أياً كانت الأخطار التي تقع في أثناء التطبيق؛ وليسقط الحجة الواهية التي تثار لإبطال هذا المبدأ في حياة الأمة المسلمة، كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التي تبدو سيئة، ولو كان هو انقسام الصف، كما وقع في ((**أُحُد**)) والعدو على الأبواب.. لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ. ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى في الطريق! " ([1]).

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول: هذه الآية نزلت بعد غزوة أحد التي انكسر فيها جيش المسلمين، وكان قرار الخروج لتلك الغزوة مبنياً على الشورى أساساً مما أدى إلى الجدل حول صوابية مشاورة الرسول (ﷺ) لأصحابه. فجاء التأكيد على الشورى في خطاب موجّه إلى النبي (ﷺ) بصيغة الأمر بالمضي بالمشاورة، وعدم تسويغ إلغائها نتيجة لخطأ في التقدير ([2]).

وجاء في معنى قوله تعالى:{**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**}، أي استخرج آراءهم، واعلم ما عندهم... في كل ما يختص من أمورهم من حرب وسلم وغير ذلك، مما لم ينزل عليك فيه وحي ([3])، واختلف العلماء لأي معنى أمر الله نبيه بمشاورة أصحابه مع كونه كامل الرأي، تام التدبير، على أقوال عدة: أحدها: ليستن وليقتدي به من بعده، ويصير سنة في أمته. والثاني: لتأليف قلوبهم ولترويحها ولتطييب نفوسهم وتوداً إليهم والرفع من أقدارهم وتألفاً على دينهم. والثالث: للإعلام ببركة المشاورة. والرابع: للاستظهار بآرائهم. والخامس: لاستخراج طاقات عقولهم فيما هو خير مجموعهم، واستخراج الرأي منهم فيما لم ينزل فيه وحي، من أمر الحروب، والأمور الجزئية وغير ذلك. والسادس: أنّ المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله. والسابع: توعيةً لهم على قضاياهم، وتسييراً لهم من حيث يقتنعون أنه المصلحة. والثامن: إنّ ذلك أعطف لهم عليهم وأذهب لأضغانهم، فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم ([4])، وقد كان سادات العرب إذا لم يشاوروا

---

([2]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ١، ص ٥٠١ -٥٠٢ .

([3]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ١٤٤ .

([1]) الزجّاج: معاني القرآن وإعرابه، مج ١، ص ٤٨٥ . سعيد حوّى: الأساس في التفسير، مج ١، ص ٩١٦ .

([2]) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ١٩١ . عبد الرحمن بن علي أبو الفرج، الجوزي القرشي البغدادي: زاد المسير في علم التفسير، ط٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، مج ١، ص ٤٨٦ . الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٢٠٢ . الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ٥، ج ٩، ص ٦٦- ٦٩ . القاسمي: محاسن التأويل، مج ٢، ج ٤، ص ٢٧٦ . ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص ١٥٨ . عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ١٥٩ . سعيد حوّى: الأساس في التفسير، مج ١، ص ٩١٦ .

في الأمر شق عليهم، فأمر الله رسوله (ﷺ) بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم ([1]).

وفي الأمور التي أُمِرَ (ﷺ) بمشاورة أصحابه، قولان: **أحدهما**: أنه أمر الدين خاصة. **والثاني**: أمر الدين والدنيا وهو أصح ([2]).

فالإطار والميدان لفلسفة الاجتماع الإسلامي – **الشورى** – هو كل ما لم يقضِ الله فيه قضاءَ حتمٍ وإلزامٍ للإنسان، مما تُرك له كخليفة عن الله في عمران هذا الوجود، سواءً في الاسرة أم في المجتمع أم في الدولة.. والأمة فيها وبها هي مصدر السلطة والسلطان في سياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران.. وهذه الأمة تختار ممثليها العارفين بالواقع وبالشريعة معاً.. وهم أهل الاختيار، الذين يختارون رأس الدولة.. وكذلك أهل الحل والعقد – أي أهل الشوكة والرأي – الذين يحفظون اتساق الواقع مع الشريعة بتطوير «القانون – فقه الفروع» ليواكب الواقع الجديد.. وتطويع الواقع كي لا يخرج عن الحلال والحرام – اللذين هما حاكمية الله – ([3]).

**تعليم الله عباده المشاورة:**

**من مشهور آيات القرآن (المكية)**: بيانه بالوصف الخبري أنّ الشورى من صفات المؤمنين، المنظومة في سلك واحد مع الإيمان والإسلام ولوازمهما الاعتقادية والعملية، وبزخم إضافي تمليه مبادئ أخلاقية بالتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم، والفواحش والعفو والسماحة والمغفرة عند الغضب والاستجابة لله وإقامة الصلاة والإنفاق، قال تعالى:{**فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**}(الشورى: ٣٦–٣٨)، ومن هذه أخذ اسم السورة فسماها سورة «**الشورى**».

**وأيضاً من مشهور آياته (المدنية)**: أنّ الله قد أمر بمبدأ الشورى نبيَّه في سياق أوامر وصفات، تضع منهاجاً للحاكم لتجتمع حوله القلوب، وتنجح قيادته، ويكون تجمعها ونجاحها ببواعث ذاتية، لا بتسلط خارجي، قال تعالى:{**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ**}(آل عمران: ١٥٩) ([4])، " وبهذا النص الجازم:{**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**}.. يقرّر الإسلام هذا المبدأ في

---

([3]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٢٠٢ .

([4]) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، مج ١، ص ٤٨٩ .

([5]) ينظر: محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص ١٢١–١٢٢ .

([1]) ينظر: عبد المجيد صبح: ثقافت قبل السقوط وسقوط صاحبه، ط١، ١٩٨٥م، دار الوفاء، المنصورة، ص٣٣٦–٣٣٧

نظام الحكم – حتى ومحمد رسول الله (ﷺ) هو الذي يتولاه – وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه.." ([1]).

لرب قائل هنا، بأن الله «سبحانه وتعالى» عندما يأمر نبيَّه (ﷺ) بـ«**بمبدأ الشورى**»، يضع جواز الخطأ في القرارات النبوية، وهي فكرة قد تتناقض مع نظرية " المعصوم " الذي لا تخطئ قراراته، غير أن هذه القاعدة الملزمة للنبي (ﷺ) الذي لم يجعله الله سبحانه وتعالى وكيلا مسيطراً على البشر، قال تعالى: :**{لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ}**(الغاشية: **٢٢**)، هي دليل عملي مستقبلي لعدم الاستبداد والتفرد والتحكم بمصير الشعب ([2]).

ومن لطائف توجيهات القرآن ووسائل تثبيته مبدأ الشورى، إخباره أنّ الله عرض مسألة استخلاف آدم على الملائكة، وإخباره بما أبدوه من رأي في ذلك الاستخلاف، قال تعالى:**{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}**(البقرة: **٣٠**) ([3])، فإن قال قائل: لأي غرض أخبرهم بذلك؟ الجواب: إنما أخبرهم [أي الملائكة] بذلك... ليعلِّم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة ([4]).

وجاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية:**{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}** أن الله «سبحانه وتعالى» " استشار الملائكة في خلق آدم " ([5]).

ومن اللطائف القرآنية في تقرير مبدأ الشورى، سلبه عن الرسول (ﷺ) صفة التسلّط على قومه أو التصرف في شؤونهم، فقال له:**{لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ }**(آل عمران: **١٢٨**) وقال:**{لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ}**(الغاشية: **٢٢**) ([6]).

و من القصص في القرآن الكريم حول تقرير هذا المبدأ، قول الملكة «بلقيس» تخاطب أشراف قومها، قال تعالى: **{قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ، قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ، قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً**

---

([2]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ١، ص ٥٠١ .

([3]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ١٤٥-١٤٦ .

([4]) ينظر: عبد المجيد صبح: هافت قبل السقوط وسقوط صاحبه، ص ٣٣٧-٣٣٨ .

([1]) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ١، ص ٤٠ . الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٧٠.

([2]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٩٢ .

([3]) ينظر: عبد المجيد صبح: هافت قبل السقوط وسقوط صاحبه، ص ٣٣٨-٣٣٩ .

**أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**(النمل: ٣٢-٣٤)، ويتبين من القصة أنّ هذه الملكة لا تقطع أمراً أي تحسمه إلا بمشاركة ملئها من الأشراف والقادة فهي تستخدم أسلوب المشاورة مع الملأ في أخذ القرارات، وإنها قالت ذلك لتختبر عزمهم... وحزمهم في أمرهم، ومدى طاعتهم لها. وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده، وربما كان في استبدادها مكمن الخطر والضعف والسقوط في النهاية. وإنها استشارتهم في شأن الرد على الكتاب الذي وردها من سليمان النبي (عليه السلام) وهذا من الحكمة والديموقراطية ونبذ الاستبداد. فالمشاورة أمر مطلوب في كل شيء عام أو خاص... لأنها تحقق نفعاً ملحوظاً للتوصل إلى أفضل الآراء وأصوبها، وخصوصاً في الحروب والمصالحات وقضايا الأمة العامة ([1])، والمراد بالفتوى**{أَفْتُونِي}** الإشارة عليها بما عندهم، فيما حدث لها من الرأي والتدبير وقصدت بالانقطاع إليهم، والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم واستعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها. وفي قراءة ابن مسعود (رضي الله عنه):**{قَاطِعَةً أَمْرًا}{قاضية}** أي لابت [لا أبتُّ] أمراً إلاّ بمحضركم ([2]).

لذا ترى مؤسسة متفوقة، وهي مملكة بلقيس، ناجحة في سياسة الدولة وعلاقاتها الداخلية والخارجية، وسبب نجاحها هو استخدام «**الشورى**» كمبدأ وقاعدة للحكم، فهي لا تقدم على أمر قبل أن تشارك الملأ في أخذ القرار، فرغم أنها لم تكن على دين الله تعالى، لكنها استعملت عاملاً مهماً من عوامل النجاح في الأداء السياسي والإداري، وهو «**الشورى**» وتقبل الرأي الآخر... ([3]).

### تعليم الرسول (ﷺ) أصحابه وأمته المشاورة:

كان رسول الله (ﷺ) يشاور أصحابه في أموره، وأمره الله سبحانه بذلك، فقال: **{وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}** ([4])، وقد كان (ﷺ) يحث المسلمين عامتهم وخاصتهم على التشاور والتناصح فيما بينهم. قال (ﷺ): ((**إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له**)) ([5])، وقال (ﷺ): ((**إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُشِرْ عَلَيْهِ**)) ([6])، " أي في الدين وذكر الأخ غالبيٌ، فلو استشاره

---

([4]) ينظر: وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ١٩، ص ٢٩٣ ، ص ٢٩٧ .

([5]) ينظر: الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٧٨٢.

([1]) ينظر: عمرو خالد: خواطر قرآنية، ص ٢٨٣ .

([2]) الشوكاني: فتح القدير، مج ٤، ص ٧٥٧ .

([3]) البخاري: صحيح البخاري، ٢٧/٣ . أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٢٥٩/٤ .

([4]) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ١٢٣٣/٢ . جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير، ٦٨/١ . ملا علي القاري: شرح مسند أبي حنيفة، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ط، د. ت)، ص ٥١٧ . المتقي الهندي: كنز العمال، ٤٠٩/٣ ، ٦٦/٤ .

ذمي كان كذلك..(( **فَلْيُشِرْ عَلَيْهِ**)) بما هو الأصلح وإلا فقد خانه " ([1]). وقال (ﷺ): ((**المستشار مؤتمن**)) ([2]).

ولذلك نرى أنّ رسول الله (ﷺ) اتخذ الشورى قاعدة وأساساً لحكمه مع كونه نبياً مؤيَّداً بالوحي، فكان (ﷺ) لا يبرم أمراً دون مشاورة أصحابه (رضي الله عنهم)، فقد ثبت مشاورته (ﷺ) لأصحابه (رضي الله عنهم)، من ذلك: أنه (ﷺ) شاورهم في كيفية تنفيذ بعض أحكام القرآن: فعن عليّ (رضي الله عنه) قال: لما نزلت:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** }(المجادلة: ١٢)، قال لي النبي (ﷺ): ((ماترى؟ دينار)) قلت: لا يطيقونه. قال: ((فنصف دينار؟)) قلت: لا يطيقونه. قال: ((فكم؟)) قلت شعيرة. قال: ((إنك لزهيد)) قال: فنزلت:{**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**}(المجادلة: ١٣). قال: فبي خفف الله عن هذه الأمة ([3]).

وأنه (ﷺ) شاورهم في يوم بدر ([4]). وشاور (ﷺ) الصاحبين – أبا بكر وعمر – في أسرى بدر، وقال (ﷺ) لهما: ((لَوْ أَنَّكُمَا تَتَّفِقَانِ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ مَا عَصَيْتُكُمَا فِي مَشُورَةٍ أَبَدًا)) ([5])، وفيه دلالة على أنّ رأي الأكثرية ملزم، قال سعيد حوى: " والذي أراه في هذه القضية أن الشورى إذا أعطيت لأهلها، فإن رأي أكثريتهم في هذه الحالة ملزم. ويشهد لهذا قول الرسول (ﷺ) لأبي بكر وعمر: ((لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما)) ([6])، ([7]). وشاور (ﷺ) أصحابه

---

([5]) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ٣٥٤/١ .

([6]) البخاري: الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، ١٤٠٩هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، ص ٦٤ . الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٩٦/٨ ، ٩٧/٨ . الطبراني: المعجم الوسيط، ٣٤٩/٢ ، ٨٧/٦ . الطبراني: المعجم الكبير، ٢١٤/٢ ، ٢٢٠/٧ ، ٤٢٣/١١ ، ٢٢٩/١٧ . جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير، ٦٦٧/٢ .

([7]) الترمذي، سنن الترمذي، ٨٠/٥، (قال: هذا حديث حسن غريب). ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٦٨/١١ . النسائي: السنن الكبرى، ١٥٣/٥ .

([1]) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٢٢٤/٧، جاء فيه ما يلي: (لما وصل النبي (ﷺ) الصفراء وبلغه أن قريشاً قصدت بدراً وأن أبا سفيان نجا بمن معه، فاستشار الناس.. فقال: (( أشيروا عليّ..)).

([2]) الطبراني: المعجم الأوسط، ٢١٢/٧، (بلفظ: الحمد لله الذي أيدني بكما ولولا أنكما تختلفان علي ما خالفتكما). ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٢٨٣/١٣ . المتقي الهندي: كنز العمال، ١٩/١٣ ، ٢٠/١٣ . الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦٨/٩ ، ٥٢/٩ ، ٥٣/٩، (بألفاظ متعددة، منها: لو اجتمعتما ما عصيناكما).

([3]) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٢٢٧/٤ .

([4]) سعيد حوّى: الأساس في التفسير، مج ١، ص ٩٢٠ .

في التحصّن بالمدينة أو الخروج في غزوة أحد ([1])، وشاور (ﷺ) أصحابه حتى في أموره الخاصة ([2])، قال (ﷺ) في قصة الإفك: ((أشيروا عليّ، في أناس أبنوا أهلي..))([3]) وعن أبي هريرة (رضي الله عنه): (ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله (ﷺ) ) ([4]).

نستنتج مما سبق أنه (ﷺ) ربّى جيلاً على هذه المفاهيم، التي تشعر الآخرين بوجودهم وبمشاركتهم، وعلى ضرورة وأهمية جعلها الأساس والقاعدة في إدارة الشؤون العامة للأمة.

**مبدأ ((الاشتراك في المسؤولية)):**

الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ ومن لا يستشير أهل العلم والدين، فعزله واجب هذا مما لا خلاف فيه... وواجب على الأمراء والحكام مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها ([5]). وهنا إشارة مهمة لموضوع الاختصاص فيما يجب المشورة فيه، وعليه ينبغي أن يكون مجلس شورى الأمة متنوعاً مشتملاً على جميع الاختصاصات ومجالات الحياة، فيما يتعلق بالدين والدنيا من مصالح ومستجدات.

فالرسول (ﷺ) مع أنه المؤيد بالوحي، وقد أغناه الله بالوحي عن رأي أصحابه إلا أنّه ((سبحانه وتعالى)) أمره بمشاورة أصحابه في الأمر، فقال تعالى:**{وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}**، فعلى من دونه تكون المشورة أوجب، وجعل الرسول (ﷺ) المسؤولية مشتركة بين الناس لا يختص بها أحد دون الآخر، حتى ولو كان إمام المسلمين، وهذا ما نصّ عليه (ﷺ) بقوله: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الامَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ

---

([5]) البخاري: صحيح البخاري، ١٦٢/٨، وجاء فيه (وشاور النبي (ﷺ) أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج..). ابن هشام: السيرة النبوية، حققه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: همام عبد الرحيم سعيد، محمد بن عبد الله أبو صُعيليك، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، مكتبة المنار، الأردن-الزرقاء، مج ٣، ص٩١-٩٢ .

([6]) البخاري: صحيح البخاري، ١٦٢/٨، ورد فيه ما يلي: (وشاور عليّاً وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة..)

([7]) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٣٥٩/٨. المعجم الكبير، ١٠٦/٢٣ .

([8]) الشافعي: كتاب المسند المسمى (مسند الإمام الشافعي)، تحقيق: مطبعة بولاق الأميرية، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د. ط ، د. ت)، ص ٢٧٧ . الترمذي، سنن الترمذي، ١٢٩/٣ .

([1]) ابن عطية الأندلسي: المحرّر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ج ١، ص ٥٣٤ . أبي حيان الأندلسي: تفسير النهر الماد من البحر المحيط، تقديم وضبط، بوران الضناوي وهديان الضناوي، دار الجنان-مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص ٣٩٦ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ١٩١.

رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)) ([1].

وتجسيداً لهذا المبدأ «**الاشتراك في المسؤولية**» كان المسلمون يراجعون الخلفاء والأمراء ويردّون أقوالهم وآراءهم، لأنّ من لا يصل إليه التقريع أو النقد أو النصح؛ يستسيغ شططه، وهو يجد الذرائع لتصرفاته وقراراته حتى لو بان وظهر له إخفاقها أو عجزها بوضوح كاملين ([2]). وبمعنى آخر أنّ السلطة السياسية وضعت في أيدي الناس، وأصبحوا أصحاب القرار في تصريف أمورهم، وتيمناً بقوله (ﷺ): ((إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِهِ فَإِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ)) ([3])، وقد تم تحديد صيغة المشاركة السياسية التي تحقق مشاركة الناس في صنع القرار السياسي في الآيتين الكريمتين، قال تعالى:**{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}** وقال تعالى:**{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}** ([4]).

فالشورى يعد مبدأً أساسياً من مبادئ الحياة العامة في المجتمع المسلم، وفي شتى مجالاتها ولا غنى للأمة عنه، وهذا المبدأ يحقق بالنسبة لنظام الحكم في الإسلام، أربعة أمور أساسية، وهي:

**الأولى:** إشراك الأمة ممثلة بأهل الحل والعقد في مزاولة السلطة والتفكير بقضايا الأمة مع الشخص الذي أنابه عنها وهو «الأمير» الحاكم.

**والثاني:** الحيلولة دون استبداد الحاكم او طغيانه.

**والثالث:** تطييب نفوس المحكومين وتأليف قلوبهم بما يجمعها مع الحاكم برباط المودة والتعاون.

**والرابع:** تجنّب الخطأ في اتخاذ القرارات لأن الأمة باعتبار مجموعها معصومة عن الخطأ لقوله (ﷺ): ((إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ)) ([5]).

والشورى هي إحدى الفضائل التي أكّدها الإسلام وعدّها من الأسس التي يقوم عليه النظام السياسي الإسلامي؛ بكونها الأسلوب الأمثل والأصوب في إدارة الشؤون العامة، ولمنع

---

([2]) سبق تخريجه: ص**١٥٩** .

([3]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص **٥١** .

([4]) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، **١٥٢/٣** ، **١٢٣/٦** . ابن حبان: صحيح ابن حبان، **٢٠١/١** ، **٢٠٢/١** . المتقي الهندي: كنز العمال، **٤٦٤/١١** .

([5]) ينظر: عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة، ص **٢٩٢-٢٩٣** .

([1]) الطبراني: المعجم الكبير، **٣٤٢/١٢** . جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير، **٣٣٩/١** . المتقي الهندي: كنز العمال، **١٨٠/١** . الكتاني: نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص **٢٠** .

استبداد فرد أو مجموعة بالرأي والتحكم بمصير الأمة من دون الرجوع إلى ممثليها والذين يسمون بـ ((**أهل العقد والحل – أعضاء المجلس النيابي**))، والإسلام من خلال تقريره لهذه القاعدة في الحياة، يجسد مشاركة كل فرد في المجتمع من خلال فريضة ((**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**)).

وفي الأخير نقول بأن ((**الشورى الدستورية**)) هي الدواء لعلل الأمة، وهي المعالجة العملية لكبح جماح الاستبداد الفردي في الحكم، فالإسلام جعل من المبادئ والأصول في الحكم: الشورى الارستقراطية – شورى الفقهاء والعلماء والوجهاء والنبلاء والاختصاصيين في المجالات المهمة في المجتمع –، أي شورى ((**أهل الحل والعقد**)) في الأمة بعقولهم – أي بآرائهم وأفكارهم وطروحاتهم – لا بسيوفهم ([1]).

([1]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٣١ .

## المبحث الثاني

## المعالجة التطبيقية للنظم الاستبدادية: (رؤية قرآنية)

**المطلب الأول: المواجهة الفكرية**
**المطلب الثاني: الإعداد والبناء**
**المطلب الثالث: المواجهة العملية**
**المطلب الرابع: السنن الإلهية في معالجة الاستبداد**

# المبحث الثاني

## المعالجة التطبيقية للنظم الاستبدادية: (رؤية قرآنية)

إن معالجة القرآن الكريم للنظم الاستبدادية لم تقتصر فقط على طرح الأفكار والنظريات، بل تعدى إلى معالجة عملية تطبيقية، يمكننا من خلالها الوقوف على كافة الحلول والمعالجات الجذرية الناجعة، حيث نرى أن القرآن الكريم كرّر ذِكر الظاهرة الفرعونية – قصة موسى (عليه السلام) وفرعون – أكثر من (٧٠) مرة في (٢٧) سورة، وقد ورد ذِكر اسم «فرعون» كرمز للاستبداد السياسي والتسلّط (٧٤) مرة في القرآن الكريم ([1])، وفيه إشارة ودلالة على أهمية وضرورة معرفة هذا النوع من الأنظمة الحاكمة وخطورتها على الحياة البشرية، وكيفية وسبل مواجهتها والتغلب عليها؛ باعتبارها العائق الأكبر أمام حرية الاعتقاد التي قررتها الشرائع السماوية، وقرره القرآن الكريم بقوله تعالى:**{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}**(البقرة: ٢٥٦).

# المطلب الأول

## المواجهة الفكرية

عند استقراء الآيات القرآنية عموماً ودعوة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) خصوصاً، نرى بأن القرآن الكريم يركّز ويؤكّد على الحوار والمناقشة والمجادلة بالتي هي أحسن، كأسلوب ووسيلة في مواجهة المستبدين والطواغيت، وسنرى آيات رائعة في أسلوب الحوار حيث التركيز على «**قال وقل وقالوا**»، أي استخدام أسلوب «**المواجهة الفكرية**» أساساً في التصدي والمواجهة للظلم والظالمين وللحكام المستبدين، من ذلك قوله تعالى:**{قُلْ إِن كَانَتْ}**(البقرة: ٩٤)، وقوله:**{قُلْ مَن كَانَ}**(البقرة: ٩٧)، وقوله:**{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ}**(آل عمران: ٦٤)، وقوله:**{فَقُولا لَهُ}**(طه: ٤٤)، وهكذا **بالقول.. بالكلمة**، واجه أنبياء الله (عليهم الصلاة والسلام) ظلم وعنجهية المستبدّين الطغاة، وفي آيات مواجهة الطغاة نرى قوله تعالى:**{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**(البقرة: ٢٥٨).

---

([1]) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٦٥٤-٦٥٥ .

وهذه المواجهة اتصفت بالجهر والعلنية، فالأنبياء جهروا بدعوتهم، وأعلنوا على الملأ فكرتهم، و لم يتوانوا في الحديث عن أهدافهم في كل المحافل، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا}(نوح: ٥)، وقال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}(الأعراف: ٥٩)، وقال تعالى:{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ }(الأعراف: ٦٥).

## أساليب هذه المواجهة:

النصوص القرآنية واضحة أشد الوضوح في بيان أفضل الأساليب والوسائل في المواجهة الفكرية، ومن هذه الأساليب والوسائل ما يأتي:

### أولاً: أسلوب الحوار والجدال بالتي هي أحسن:

كان أسلوب الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) في مواجهة الطغاة ودعوتهم قومهم لعبادة الله وحده، هو الحوار والمناقشة والجدال بالتي أهي حسن، وقد أكثر الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) من الحوار والجدال مع أقوامهم ومنهم نوح (عليه السلام)، حتى قيل له ذلك من قبل قومه، كما ذكره الله في كتابه الكريم:{قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}(هود: ٣٢). وقد أكثر شعيب (عليه السلام) الحوار والجدال مع قومه حتى يظهر الحق، وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومَه، ولفصاحة عبارته، وجزالة موعظته ([1])، وذكر القرآن الكريم ما قاله شعيب (عليه السلام) في حواره الهادئ الهادف مع قومه، في قوله تعالى:{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}(هود: ٨٨).

### ثانياً: الأسلوب اللين البعيد عن القسوة والخشونة والتلطف في المحاججة والجدال:

قال تعالى:{فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}(طه: ٤٤)، هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أنّ فرعون في غاية العتو والاستكبار – وهذا هو حال معظم المستبدّين – وموسى (عليه السلام) صفوة الله من خلقه، ومع هذا أمره الله تعالى ألاّ يخاطب فرعون إلاّ بالملاطفة واللين، فالكلام الرقيق السهل اللين أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع في التأثير، ولعل بهذا الأسلوب يتذكر فرعون أو يخشى، أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى ربه، فالتذكر المقصود من الآية هو الرجوع عن المحذور، والخشية هي تحصيل الطاعة ([2])، " فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم؛ ولا

---

([1]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٢٦٢ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ٢٢ .

([2]) ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٥، ص ١٧٢-١٧٣ .

يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش عليه الطغاة. ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان " ([1]).

ومن التلطّف في المحاججة والجدال ما سلكه مؤمن آل فرعون مع فرعون وملائه، فقد حاورهم وأتى بطريقة رائعة في الحوار، وهي الحوار على طريقة التقسيم، فقال لهم: لا يخلو موسى من أن يكون كاذباً أو صادقاً، قال تعالى:{**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**}(غافر: ٢٨)، فإظهاراً للنصح لهم خاطبهم بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأَدْخَلُ [أسهل وأنسب] في تصديقهم له وقبولهم منه، وإنما قال لهم:{**يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ**} و لم يقل كل الذي يعدكم، لأنَّ كلمة البعض قد تستعمل في موضع الكل تلطفاً في الخطاب وتوسعاً في الكلام ([2]).

والله ((سبحانه وتعالى)) يأمر الرسول (ﷺ) وهو في مكة بالتلطف في الدعوة عند مواجهة النظام المكي الفاسد، قال تعالى:{**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**}(النحل: ١٢٥)، فالله جلّ جلاله يأمر رسوله (ﷺ) أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطفٍ ورفقٍ ولينٍ وحسنِ خطاب دون مخاشنةٍ وتعنيف وفظاظة وبلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، ولو مع كفار قريش وهكذا ينبغي أن يكون الوعظ والإرشاد للكفار وللمسلمين إلى يوم القيامة ([3]).

فالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) انتهجوا وساروا على القاعدة المهمة والاساسية في مقاومة الاستبداد والطغيان ألا وهي ((**اللين**))، وهي مصداق قوله ((سبحانه وتعالى)):{**فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**}(طه: ٤٤)، فالاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف والشدة والخشونة وإنما يُقاوم بالحكمة والتدرج واللين والقول الحسن.. ([4]).

**ثالثاً: في المواجهة الفكرية ينبغي استخدام لغة القوم التي يتحدثون ويتفاهمون بها:**

وذلك لكي تكون أكثر إيضاحاً وسهولة لإيصال الفكرة. فلا بدّ للغة الخطاب والتأثير أن تكون ملائمة للجو الذي يعيش فيه الناس، لذلك نرى قوله تعالى:{**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ**

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٣٣٦ .

([2]) عبدالكريم زيدان: المُستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج ١، ص ٣٧٨-٣٧٩ .

([3]) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٠، ص ١٤٨-١٤٩ . ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ٣٤٩ . النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٢، ص ٣٠٥ . سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٢٠٢ .

([4]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٤٩ .

بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}(إبراهيم: ٤) قال سيد قطب: ".. فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لم يكن بدّ من أن يرسل بلغتهم، ليبين لهم وليفهموا عنه، فتتم الغاية من الرسالة " ([1]). وعَنْ عَائِشَةَ (رَحِمَهَا اللَّهُ) قَالَتْ: (كَانَ كَلامُ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) كَلامًا فَصْلاً يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ) ([2])، " أي بيّناً ظاهراً يفهمه كل من يسمعه " ([3]).

**رابعاً: الاستعانة بالبلغاء والفصحاء، إتماماً وإكمالاً، لما سبق في موضوع اللغة الملائمة للخطاب والتأثير:**

نرى التأكيد على الفصاحة وهي البيان والإظهار ([4])، لإيصال الفكرة إلى الآخرين، قال تعالى:{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ}(القصص: ٣٤) فموسى (عليه السلام) يطلب من الله إرسال هارون (عليه السلام) معه مبيناً سبب هذا الطلب؛ وهو بأنه أفصح منه لساناً، فيكون أقدر على المنافحة عن الدعوة، بزيادة البيان في مظان الجدال، ولتقرير البرهان، فيلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ([5]).

**خامساً: الإتيان بالأدلة والحجج والبراهين واستخدام الحوار العقلاني في المواجهة:**

الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) جميعاً أتوا بالأدلة والبراهين في تثبيت دعوتهم وفي مواجهتهم للطغاة المستبدّين، فالاسلوب الفكري الذي يعتمد على الحوار والجدال بالتي هي أحسن لا يكون مقنعاً للطرف المقابل إلا إذا اقترن هذا الأسلوب بالحجج والأدلة الدامغة – الملائمة لعصر الرسول- لكي تثبت صدق دعواه وصدق الرسالة، قال تعالى على لسان موسى (عليه السلام) عند مواجهته لفرعون:{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ}(الشعراء: ٣٠)، وقال:{قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}(الأعراف: ١٠٥) ، وجاء على لسان عيسى (عليه السلام) قوله:{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}(آل عمران: ٤٩).

والحوار العقلاني في المواجهة، هو الأسلوب الذي قام به إبراهيم (عليه السلام) في قوله:{قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ}(الشعراء: ٧٢-٧٣) قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٠٨٧ .

([2]) أبو داود: سنن أبي داود، ٤٤٣/٢ . جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير، ٣٠٧/٢ .

([3]) عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة، الطبعة التاسعة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ص ٤٧١.

([4]) الفيومي: المصباح المنير، ج ٢، ص ٤٧٤ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٢٢٧.

([5]) ينظر: الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٨٠١ . ص ٢٣٦ . سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ٢٦٩٣ .

إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}(البقرة: ٢٥٨).

### سادساً: الوضوح في مضمون المواجهة:

قال تعالى:{فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}(طه: ٤٧)، قال سيد قطب: " إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما:{إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ} ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربّه...ثم إيضاح لموضوع رسالتهما:{فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} ففي هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون. لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد.." ([1]).

وإن مما ينبغي الإشارة إليه أنه يجب الوضوح في موضوع الدفاع عن المظلومين، والمطالبة بالحقوق المهضومة، وعدم التردد في ذلك؛ فالهدف والمقصد النبيل والمصلحة العامة والمعاني الإنسانية لها التأثير بمكان، حيث لا يستطيع المستبدّون ردّها والتصدي لها بشكل مباشر وبأساليب علنية، لذلك نرى أنهم يستخدمون أسلوب التمويه والتشويه وقلب الحقائق أمام نُبُل وسمو الأهداف والمقاصد التي جاء بها الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، فنرى أنّ فرعون الطاغية يتهم موسى (عليه السلام) بتغيير الدين أي النظام العام للدولة، والإفساد في الأرض، والتآمر على الدولة وقلب نظام الحكم والسيطرة عليه، واتهام موسى بالتآمر مع السحرة لتنفيذ مخطط تمليك الإسرائيليين حكم مصر، وإخراج الأسرة الحاكمة والقبط منها، فهي مجموعة من الاتهامات الجاهزة والشبهات الباطلة، يستخدمها المستبدون في كل زمان ومكان في مواجهة المصلحين ([2])، والشماعة التي يتشبث بها المستبدون في الماضي والحاضر هي كلمة ((**مؤامرة مدبّرة**))، للتضليل وخداع الجماهير، قال تعالى عن لسانهم:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}(غافر: ٢٦)، وقال:{قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى}(طه: ٥٧)، وقال:{قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}(الأعراف: ١٢٣)، يقول فرعون هذا ليقنع الجماهير بأنّ ما يجري مؤامرة مدبرة.

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ٢٣٣٧ .

([2]) ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، مج ٤، ص ٤٨٤ .

فالتوحيد الإسلامي الخالص يضع الإنسان على طريق عبادة الله وحده لا شريك له، ويحرِّره من عبادة غيره، ومن عبادة نفسه، ويدعوه إلى عدم إتباع هواه، لأن الهوى يصدر دائماً من إتباع الغرائز الحيوانية، وهي إن لم تتهذّب وتهتد بهداية السماء، فإنها تقود إلى الهلاك واضطراب الحياة ؛ لكون الهوى يُعمي صاحبه عن معرفة الحق لإعاقته عمل العقل الذي قد يميز الحق من الباطل، قال تعالى:{**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**}(الجاثية: ٢٣).

وفضلاً عن ذلك فإنه يحرِّره من عبادة غيره، لأن في عبادة الإنسان غيره إلغاءً لعقله وكيانه، وتعطيلاً لطاقاته المادية والمعنوية، وتجسيداً للتسخير غير المشروع في المجتمع الإنساني، ورفعاً للمسؤولية الاجتماعية والتكليف في الحياة. ويؤدي بالنتيجة إلى استغلال الإنسان مما يسبب شقاءً كبيراً في المجتمع في المستويات الحيوية المختلفة، ولذا حذّر القرآن الكريم الناس منه، بقوله تعالى:{**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**}(التوبة: ٣١)، ودعا إلى الاستجابة السريعة لخالق الوجود، لا لغيره، بقوله تعالى:{**فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**}(البقرة: ١٨٦).

ويحرره كذلك من عبوديته لمظاهر الحياة المادية وأوثانها المتعددة من المال والمتاع والمصالح، وهذه النظرة الخاطئة لمظاهر الحياة المادية تؤدي إلى الاصطدام والصراع العنيف، مما ينتج الحروب المدمرة، والمجازر الرهيبة، وتتلاشى أمامه القيم والمثل الإنسانية، ويكون المعيار لتقويم الأشياء، هو الحصول والاستحواذ عليها ([1]).

ولهذا نرى أن دعوة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) جميعاً جاءت لتركّز وتؤكّد على هذه الحقيقة السامية والقاعدة الأساسية «توحيد الله تعالى» التي ينبغي أن تستنير وفق مرجعيتها الحياة البشرية، وكل دعوات الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) تبدأ بالدعوة لهذه الحقيقة وتنتهي بها.

واتفاق كل هؤلاء الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) على «توحيد الله تعالى» بالرغم من اختلاف أزمنتهم وأماكنهم وبلدانهم يدل دلالة قاطعة لا شبهة فيها على أنها ليست من بنات أفكارهم. بل هي الرسالة التي بلغتهم من ربهم وأمروا بتبليغها للناس.

إنّ إجماع الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) على حقيقة التوحيد من خصائص مقام النبوة، وقد سجّل القرآن الكريم ذلك، فقد جاء على لسان نوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب

---

([1]) ينظر: محسن عبد الحميد: منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، مكتبة القدس، مطبعة الزمان، بغداد، ص ٣٨-٤٠ .

والمسيح وكل الرسل (عليهم الصلاة والسلام):{اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}(الأعراف: ٥٩). وقال الرسول (ﷺ): ((وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَه، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))([1])، ([2]).

فالبدء بهذه الحقيقة – التذكير بربوبية الله ووحدانيته – هو الأسلوب الأمثل للرجوع والإنابة وعدم التمادي في الظلم والعتو والاستكبار، من قبل الطغاة المستبدين، ومعرفة الله ((سبحانه وتعالى)) حقّ معرفته، ومعرفة حقيقة العبودية التي ينبغي أن لا تكون لغير الله من قبل المستبَدّ بهم، علماً بأنّ هناك علاقة طردية بين مفهوم العبودية الحقة لله ((سبحانه وتعالى)) وشعور الإنسان بالتحرر من كل سيطرة وتحكم للبشر – وخاصة موضوع تأليه الحكام – وغير البشر، مما يعطيه قوة في رفض كل أشكال الظلم والاضطهاد، والخضوع لغير الله ((سبحانه وتعالى)).

ولقد توجّه كلّ المصلحين أيضاً بأنظارهم إلى العقيدة، وتنقيتها من الشوائب التي لحقت بها، لإعادة الاعتبار لموضوع التوحيد، وما توحيه من عظمة وقوة الله ((سبحانه وتعالى))، وخضوع له وحده مع رفض التسليم بالعبودية لسواه. في مسعاهم للوقوف أمام الاستبداد، وعدّوا هذا المسلك أساساً للنهضة وطريقاً للتحرر ([3]).

# المطلب الثاني

## الإعداد والبناء

إنّ المواجهة الفكرية التي قام بها الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ضد المستبدِّين والطغاة، والوعي الذي قاموا بنشره في مجتمعاتهم، كان لا بدّ أن يقود إلى بلورة عقيدة صحيحة ووضعها في اطار فكرة التوحيد والهداية داخل المجتمع من خلال حملها من قبل مجموعة من الناس وعرف هؤلاء بالحواريين والأصحاب، ويؤكد ذلك ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية:

قال تعالى:{وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}(المائدة: ١١١)، وقال تعالى:{فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}(الشعراء: ٦١). قالت عائشة (رضوان الله عليها): كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) سَهِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، قَالَ: ((لَيْتَ

---

([2]) الترمذي: سنن الترمذي، ٢٣١/٥، (وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ). المتقي الهندي: كنز العمال، ٧٣/٥ ، ٦٦/٥ . جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير، ٧٨/١ .

([3]) ينظر: محمد فتح الله كُولَنْ: النور الخالد محمد (ﷺ) مفخرة الإنسانية، دار النيل، القاهرة، ج ١، ص ٨٩ .

([1]) أسعد السحمراني: الاستبداد والاستعمار، ط٢، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، دار النفائس، بيروت، ص ٥٢ .

رَجُلاً مِنْ **أَصْحَابِي** صَالِحًا يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ))، إِذْ سَمِعْنَا صَوْتَ سِلاحٍ فَقَالَ: ((مَنْ هَذَا؟))، فَقَالَ: (أَنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ جِئْتُ لأَحْرُسَكَ) وَنَامَ النَّبِيُّ (ﷺ) ([1]).

وإذا أمعنا النظر في الأساليب التي ذكرها القرآن الكريم، نرى التركيز الشديد على: ((**إعداد وبناء مجموعة مؤمنة بالفكرة**))، وهذه المجموعة تعمل فيما بينها لإيصال الفكرة والتصدي للظلم.

ولكن الأهم هو أنّ هذا الإعداد والبناء قد اتخذ منحى وجانب علني وشبه منظّم أي على شكل كتلة هلامية تجتمع فيها كل الإمكانيات والطاقات، يصعب إبادتها وتحجيمها بالضربة القاضية من قبل السلطة، وقائم على نظام اتصالاتي فكري أكثر منه إداري وتنظيمي مما أدى إلى منع وقوعها في مصيدة أجهزة القمع والبطش للأنظمة الحاكمة ([2]).

**وفي عملية الإعداد والبناء تم التركيز على عدة أمور، منها:**

**أولاً: التركيز على إعداد وبناء عصبة مؤمنة تصبح القاعدة الصلبة للدعوة:**

في القرآن الكريم تتكرر لفظة **{وَالذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ}** في إشارة إلى ((**العصبة المؤمنة**)) التي آمنت بالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، فنرى أنّ لكل نبي (عليه السلام) حواريوه وأصحابه المقربون وصفوته المختارة، وقد ورد ذكرهم في ثنايا قصص جميع الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) مع بيان دورهم الكبير والمؤثر في الدعوة ومساندتها بالنفس والمال... الخ، ومن ذلك قوله تعالى:**{لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**(التوبة: ٨٨)، وقوله:**{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}**(البقرة: ٢١٤)، وقوله: **{وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}**(هود: ٥٨)، وقوله: **{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}**(هود: ٦٦).

وكان يتم اختيار القاعدة الصلبة للدعوة وتسيير الأمور، وتكرر هذا في دعوة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وسميت هذه القاعدة بـ ((**النقباء**)) قال تعالى:**{ولقد أَخَذَ الله مِيثاقَ بَني إسرائيلَ وَبَعثنا منهم اثني عشر نقيباً}**(المائدة: ١٢)، هؤلاء رجالات موسى (عليه السلام) والذين كانوا صفوة بني قومهم ورؤساء عليهم... وقال تعالى عن نقباء المسيح (عليه السلام):**{يا أيها الذين آمنوا**

---

([2]) البخاري: صحيح البخاري، ٢٢٢/٣ ، ١٢٩/٨، (اللفظ له) . مسلم: صحيح مسلم، ١٢٤/٧ .

([1]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٢٤١-٢٤٢ .

**كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابنُ مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله}**(الصف: ١٤)، وقد كان الحواريون اثني عشر نقيباً كذلك. وقال رسول الله (ﷺ) للأنصار: ((أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً. فأخرجوهم)) ([1]).

فنحن إذن أمام ((**مجموعة مختارة**)) من قومها... وعندما تشكلت الحكومة النبوية في المدينة المنورة، أصبح هؤلاء ((**النقباء الاثني عشر**))، يحملون مسؤولية الحكم في المدينة تحت إمرة ((أسعد بن زرارة)) نقيب النقباء .. ([2]).

وبعد الاختيار والاصطفاء وترتيب وتنظيم الأفراد عن طريق الكفلاء من النقباء كان التركيز يتم على بُعدين رئيسين في عملية الإعداد والبناء، وهما:

**البُعد الأول: البُعد العَقَدي:** ويتم بترسيخ العقيدة الصحيحة، فالتربية الرشيدة للأفراد على التوحيد، هي الأساس الذي قام عليه البناء النبوي وعلى مدى جميع العصور، وهي المنهجية الصحيحة التي ساروا عليها، (عليهم الصلاة والسلام)، والقرآن الكريم عرضها بشتى الأساليب، فغمرت قلوب الحواريين والأصحاب معاني الإيمان، وحدث لهم تحول كبير، قال تعالى موضحاً ذلك الارتقاء العظيم:**{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}**(الأنعام: ١٢٢).

**والبُعد الثاني: البُعد التعبدي والأخلاقي:** ويكون ذلك بالتركيز على العبادات التي تسمو بالروح وتطهر النفس، والتربية والصبر على مكارم الأخلاق، قال تعالى: **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}**(الإسراء: ٢٣)، وقال تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام):**{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ}**(إبراهيم: ٤٠)، والمنهج الخُلقي الذي رسمته سورة الإسراء، الآيات(٢٣-٣٨) مدحاً وذمّاً، جعل التوحيد - أي: إفراد الله بالعبادة - على رأس هذا المنهج، وذلك باعتبار الأخلاق هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح، والقصص القرآني غني بالمواعظ والحكم، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) استخدموا أساليب التأثير والاستجابة، والالتزام في التربية، لكي يحولوا الأخلاق من دائرة النظريات إلى

---

([2]) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٤٦١/٣ . الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ٢٥٣/٣ . الطبراني: المعجم الكبير، ٨٩/١٩ . الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٤٤/٦ .

([1]) ينظر: منير الغضبان: التربية القيادية: السابقون الأولون من الأنصار- المنهج التربوي للسيرة النبوية (٥)، ط١، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م، دار الوفاء، المنصورة، ج الثاني، ص ١١٨-١٢١ .

صميم الواقع التنفيذي، والعمل التطبيقي ([1])، قال تعالى:{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا..وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا...وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ..وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً..وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ .. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ..وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً..وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا..كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}(الإسراء: ٢٣-٣٨).

لذا ترى بأنّ هذه العصبة من خلال هذه النصوص القرآنية وغيرها قد تربت على مبادئ وأخلاقيات جعلتها مؤهلة لحمل الرسالة ومواجهة التحديات. وهذه العصبة التي قام الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) بإعدادها وتربيتها هي التي كانت تعطي ضريبة إيمانها ونصرتها للرسالة، وتلقى في سبيل ذلك جميع أساليب القمع والعنف، وأشد صنوف العذاب والقتل.

ولم تكن دعوة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لتنهض وتنتصر وتنتشر لولا جيل فريد يتم تربيته على الأيدي الطاهرة لأنبياء الله (عليهم الصلاة والسلام)، وبعد ذلك يتم تدشين التغيّر التاريخي بواسطة هذا الجيل، وليس غريباً أن يحزن الرسول (ﷺ) على أصحابه الذين غدرت بهم القبائل العربية يومها، ففتكوا في إحدى حملات الغدر بسبعين من أصحابه (رضوان الله عليهم)؛ فبقي يدعو عليهم شهراً، وكان هؤلاء وبالتعبير وبالمصطلح الحديث النخبة الحركية المثقفة ([2]). وفي كتب الحديث والسيرة سُمي هؤلاء الأصحاب بـ ((**القرّاء**)) ([3]).

**ثانياً: التركيز على العمل النسوي:**

عند ملاحظة قصص الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) نرى دوراً كبيراً للمرأة في حركة التغيير العام الذي يقوم بها الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وهذا واضح ومبين في النصوص

---

([2]) ينظر: علي محمد الصلابي: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، ط٤، ٢٠٠٦م، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ص ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١١٤،١١١، ١١٥، ١١٧ .

([1]) ينظر خالص جلبي: قوانين التغيير، دار المنبر، (د.ت ، د. ط)، ص ١٤٢ .

([2]) القصة بكاملها وردت في كتب الحديث والسيرة، فعَنْ أَنَس (رض): (أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) أَتَاهُ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ وَعُصَيَّةُ وَبَنُو لَحْيَانَ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَمَدَّهُمْ النَّبِيُّ (ﷺ) بِسَبْعِينَ مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُسَمِّيهِمْ الْقُرَّاءَ يَحْطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ فَانْطَلَقُوا بِهِمْ حَتَّى بَلَغُوا بِئْرَ مَعُونَةَ غَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِي لَحْيَانَ ..). البخاري: صحيح البخاري، ٣/٢٠٨ ، ٤/٣٥ . ابن هشام: السيرة النبوية، مج ٣، ص ٢٦٠-٢٦٧ . علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص٥٣٧-٥٣٨ .

القرآنية، ولاسيما في قصة موسى (عليه السلام) حيث الأشخاص الأساسيون الذين ساعدوا موسى (عليه السلام) في تأدية دوره كنّ أربع نساء وهنّ:

١. **أم موسى** (عليه السلام)، قال تعالى عنها:{**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**}(القصص: ٧)، التي حمت موسى (عليه السلام) بتصرفها الواثق بوعد الله ((سبحانه وتعالى)) لها..

٢. **أخت موسى** (عليه السلام)، التي قالت عنها الآية:{**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ، وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**} (القصص: ١١-١٣)، إنه دور الأخت التي أعادت موسى (عليه السلام) إلى أمه.

٣. **آسيا بنت مزاحم**، زوجة فرعون، قال تعالى:{**وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**}(القصص: ٩)، " يعني أنّ فرعون لما رآه همّ بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون، فقالت:{**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ**} ([1]). ولاقت هذه المرأة العذاب الشديد بسبب ايمانها، فصمدت وتحدّت جبروت فرعون وطغيانه، فكان الجزاء أنّ الله ((عزّ وجل)) عوضها عما لاقته من فرعون وزبانيته ببيت في الجنة، قال تعالى: {**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**}(التحريم: ١١). وقد ورد في حقها أنها من أفضل نساء أهل الجنة مع نسوة ذكرهنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) بقوله: ((أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ)) ([2]).

٤. **بنت شعيب** (عليه السلام) التي تزوجها موسى (عليه السلام)، وقد ذكر الله ((سبحانه وتعالى)) قصة بنتي شعيب (عليه السلام) في القرآن الكريم، وإنّ إحداهن أشارت على أبيها استئجار موسى (عليه السلام)، قال تعالى:{**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**}(القصص: ٢٦).

---

([1]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٨١ .

([2]) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٢٩٣/١ ، ٣١٦/١ . الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ٤٩٧/٢ ، ٥٧٥/٢ . الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٢٠١/٩ . ٢٢٣/٩ .

إنهن أربع نسوة ذكرهنّ القرآن الكريم، واللواتي كان لهنّ دور محوري في حياة سيدنا موسى (عليه السلام) بعون وتوفيق الله تعالى ([1]).

وفي قصة موسى (عليه السلام) أيضاً، وردت في أحاديث نبوية شريفة قصة «ماشطة بنت فرعون» ([2]) التي تحدّت بإيمانها وصمودها وعصاميتها جبروت فرعون وطغيانه، وألقت أولادها ونفسها في النار و لم ترضخ لمطلب فرعون الطاغية في الشرك بالله والإيمان بألوهيته الزائفة ومعتقده الفاسد، فأصبحت رمزاً للفداء والتضحية من أجل المبدأ والعقيدة على مر العصور.

وفي قصة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أدواراً مهمة في الدعوة للعديد من النساء، ومنهن: السيدة خديجة (رضي الله عنها)، ودورها معلوم في تثبيت النبي (صلى الله عليه وسلم) ومؤازرته ودعمه بنفسها ومالها، في بداية الدعوة، بالإضافة إلى أم سلمة وعائشة وغيرهن من أمهات المؤمنين، وفاطمة سيدة نساء العالمين، وسمية الشهيدة، أول شهيدة في الإسلام، وأسماء بنت أبي بكر ودورها في الهجرة، وصفية بنت عبد المطلب عمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشجاعتها في حماية حصن فارع ([3]) أثناء غزوة الأحزاب، ورفيدة الأسلمية الأنصارية أول ممرضة عسكرية في الإسلام ورئيسة المستشفى النبوي الحربي في غزوة الأحزاب ([4])، وغيرهنّ من الصحابيات اللواتي كان لهنّ الدور والتأثير الكبير والإيجابي في دفع عجلة الدعوة نحو الأمام وتقريب النصر وتحقيقه.

ومما ينبغي الإشارة إليه أنّ حركة المرأة في ظل الأنظمة الاستبدادية أكثر وأسهل وأبعد عن الملاحظة وعيون الجواسيس، كما نستشف ذلك من قصص المرأة المسلمة ودورها في العهد المكي، ومنها، دور أسماء بنت أبي بكر في (الهجرة)، والتي لقبت بذات النطاقين ([5]).

---

([1]) حصن فارع: اسم أُطُم، وهو حصن بالمدينة المنورة، وهو حصن حسّان بن ثابت، حصن قوي، كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد وضع النساء والأطفال فيه، في غزوة الأحزاب، حماية لهم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٤، ص ٢٢٨ . ابن هشام: السيرة النبوية، مج ٣، ص ٣١٧. علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص ٦١٤ .

([2]) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص ٧٩-٨٢ و ١٥٣ و ٢٧٠ و ٢٨٠ و ٦١٤-٦١٦ .

([3]) ينظر: عمرو خالد: خواطر قرآنية، ص ٢٩٣-٢٩٤ .

([4]) سبق تخريجه: ص ٩٠.

([5]) لقبت بذلك لأنها قطعت قطعة من نطاقها، لربط فم الجراب الذي وضعت فيه السُفرة التي صنعتها عائشة للرسول (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه في الغار أبي بكر (رضي الله عنه) في الأيام الأولى من الهجرة، قَالَتْ عَائِشَةُ (رحمها الله): (فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقِ)، البخاري: صحيح البخاري، ٢٥٦/٤ . (وأشار البخاري إلا أنها لقبت بذات النطاقين، ينظر: البخاري: ١٣/٤ ، ٢٥٨/٤ ، ١٩٩/٦) . أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ١٩٨/٦.

# المطلب الثالث
# المواجهة العملية

**وجوب مقاومة الظلم:**

لئن كان العدل واجباً في شرع الله ((سبحانه وتعالى))، وكان الظلم محرماً، فإنّ مقاومة هذا الظلم تكون واجبة.. وقد جاءت بذلك نصوص صريحة، منها: قوله تعالى:{**وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً**}(الأنفال: ٢٥)، فالظلم فتنة، والسكوت عليه فتنة ([1]). قال الفخر الرازي في تفسيرها: " واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تتعدى إليكم جميعاً " ([2]) والتهديد للفريقين في قوله تعالى:{**وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ**}(الأعراف: ١٦٥)، الذين ظلموا بفعلهم أو ظلموا بسكوتهم، لأن الفريق الناجي الوحيد هو المذكور في قوله تعالى:{**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ**}(الأعراف: ١٦٥). ونرى هنا الأمر باتقاء نوع من أنواع الفتن الاجتماعية التي تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين المصطلي بناره فعلاً، وبين المؤاخذ به لتقصيره في درئه، وإقراره على فعله... والعقاب أثر لازم للأمم لجبنها وتقصيرها في الدنيا قبل الآخرة... ولهذا نرى التعبير بالفتنة دون الذنب والمعصية، والفتنة البلاء والاختبار، ومن الظلم ترك مقاومة الظلم حتى يفشو ويكون له السلطان الذي يذهب بكل سلطان ([3])، ويقول (ﷺ): ((مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ)) ([4]). وقال (ﷺ): ((أَلا إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ)) ([5]).

ويأمر الله ((سبحانه وتعالى)) بالمقاومة الإيجابية للظالمين باحتجاج علني إظهاراً للسوء، قال تعالى:{**لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا**}(النساء: ١٤٨)، فالله ((سبحانه وتعالى)) يكره للمجتمع المسلم أن تشيع فيه قالة السوء، قال تعالى: {**لاَّ يُحِبُّ اللّهُ**

---

([4]) ينظر: علي جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، ص ١٧٥ .

([1]) الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ٨، ج ١٥، ص ١٤٩ .

([2]) ينظر: محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم، ج ٩، ص ٦٣٧ و ج ٢، ص ٢٧٥ .

([3]) أبو داود، سنن أبي داود، ٤٥٢/٢ . أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٣٠/٤ . البيهقي: السنن الكبرى، ١٦٧/٨ ، ١٦٨/٨ . الطبراني: المعجم الأوسط، ٢٨٢/٨ . جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير، ٥٠٨/٢ .

([4]) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ١٩/٣ . ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ١٣٢٩/٢ . الترمذي: سنن الترمذي، ٣١٨/٣ . النسائي: سنن النسائي، ١٦١/٧ . ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٤٤/١٣ .

**الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ}** لأنه ينتهي إلى انحلال اجتماعي وفوضى أخلاقية، ويسقط الحياء النفسي والاجتماعي الذي يمنع الألسنة من الوقوع في المحظور، ولكنّ الله سبحانه اقتصر حقّ الجهر بها على من وقع عليه ظلم؛ يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم؛ في حدود ما وقع عليه من ظلم. فالوصف بالسوء يكون انتصاراً لمن ظلم، ورداً للعدوان، وردّاً لسوء بذاته، وتشهيراً للظلم والظالم في المجتمع؛ لينتصف المجتمع للمظلوم ([1]).

ومن هذه النصوص، ومن غيرها، تظهر أن مقاومة الظلم ليست مجرد حق - كما ورد في إعلان حقوق الإنسان على أن مقاومة الظلم مجرد حق -، بل هي فوق ذلك فرض وواجب... يأثم الناس إن تركوه، فالقرآن الكريم متفرد بجعل مقاومة الظلم وغيره من صور المنكر في المجتمع واجباً وليس مجرد حق من حقوق الفرد والمجتمع، فيرتفع بالمجتمع إلى مستوى من الإيجابية لا يصل إليه أي نظام آخر، ويحقق بذلك كفالة القضاء على كل انحراف واعتداء يظهر من جانب السلطة! ([2])، ويؤكد ذلك أنّ الله ((سبحانه وتعالى)) يجعل من صفات المجتمع المسلم، عدم الخضوع للظلم، وعدم القبول به ([3])، قال تعالى:**{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}**(الشورى: ٣٩)، أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه، وتناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم ويدفعوه ([4])، فيتحقق في الإسلام التكافل السياسي جنباً الى جنب الأمن والتكافل الاجتماعي والضمان الاقتصادي، والمشار إليه في آيتي سورة الشورى بقوله تعالى:**{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}**(الشورى: ٣٨-٣٩).

وبعد أن عرفنا ضرورة ووجوب مقاومة الظلم والاستبداد، إلا أنّ المقاومة هذه لا تتم إلاّ بعد الوقوف على الكيفية والأسلوب في المواجهة، وهذا ما سنتطرق إليه في الفقرات الآتية:

**قواعد الأنبياء في التغيير الاجتماعي:**

عندما وضع الله تعالى قاعدة أنّ التغيير يبدأ من الإنسان، في قوله تعالى:**{إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}**(الرعد: ١١)، حمّله مسؤولية استبداده، فقال تعالى:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم}**(يونس: ٢٣)، وأمر - الضحايا - بالتصدي للظلم والاستبداد، وعدم الركون لمن يظلم. قال تعالى:**{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}**(آل

---

([5]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٢، ص ٧٩٦ .

([1]) ينظر: علي جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، ص ٢٤٦ .

([2]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٣١٦٦ .

([3]) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، ص ٣٠ .

عمران: ١٠٤)، وقال تعالى:{وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ}(هود: ١١٣) ([1]).

فمن القواعد التي سار عليها الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) في التغيير الاجتماعي، هو قوله تعالى:{إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، أي التغيير سلمياً وتدريجياً، فالعمل بتغيير ما بالأنفس لا يكون الاّ بالفكر ابتداءً وبرفع ما فيها من مفاهيم خاطئة، و تغذيتها بافكار بديلة عنها، أي تغيير نظام الأفكار (الوعي الاجتماعي) أو محتوى النفوس، وليس بقتل الحكام وأزلامهم، أو القيام بانقلابات عسكرية في الظلام، أو بالاستنجاد بالقوات الأجنبية – كما شاعت هذه الفكرة في الآونة الأخيرة أنّ الدولة التسلطية لا حلَّ لها إلا بتولي قوة أجنبية لإسقاطها!! – ([2]) فالاستبداد لا يقاوم بـ ((**الشدة**)) إنما يقاوم بـ ((**الكلمة والقول**))، ويقاوم بـ ((**الحجة والدليل والبرهان**))، ويقاوم بـ ((**اللين والتدرج**))، لا ((**بالقوة والعنف**))، قال تعالى:{فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}(طه: ٤٧)، وقال تعالى:{فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}(طه: ٤٤) ([3])، فالأنبياء بدأوا أول ما بدأوا، بـ((**الكلمة بالقول**)) بنشر ((**الفكر والوعي**))، بـ((**الحجة بالدليل بالبرهان**))، بـ ((**اللين والتدرج**))، وذلك لتصحيح النظرة إلى الخالق والحياة والإنسان والكون، وعملوا على تغيير الأنفس، فهي الأساس للتغيير المنشود، وكما أكّدت عليه الآية:{إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، فلا تغيير من عند الله إلا أن يقوم القوم بالتغيير ما بالأنفس.

فالآية أعطت للإنسان القدرة و(السيطرة) على تغيير الواقع، ووضعت المفاتيح في أيديه وضمن إرادته، وحددت مكان التأثير على وجه الدقة ((الأنفس))، ثم ربطت ما بين تغيير الواقع وتغيير نظام الأفكار (الوعي الاجتماعي) أو محتوى ((النفوس)). وهي ظاهرة إنسانية تنطبق على أي مجموعة بشرية {بِقَوْمٍ} أي قوم كان، ثم هو قانون اجتماعي غير فردي{بِأَنْفُسِهِمْ}، والآية تربط بين تغيير الواقع من خلال تغيير ما بالنفوس ([4]). لذا نرى الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)

---

([4]) ينظر: فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٤ .

([1]) ثناء فؤاد عبد الله: (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة)، ص ٣٩٣.

([2]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٢٢٣-٢٢٤.

([3]) خالص جلبي: قوانين التغيير، ص ١١٦-١١٧.

عملوا على تغيير نظام الأفكار والتصورات ومحتوى ((الأنفس)) أولاً في عملية التغيير الاجتماعي الشامل.

ولعبد الرحمن الكواكبي كلام رائع حول انتهاج مبدأ اللين والتدرج في معالجة الاستبداد، إذ يقول: ومبنى قاعدة أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة، إنما يقاوم بالحكمة والتدريج هو: أن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم. ثم إن اقتناع عامة الناس بالفكرة الجديدة، لا يتأتى إلا في زمن طويل وهذان الأمران انتهجهما الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) في معالجتهم للاستبداد، وقال تعالى:{**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**}(الإسراء: ١٠٦)، فالقرآن نزل مفرقاً لأمر مقصود، لكي يُقرأ على مكث - أي فترة زمنية - أمر مقصود أيضاً، فالفرق يدل على التدرج، والمكث يدل على الفترة الزمنية، لأنّ العملية التربوية تحتاج إلى تدرّج وفترة زمنية، ونزول القرآن مفرقاً ليقرأ على مهل وتؤدة وتثبت في زمن طويل... وجاء ليربي أمة... والتربية تتم في الزمن الطويل... جاء ليكون منهجاً عملياً يتحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الإعداد... وتلك حكمة نزوله مفرقاً ([1])... والاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً ([2]).

**الجو الهادىء والمسالمة مع النظام داخل المجتمع مبدأ لا خيار:**

الدعوة والتغيير المرتقب للواقع الذي يفرضه الاستبداد يحتاج إلى جو هادئ خالٍ من المجابهة والمخاصمة مع ذوي السلطة والقوة في المجتمع، وذلك ليتمكن المصلحون من نشر الوعي وتغيير ما يمكن تغييره من المفاهيم والتصورات الخاطئة والواقع المظلم بالكلمة الطيبة، والجدال بالتي هي أحسن. والدليل على ذلك قول موسى (عليه السلام) لفرعون وقومه:{**وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ، وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ**}(الدخان: ٢٠-٢١)، قال ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين: " قال موسى (عليه السلام): أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليّ بسوء من قول أو فعل {**وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ**} أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أنْ يقضي الله بيننا " ([3]). وقال تعالى: {**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**}(فصلت: ٣٤)، وقال: {**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ**

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٢٥٣ .

([2]) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٢٧-١٢٨ .

([3]) ينظر: عبدالكريم زيدان: المُستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج ١، ص ٣٧٩ .

**الْمُحْسِنِينَ**}(المائدة: ١٣)، وقال: {**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**}(الفرقان: ٦٣).

وكذلك قول الرسول (ﷺ): ((يا ويحَ قُرَيْش لقَد أَكَلَتْهُمُ الحَرْب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟)) ([1])، ويستفاد من هذا الحديث أنّ رسول الله (ﷺ) أراد بقوله ((**ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟**)) المسالمة، وحرية قيامه بالدعوة إلى الفكرة والعقيدة التي جاء بها.

وهناك قضية مهمة ينبغي الإشارة إليها ولو بشيء من التفصيل ألا وهي قضية استخدام العنف والرفض المسلح ضد الصفوة الحاكمة الظالمة داخل المجتمع الواحد.

فلوجود الخلط بين ثلاث قضايا، هي قضايا الصراع والإصلاح السياسي داخل المجتمع الواحد أو الكيان السياسي الواحد، وبين ما هو من قضايا الصراع والمواجهة السياسية بين الأنظمة والدول، وبين ما قد يتولد من قضايا المدافعات الناجمة عن واجبات السعي بالدعوة نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لإحقاق الحقوق ودفع المظالم والحض على مكارم الأخلاق في حدود ما تقضي به السياسة الشرعية، يوجد موقف مذبذب غير واضح حول استخدام العنف والثورة المسلحة أو اتخاذ المقاومة المدنية، والأسلوب السلمي في عملية التغيير ([2]).

وإذا نظرنا إلى قصص الأنبياء في القرآن الكريم نرى بأنهم جميعاً استخدموا الأسلوب السلمي في المواجهة مع أقوامهم والأنظمة الحاكمة في زمانهم – داخل المجتمع الواحد والكيان السياسي الواحد – وذلك وفق المبدأ الذي عبّر عنه قول موسى (عليه السلام) في قوله تعالى:{**وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ، وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ**} الذي فسره ابن كثير بقوله: " أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أنْ يقضي الله بيننا " ([3]).

وهكذا أخبر الله تعالى عن موسى (عليه السلام) أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله:{**وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ، أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ**}(الدخان:١٧ –٢١).

---

([4]) الطبراني: المعجم الكبير، ١٦/٢٠ . المتقي الهندي: كنز العمال، ٤٣٩/٤ . ابن حبان: الثقات، ٢٩٦/١ .

([1]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار، ط٢، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م، دار الفكر، دمشق–سورية، ص ٢٥ .

([2]) ينظر: عبدالكريم زيدان: المُستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج الأول، ص ٣٧٩ .

وهكذا قال رسول الله (ﷺ) لقريش أن يتركوه يدعو إلى عبادة الله تعالى وحده، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته، قال الله تعالى:{**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**}(الشورى: ٢٣)، أي: قل يا محمد لا أسألكم مالاً، وذروني أبلغ رسالات ربي إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة ([1]).

فنرى أنّ دعوة موسى (عليه السلام) في مصر والتي استمرت فترة طويلة وتخللتها ظروف ومستجدات متنوعة ومختلفة، استخدم خلالها جميع الوسائل والأساليب في مواجهة ومقاومة نظام فرعون الطاغية، وأيده الله ((سبحانه وتعالى)).بمعجزات ومؤيدات من عنده، قال تعالى:{**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**}(النمل: ١٢) وقال:{**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**}(الأعراف: ١٣٣)، فالآيات التي تذكر هذه القصة لم تذكر أنه استخدم العنف المسلح قط ([2])، علماً بأنه كان يعيش في مجتمع واحد وفي ظل كيان سياسي واحد، ولكن بني إسرائيل عندما أصبحوا على مشارف فلسطين ([3])، أمرهم موسى (عليه السلام) بالجهاد لدخول الأرض المقدسة التي استحوذ عليها العمالقة ([4]) وتملّكوها بعد يعقوب (عليه السلام)، فلمواجهة العمالقة أراد موسى (عليه السلام) استخدام أسلوب المواجهة المسلحة، وقد ورد ذلك في قوله تعالى مخبراً عن موسى (عليه السلام) أنه قال:{**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ... قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**} (المائدة: ٢١ و ٢٤)، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى:{**وَلاَ تَرْتَدُّوا**

---

([3]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٧، ص ١٣٢ .

([4]) ينظر: عبدالكريم زيدان: المُستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج ١، ص ٣٠٣-٣٨٢ .

([1]) فلسطين: وهي آخر كور الشام من ناحية مصر، قصبتها (البيت المقدس)، ومن مشهور مدنها: عسقلان، الرملة، غزة، أرسوف، قيسارية، نابلس أريحا، يافا، بيت جبرين، والأرض المقدسة هي أرض فلسطين، و (الأرض التي باركنا فيها للعالمين) هي فلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٤، ص ٢٧٤-٢٧٥ .

([2]) العمالقة: وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام على عهد موسى (عليه السلام). وأما علماء التاريخ والآثار فيذكرون بأن العمالقة هم الكنعانيون وهم من الاقوام السامية التي هاجرت في الالف الثالث قبل الميلاد من شبه الجزيرة العربية الى بلاد كنعان (فلسطين). ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٩، ص ٤٠٣ . طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق- بيروت، ٢٠٠٩، ص ٩٠-٩١ .

**عَلَى أَدْبَارِكُمْ}** " أي ولا تنكلوا عن الجهاد " ([1])، " ولا تنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبناً وهلعاً " ([2]).

وهناك فرق واضح بين واقع مصر وواقع فلسطين، فمصر كان يحكمها نظام، وكان بنو إسرائيل فيها جزءاً من المجتمع، وجزءاً من الكيان السياسي للدولة، لذلك كان الأسلوب النبوي في معالجة الوضع ومواجهته هو عدم اللجوء إلى العنف ردّاً على عدوان فرعون وجبروته، لأنّ طبيعة الصراع في مصر، في جوهره كان صراعاً داخلياً، علماً بأنه كان هناك مؤمنون بموسى (عليه السلام) من غير بني إسرائيل، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وزوجة خازن فرعون، وقسم من السحرة الذين آمنوا بموسى (عليه السلام)، فالعلاقة بين دعوة موسى وفرعون كانت علاقة صراع وتفاعل فئات وصفوة حاكمة داخل رحم مجتمع واحد وفي ظل كيان سياسي واحد، ولذلك لم يستخدم موسى (عليه السلام) أسلوب العنف والمواجهة المسلحة أسلوباً في الصراع الدائر بينه وبين فرعون. وأمّا واقع فلسطين فبنو إسرائيل كانوا جماعة منفصلة على مشارف فلسطين، وهم أمام مجتمع العماليق وهو مجتمع مختلف ونقيض لهم، أراد موسى (عليه السلام) استخدام المواجهة المسلحة للدخول إلى الأرض المقدسة، فالعلاقة هنا علاقة مواجهة بين مجتمعين مختلفين، بين صفوات حاكمة على جانبي حدود فلسطين، وليس صراعاً داخل رحم مجتمع واحد.

والقاعدة نفسها اتخذها الرسول (ﷺ) في دعوته بمرحلتيها المكية والمدنية، ففي مواجهته لطغيان وتعسّف واستبداد الفئة الحاكمة في مكة، يصرّ (ﷺ) على الجهر بالدعوة بالأسلوب الإصلاحي السلمي ضد فساد النظام المكي إذ هو جزء من المجتمع والنظام العام في مكة، ولم تنزل آيات تدعو إلى الجهاد والقتال واستخدام المواجهة المسلحة لمعالجة الوضع، فالموقف القرآني والنبوي لم يتغيّر في مكة في عدم السماح باللّجوء إلى العنف ردّاً على عدوان قريش على المسلمين – الدعاة إلى الإصلاح والآمرين بالمعروف الناهين على المنكر المؤمنين بالله – على الرغم من إسلام رجال محاربين وشجعان أمثال حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطّاب (رضي الله عنهما) وانضمامهم إلى صفوف المسلمين، الذين أرادوا تحدي قادة قريش وطالبوا الرسول (ﷺ) بالسماح لهم بالردّ على العدوان ومواجهة العنف بالعنف ومقارعة القوّة بالقوّة ([3])، عن ابن عباس (رضي الله عنه): أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي (ﷺ) بمكة فقالوا: (يا رسول

---

([3]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٤٦ .

([4]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٢٨٤ .

([1]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ص ٣٠-٣١ .

الله إنا كنا في عزٍّ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة)، فقال: ((إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا)) ([1])، والقرآن الكريم في الكثير من آياته شاهد على الأمر الإلهي والنهج النبوي بالصبر في تلك الحال، وعدم الردّ أو اللّجوء إلى العنف ردّاً على العدوان، وذلك من قبيل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}(النساء: ٧٧)، جاء في تفسير هذه الآية: " كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة – لم تكن أنصبتها محددة –، فكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون... للقتال ليشتفوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها...كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام... فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً " ([2]). وقال النسفي: " كان المسلمون مكفوفين عن القتال مع الكفار ما داموا بمكة " ([3]). وقوله تعالى:{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}(غافر: ٥٥). وقوله تعالى:{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ}(الروم: ٦٠). وقوله تعالى:{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا، وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا}(المزمل: ٨-١١).

يتبين من خلال أقوال المفسرين أنّ الآيات تأمر الرسول (ﷺ) بالصبر على ما يلاقيه من اعدائه، وعدم المواجهة، وكان مأموراً بالصفح والعفو، وكذا تأمره بالهجر الجميل ومجانبتهم بقلبه وهواه ومخالفتهم مع حسن المُخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة ([4]). وقوله تعالى:{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}(لقمان: ١٧). وقوله تعالى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ..}(يونس: ١٠٤-١٠٦). وقوله تعالى:{إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ

---

([1]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ١١٥٢ .

([2]) النسائي: سنن النسائي، ٣/٦ . النسائي: السنن الكبرى، ٣/٣ ، ٣٢٥/٦ . البيهقي: السنن الكبرى، ١١/٩ .

([3]) ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢١٦ .

([4]) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ١، ص ٢٣٧ .

الرَّاحِمِينَ، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ، إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}(المؤمنون: ١٠٩-١١١) ([1]).

أمّا والمسلمون في المدينة، ودولتهم المستقلة قائمة، وهم في صراعهم مع مشركي قريش وبقية مشركي الجزيرة العربية ليسوا ضمن كيان سياسي واحد، أو مجتمع واحد تتحكم فيه صفوة حاكمة، نرى كيف أنّ الموقف والنهج القرآني والنبوي تغيّر من قضية عدم استخدام العنف ضد المعتدين ومسالمتهم، إلى موقف القتال والمواجهة، فقد أمر القرآن المسلمين بالقتال دفاعاً عن أنفسهم وعن دعوتهم وأذِنَ لهم فيه، وتصدى رسول الله (ﷺ) لقريش وسواهم من القبائل المحاربة له ولدعوته الإصلاحية، وذلك سعياً من الإسلام إلى إعطاء الإنسان حرية الخيار في عقيدته ونهج حياته، واستخدم الرسول (ﷺ) في حربهم كافة الوسائل من القوة وغيرها، ونزلت الآيات تحث المسلمين على الجهاد والمقاومة المسلحة، وذلك من قبيل قوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}(الحج: ٣٩-٤٠)، وقوله تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ}(البقرة: ١٩٠) ([2])، وإلى غيرها من الآيات التي تأمر بالقتال والجهاد في سبيل الله، والآيات التي تتحدث عن أحكام الحرب والسلم.

وهناك أحاديث نبوية شريفة ذكرت في الفترة الأخيرة من حياة الرسول (ﷺ) تسمى بأحاديث الفتنة، ومضمونها يؤكد على قضية هامة ألا وهي عدم الخوض أو المشاركة الفعلية مطلقاً في الصراعات والمصادمات التي ستحصل وستقع ضمن المجتمع المسلم الواحد، وفي ظل كيانهم السياسي الموحد، وفي هذه الأحاديث نهي واضح وصريح في عدم اللجوء إلى العنف في حلّ فتن الصراعات السياسية بين الصفوات القيادية داخل المجتمع، ويأمر بوجوب التزام ضبط النفس الكامل، ولو تعرّض الطرف الداعي إلى الإصلاح للعدوان من قبل الآخرين، ونقرأ ذلك في الأحاديث النبوية، منها:

- قوله (ﷺ) وقد أشرف على أطم من آطام المدينة ([3]): (( هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر)) ([4]).

---

([1]) الأُطُمُ - الأُطُمُ: القصر، وكلُّ حِصنٍ مبنيٍّ بحجارة، وكلّ بيت مُربّعٍ مُسطّح، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٩٩٤

([2]) البخاري: صحيح البخاري، ٢٢٢/٢ ، ١٠٣/٣ ، (اللفظ له) . مسلم: صحيح مسلم، ١٦٨/٨ .

([3]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ص ٣١-٣٢ .

([4]) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٢-٣٤ .

– عن الأحنف بن قيس، قال: (ذهبت لأنصر هذا الرجل) فلقيني أبو بكرة، فقال: (أين تريد ؟)، قلت: (أنصر هذا الرجل)– أي عبد الله بن الزبير–، قال: (ارجع. سمعت رسول الله (ﷺ) يقول): ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار))، قلت: (يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟)، قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)) ([1]).

– روى البخاري في تفسير قول الله ((سبحانه وتعالى)):**{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه}**(الأنفال: ٣٩)، أن ابن عمر (رضي الله عنهما)، أنه قيل له: (كيف ترى في قتال الفتنة ؟)، فقال: (وهل تدري ما الفتنة ؟، كان محمد (ﷺ) يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك) ([2]).

– عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): ((كيف أنت يا أبا ذرّ ! وموتاً يصيب الناسَ حتى يُقَوّمَ البيت بالوصيف؟ ([3]) ))، قلتُ: (ما خار الله لي ورسوله)– أو قال: (الله ورسوله أعلم)– . قال: ((تَصَبَّرْ))... ثمّ قال: ((كيف أنت وقتلاً يصيب الناسَ حتى تُغرق حجارة الزيت بالدّم؟ ))، قلت: (ما خار الله لي ورسوله)، قال: ((الْحَقْ بمن أنت منه))، قال: قلت: (يا رسول الله! أفلا آخذ سيفي فأضرب به من فعل ذلك؟)، قال: ((شاركت القوم إذاً ولكن ادخل بيتك))، قلت: يا رسول الله! (فإن دخل علي بيتي؟)، قال: ((إن خشيتَ أن يَبْهَرَكَ شُعَاعُ السّيفِ، فألقِ طرف ردائك على وجهك، فيبوءَ بإثمه وإثمك فيكون من أصحاب النار)) ([4])، ([5]).

---

([3]) البخاري: صحيح البخاري، ١٣/١ ، ٣٧/٨ ، (اللفظ له) . مسلم: صحيح مسلم، ١٧٠/٨ .

([4]) البخاري: صحيح البخاري، ٢٠٠/٥ ، ٩٥/٨ .

([5]) يُقَوّم: من التقويم، البيت: هنا يعني القبر، بالوصيف: بالعبد. أي تكون كلفة قبر الميت بثمن الخادم أو العبد. أحجار الزيت: موضع بالمدينة في الحرة، سمي بها لسواد الحجارة كأنها طليت بالزيت. السندي: سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي، حقق أصوله وخرّج أحاديثه على الكتب الستة: الشيخ خليل مأمون شيحا، مج ٤، ط٣، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ص ٣٣٤–٣٣٥ ، رقم الحديث ٣٩٥٨ .

([1]) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ١٣٠٨/٢ . أبو داود: سنن أبي داود، ٣٠٤/٢ . الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ٤٢٣/٤ ، ١٥٧/٢ . البيهقي: السنن الكبرى، ٢٦٩/٨ .

([2]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ص ٢٨–٢٩ .

- وقال (ﷺ): (( ستكون فتنٌ القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي من تشرّف لها تستشرفه ([1])، فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليَعُذْ به )) ([2]). من خلال ما تقدم يبدو أننا أمام ثلاثة مواقف:

**الموقف الأول:** التجربة النبوية في مكة، والموقف القرآني والنبوي من التجربة، هو: الإصرار على الدعوة إلى الحق وعدم اللجوء إلى الردّ بالعنف، مهما تعرّض المسلمون للأذى والعدوان من قبل الصفوة الحاكمة القرشية الذين بلغ أمرهم في أذى المسلمين حدّ الحصار والتعذيب والقتل. وطبيعة الصراع في جوهره صراع داخلي سياسي حاولت فيه قيادة النظام المكي قمع فئة الحركة الإصلاحية الإسلامية في مكة ومحاولة القضاء عليها بالقوة، وكان الموقف هو الجهر بالدعوة والتصدي السلمي للنظام المكي بكل ما تحمله من مفاهيم إصلاحية شاملة تأمر بالخير والمعروف، وتنهى عن كل ألوان الفساد والطغيان والمنكر، ولا يلجأ في الوقت نفسه إلا للوسائل السلمية لرد عدوان النظام المكي، وذلك هو أعلى درجات الإصلاح السياسي، ملتزماً في ذلك الدعوة بالحسنى والصبر على الأذى وعدم اللجوء إلى أية وسيلة من وسائل القوة والعنف في الرد عليهم ([3]).

**الموقف الثاني:** التجربة النبوية في المدينة، والموقف القرآني والنبوي هو الأمر بالقتال والتصدي للعدوان، واستخدام كافة وسائل القوة للردّ على المعتدين. ومن الواضح أنّ هذا جهادٌ وقتالٌ في سبيل الله، ودعوة ودفاع عن دين الله والمجتمع الذي يدين بدين الله والدولة التي تحكم بما أنزل الله، وإزالة لنظام ودولة الظلم والشرك على مستوى الدول والأنظمة، ومثّل صراعاً بين مجتمعين ونظامين مختلفين، فالعلاقة بينهما لم تكن علاقة تفاعل فئات وصفوات في مجتمع واحد أو ضمن كيان سياسي واحد، ولكنها كانت علاقة مواجهة بين أنظمة وصفوات حاكمة على جانبي الحدود السياسية لنظامين مختلفين أو دولتين مختلفتين.

**الموقف الثالث:** الموقف النبوي في أحاديث الفتنة التي ردّ فيها الرسول (ﷺ) على تساؤلات الأصحاب عمّا قد يحدث من صراعات سياسية وفتن عامة بعد وفاته (ﷺ)، في المدينة خاصة، وكان الجواب واضحاً صريحاً يعيد إلى الذهن الموقف الإسلامي المبدئي في مكة في وجوب عدم استخدام القوة والعنف في حسم الصراعات السياسية بين الصفوات داخل المجتمع

---

([3]) تشرّف لها تستشرفه: أي من تطلع إليها وتعرض لها أشرف منها على الهلاك . ينظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٢٦/١٣ .

([4]) البخاري: صحيح البخاري، ١٧٧/٤، ٩٢/٨، (اللفظ له) . مسلم: صحيح مسلم، ١٦٨/٨ .

([5]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ص ٣٠-٣١ ، ص ٣٧ .

الواحد، حتى لو تعرّضت بعض الفئات للعدوان والأذى في دعوتها للإصلاح ودفع المظالم، وأن تلجأ الأطراف إلى الطرق السلمية والشورية لحل الخلافات، وأن يترك المظلوم والمعتدى عليه أمر الفئة الباغية المعتدية إلى واجب الأمة وقادة جمهورها وأهل الحل والعقد فيها، لوضع حد لعدوان المعتدي: إما بكف أيديهم عن مساندته أو الضرب على يده إذا لزم الأمر ([1]).

ونستطيع أن نستنتج من المواقف الثلاثة السابقة ومن موقف النبي موسى (عليه السلام) في مصر وموقفه على حدود فلسطين، قاعدة سياسية إسلامية عامة، وهي أنّ الصراع السياسي داخل المجتمع الواحد يجب أن يحلّ سياسياً في إشارة إلى عدم استخدام العنف داخل المجتمع الواحد.

وتجدر الاشارة إلى أنّ الأمثلة والشواهد التاريخية والمعاصرة تؤكد على نجاح الأسلوب الإصلاحي السلمي في التصدي للأنظمة الاستبدادية، وفشل التجارب المسلحة في المجتمع الواحد، ومنها نجاح التجربة النبوية في مكة، والتجربة الإيرانية ضد نظام الشاه، وفشل التجربتين الجزائرية والأفغانية في صراعها الداخلي، مع نجاحهما في صراعهما الخارجي ضد العدوان الفرنسي والسوفيتي.

وذلك لأنه هناك فرق بين استخدام العنف في العلاقات بين الدول والمجتمعات والأنظمة المختلفة، واستخدامه في الصراع والعلاقة بين أبناء مجتمع في ظل كيان سياسي واحد.

ونصل إلى نتيجة أنّ مفهوم ((**القوة**)) من مفاهيم الدولة وليست من مفاهيم الدعوة. فالدولة ينبغي أن تكون لها القوة، ومنها الجيش باعتباره السياج الذي يحميها، وأن يكون لها الحق فقط في استخدامه. ولا يجوز للأفراد والفئات المختلفة أو المتخاصمة داخل الكيان السياسي الواحد امتلاك هذه القوة أو الاستحواذ عليها، واستخدامها في صراعاتها ضد الآخرين المخالفين لها داخل المجتمع؛ لأنه سيؤدي بلا شك إلى نتائج لا تحمد عقباها.

وبعبارة أخرى أنّ ((الوظيفة العسكرية)) هي أداة خطرة للغاية، لأنها مرتبطة بسفك الدماء، وربما تؤدي إلى الفوضى والانهيار الشامل للدولة والمجتمع، فهي وظيفة ومهمة ولكن بيد ((الحاكم)) أو بالأحرى ((الدولة)) فقط، فهي ليست وظيفة ((فرد)) كما أنها ليست مهمة ((جماعة)) ([2]).

---

([1]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ص ٣٨-٣٩ .

([1]) ينظر: خالص جلبي: قوانين التغيير، ص ٢٧-٢٨ .

فالرسول (ﷺ) لم يستخدم القوة إلاّ بعدما كوّن دولة، وقد كانت عنده من القوة والعدد في مكة، ما كان يستطيع بها أن يحدث خللاً في صفوف أعدائه من قريش وغيرها، ولكنه (ﷺ) لم يستخدمه.

ولذا ينبغي أن يستقر مبدأ منع اللجوء إلى العنف كوسيلة لتسوية الصراعات السياسية في المجتمع، وأنّ ذلك أمر مبدئي، وهذا المنهج هو منهج الاستقرار ودوام دوران عجلة العدل والتعاون والشورى والإصلاح في المجتمع ([1]).

**لا طاعة في معصية ومعاونة الظالم حرام:**

وجاء الأنبياء بشيء عجيب، جاؤوا بفكرة ((لا طاعة في معصية)) ([2])، هذه الفكرة عميقة وبسيطة وصعبة في آن واحد، وعمقها نابع من بساطتها، وصعوبتها تكمن في سهولتها، لا طاعة في معصية، لا تنفيذ للأوامر دون قانون، دون شروط، لقد أدخل الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) إلى الناس هذه الفكرة الانقلابية في سلوك الإنسان ([3])، وقد وردت هذه الفكرة في القرآن الكريم، كوسيلة لمقاومة الذي يطغى، وذلك في عدم طاعته، قال تعالى:{**كَلا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى... كَلا لا تُطِعْهُ**}(العلق: ٦- ١٩) ([4]). وقال تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ**}(النساء: ٥٩)، قال النسفي في تفسيره لهذه الآية: " ودلّت الآية على أن طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحق فإذا خالفوه فلا طاعة لهم " ([5]). فالطاعة مترعة عن الأمراء – الحكام – إذا خالفوا الحق.

وقد اتبع هذه الفكرة أو القاعدة في الوقوف أمام الطغيان والاستبداد الكاتب الفرنسي لابواسييه ([6]) في مقالته ((**العبودية المختارة**)) إذ يقول: " فهذا الطاغية لا يحتاج الأمر إلى محاربته

---

([2]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ص ٥٦ .

([3]) البخاري: صحيح البخاري، ١٣٥/٨، (اللفظ له) . مسلم: صحيح مسلم، ١٥/٦ . أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ٩٤/١ .

([4]) جودت سعيد: كن كابْنِ آدم، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الفكر، دمشق – سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، ص ٦٠ ، (د. ط).

([5]) ينظر: فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد، ص ١٥٥ .

([6]) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ١، ص ٢٣٢ .

([1]) إيتيين دي لابواسييه (١٥٣٠-١٥٦٢): مفكر فرنسي، من عائلة ميسورة، تخرّج من جامعة أورليان عام ١٥٥٣م، عمل قاضياً في برلمان بوردو، عاصر الصراع المذهبي الدموي بين الكاثوليك وأتباع كالفن – حركة الاصلاح الديني –، كتب مذكرة عن المنازعات الدينية، بيّن فيها أنّ الردع الدموي لا يؤدي إلى القضاء على الخصوم، بل إلى تفاقم العداوة تفاقماً يهدد البلاد بحرب أهلية، وانتهج سياسة التسامح الديني، نشر صديقه مونتينييه أعماله، ومنها: شعر نظمه في

وهزيمته، فهو مهزوم خِلْقةً، بل يكفي ألا يستكين البلد لاستعباده. ولا يحتاج الأمر إلى انتزاع شيء منه، بل يكفي **الامتناع عن عطائه**... فكل ما يقتضيه الأمر هو الإمساك عما يجلب ضرره. الشعوب إذن هي التي تترك القيود تكبلها أو قل إنها تكبل نفسها بنفسها ما دام خلاصها مرهوناً **بالكف عن خدمته**... ثم يقول: إن أمسكنا عن تموينهم – أي الطغاة – ورجعنا عن طاعتهم، صاروا بلا حرب ولا ضرب، عرايا مكسورين، لا شبيه لهم بشيء إلا أن يكون فرعاً عدمت جذوره الماء والغذاء فجفّ وذوى " ([1]). فالترياق ضد هذا السم الاجتماعي – الاستبداد والطغيان – يقوم على سحب الطاعة فقط؛ فلا يمكن لأي مستبِدّ أن يستمر في استبداده لو أنّ الناس جلسوا في بيوتهم، و لم ينزلوا إلى العمل، و لم يتعاونوا معه ([2]).

يقول علي جريشة في معرض الحديث عن مراحل الدفاع الشرعي العام، وهي مرحلة إنكار القلب ([3])، ومرحلة إنكار اللسان ((**جهاد الكلمة**)): (بعد فشل إنكار القلب مع الاعتزال، وفشل معه جهاد الكلمة، لا بدّ من مرحلة ثالثة تسقط فيها حقوق الحاكم في الطاعة والنصرة، ويتحقق به الامتناع من تنفيذ أمره أو أوامره تبعاً لقدر المعصية التي ارتكبها والمنكر الذي يقارفه) ([4])، وهذا الامتناع من تنفيذ الأوامر وعدم النزول إلى العمل وعدم التعاون مع النظام الحاكم، يعني بالمصطلح الحديث القيام بالعصيان المدني.

ويقرر (عبدالكريم زيدان) الأسلوب السلمي في مواجهة طغيان السلطة ويبيِّن ذلك بوضوح في معرض حديثه عن واجب الجماعة المسلمة عند طغيان السلطة، في عدة فقرات، بعدما يبدأ بسؤال، وهو ماذا يجب على الجماعة المسلمة فعله في مجتمع مبتلى بحاكم طاغية ؟ ويجيب بأنّ على الجماعة المسلمة القيام بنصح الحاكم أولاً وتبصير الأمة بواجبها ثانياً، وكما يأتي:

---

مقتبل العمر، ترجمات عن المؤرخ اليوناني كسينوفون، وأخرى متعددة عن بلوتارك.. ونشرت نص مقالته الشهيرة على حدة (العبودية المختارة) بعد حوالي قرنين ونصف، عام ١٨٣٥م، وهي مقالة حظيت بانتباه منقطع النظير من جانب المشتغلين بالفلسفة السياسية والاجتماع . ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٤٩–٥١ .

([2]) هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ٥٧–٥٨ .

([3]) ينظر: المصدر نفسه: ص ٢٧٣–٢٧٤ .

([4]) مرحلة إنكار القلب وإن بدأ في ظاهره أنه سلبي.. ضعيف، ولكن آثاره كفيلة بهز أركان الظالمين... فلو تواز في مجتمع... عدم الرضا بالمنكر قلباً.. وعدم المتابعة عملاً.. فإنه تتم ((مقاطعة)) إيجابية للمنكر.. لا يملك أمامها ((المنكر)) الذي تمثله السلطة الحاكمة المستبِدّة، إلاّ أن يخِفّ أو يختفي.. ولا يملك معها –أبداً– أن يتبجح ويتعالن.. ينظر: علي جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، ص ٢٥٦ .

([5]) ينظر: علي جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، ص ٢٥٢–٢٥٦ .

**أولاً**: قيام الجماعة المسلمة بالنصح للحاكم لأن الدين النصيحة، ومنه أن تتقدم بالنصيحة والموعظة الحسنة فتذكره بحقيقة ذاته، ثم إنه يُذكّر بأنه عبد لله تعالى ولا يحق للعبد أن يتجبر ويطغى، وتذكره بأن الله يمهل الظالم لحلمه الواسع ولا يهمله فلا يعاقبه على ظلمه.

ثم بين كيف يكون أسلوب هذا النصح؟ فقال: يكون بكل أسلوب نافع وقول لين، ويكون النصح له بمواجهته بالتعريض وبالتصريح حسبما يقتضيه المقام وقواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يكون بالكتابة، او بإرسال رسول إليه، أو بتكليف أحد المقربين له لإيصال النصيحة إليه أو بأي أسلوب آخر نافع وجائز شرعاً.

**ثانياً**: تبصير الأمة بواجبها: ويكون بتبصير الأمة بواجبها نحو الحاكم الطاغية بأن تعلمها الجماعة المسلمة أنّ الله **حرّم معاونة الظالم**، بل ونهى عن الركون إليه الذي يشمل أي ميل ومعونة له بالقول أو بالفعل أو بالمدح أو باستحسان ما يفعله من تعد على الناس، أو بحضور مجلسه أو إعلان البِشر والسرور عند ملاقاته لأن هذا كله يدخل في مفهوم معاونة الظالم أو الركون إليه، والله تعالى يقول:{**وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**}(هود: ١١٣). وأن تبين للأمة أن الحاكم ما كان يستطيع أن يطغى لولا أعوانه، وأعوانه أفراد من الأمة، فهم أدواته في الظلم والطغيان ولهذا يعدون مجرمين مثله. وعلى هذا يعامل أعوان الحاكم الظالم معاملته من جهة تحريم الركون إليهم ولزوم وعظهم ونصحهم ([1]).

أما الذي يريد أن يغير ويعالج العنف بالعنف فهو كمن يريد معالجة المريض بقتله... فالعنف حلقة متصاعدة تزداد ضراوة واتساعاً مع كل دورة على نحو أشد هولاً وأعظم نكراً، كما في اشتعال الغابات الجافة في صيف اشتدت حرارة قيظه، ومعظم النار من مستصغر الشرر ([2]).

وهل يحل العنف مشكلة المجتمع أم يزيد المشاكل تعقيداً ؟ والتاريخ الإسلامي يشهد بأن كل الحركات التي جاهدت وعملت من أجل إعادة الحكم الراشد بأسلوب العنف فشلت في مسعاها... ولقد جرّب الخوارج حظهم فيما سبق ونزفت الدولة الأموية حتى الترع الأخير، ولكن النتيجة التي انتهوا إليها، أنّ الدولة الجديدة – الدولة العباسية – كانت أشدّ بطشاً وأكثر قمعاً و لم ترجع الخلافة الراشدة قط... ومع كل اندفاع باتجاه مزيد من حكم السيف وتغيير

---

([1]) ينظر: عبدالكريم زيدان: السنن الإلهية، ص ١٩٥-١٩٨ .

([2]) هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ١١٧- ١١٨ .

الأوضاع بالقوة المسلحة واستخدام العنف داخل المجتمع المسلم، انفرجت الزاوية أكثر وانحرف الخط عن المسار وزاد البعد عن حياة العدالة والعقل ([1]).

وفي المواجهة العملية للاستبداد والطغيان نرى موضوعاً مهما مطروحاً أثناء مراحل المعالجة للاستبداد ومقاومته والعمل على تغييره، ألا وهو موضوع ((**الهجرة**)) باعتباره إحدى وسائل وخيارات التعامل، وإدارة دفة الصراع عند التدافع السياسي والديني والاجتماعي ([2]).

قال تعالى:{**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**}(الأنفال: ٣٠)، يذكر الله في هذه الآية – وهي مدنية – نِعَمَهُ على النبي (ﷺ)، ومنها إخباره بمكر قريش ومؤامرتهم على قتله، فقد أتى جبريل النبي (ﷺ) فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت رسول الله (ﷺ) في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج ([3])، قال الزمخشري بعد أن ذكر مكر قريش في اجتماعهم في دار الندوة وتفرقهم على رأي أبي جهل مجتمعين على قتل الرسول (ﷺ): " فأخبر جبريل (عليه السلام) رسول الله (ﷺ) وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة " ([4]).

والقرآن الكريم يحث المسلم على ((**الهجرة**)) وعدم الرضا بالبقاء في دار تمتهن فيه كرامته ويفتتن في دينه ويكون محروماً من الحياة الحرة الكريمة، فيعالج مخاوف النفس المتنوعة؛ وهي تواجه مخاطر الهجرة، فيصحح التصور الكاذب لحقيقة الرزق وأسباب الحياة والنجاة؛ الذي يجعل النفوس تقبل الذل والضيم، ويقرر حقيقة موعودة لمن يهاجر .. إنه سيجد منطلقاً وسعة، وإذا وافاه الأجل المحتوم، فقد وقع أجره على الله، ومع ضمانة الأجر، التلويح بالمغفرة للذنوب، والرحمة في الحساب ([5])، قال تعالى:{**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**}(النساء: ١٠٠)، ونرى القرآن الكريم يطلب من ((القواعد)) كيلا تلعب (عليها) أو (بها) الزعامات المستبدة الطاغية، أن يتحركوا، أن يردّوا على الظلم، أن يرفضوا الانتماء إليه، أو قبوله كمسلّمة لا تقبل نقضاً ولا جدلاً.. ان بمقدورهم – كذلك – أن يغادروا المواقع التي يسود فيها

---

([1]) ينظر: هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، ص ١١٩ .

([2]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ص ٨٨ .

([3]) ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢٦-٢٧. الطبري: جامع البيان، مج ٦، ج ٩، ص ٣٠٠-٣٠١ .

([4]) الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٤١١ . ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٨٤/٧ .

([5]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٢، ص ٧٤٤-٧٤٦ .

الطغيان والاستبداد لكي لا يسهموا في الجريمة، بشكل أو بآخر ([1])، ويؤكد على عدم الرضوخ والاستسلام للطغيان إذ أنه يطلب من المستضعفين الايجابية والحركة وعدم الخضوع والهوان لكي لا يظنوا أن واجبهم في الأرض يقتصر على انتظار العدل واستجداء الرحمة من الناس، قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا، إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}**(النساء: ٩٧-٩٩) ([2]).

والهجرة السياسية أو الدينية هي في جوهرها ترك الوطن والانتقال إلى بلد آخر بسبب الاضطهاد والعدوان، وهذه الهجرة قد تتم على أساس فردي فراراً وهرباً من الاضطهاد الذي لا يستطيع الفرد المستضعَف تحمله أو الصبر عليه، وهذا النوع من الهجرة - هجرة فرار -، وإن كان فراراً بالنفس، فإنه قد يصبح مطلباً إسلامياً حماية للدين والنفس والكرامة الإنسانية، وليس تفريطاً في الحقوق وانصرافاً عن الإصلاح ومقاومة الطغيان.

وقد تكون هجرة ترقب، وهي وسيلة من وسائل مقاومة المضطَهَدين لمضطهِديهم من الطغاة والظلمة، وذلك بالخروج من دائرة سطوتهم دفعاً للظلم ودرءاً للخسائر وترقباً للأحوال والعودة إلى البلاد في ظروف أفضل لدفع الظلم وانتصار الحق. وهذا النوع من الهجرة هو أقرب إلى حالة اللجوء السياسي في الوقت الحاضر، ومن ذلك هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة.

وقد تكون هجرة مفارقة ومقارعة، إعداداً وتحيناً للكَرّة ومُنازلة المعتدين والبغاة من الخارج لوضع حد للفتنة وانتهاك الحقوق والحريات، ومن ذلك هجرة المسلمين إلى يثرب ((المدينة المنورة)) واتخاذها قاعدة لبناء الدولة ومواجهة العدو من قريش وغيرهم ومنازلتهم ([3]).

وموضوع ((**الهجرة**)) واضح بشكل جلي في حياة أغلب الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، ومنهم الرسول محمد (ﷺ) فهجرته مَعلم بارز في سيرته.

والداعي إذا وجد نفسه عاجزاً أن يفعل شيئاً لدعوته ومجتمعه، فيندب إليه أو يجب عليه، حسب الظروف والأحوال، أن يهاجر إلى حيث يمكنه أن يعبد الله ويدعو إليه.. والدليل على ذلك أنّ الله تعالى امتنّ على إخراج إبراهيم (عليه السلام) وابن أخيه لوط (عليه السلام) من ديار الكفر

---

([1]) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ط٤، ١٩٨٣، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ص ٢٨٥ .

([2]) ينظر: عمرو خالد: خواطر قرآنية، ص ٧٦ .

([3]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ص ٨٨-٨٩ .

والظلم والاستبداد والكفر إلى الأرض التي باركها الله وهي أرض الشام، في قوله تعالى: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}(الأنبياء: ٧٠-٧١) ([1]).

وقال تعالى عن إبراهيم (عليه السلام) أيضاً:{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ}(الصافات: ٩٩)، أي: إني مهاجر من بلد قومي الذين آذوني، إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه، وهي الأرض المقدسة بالشام، إلى بلد أعبد فيه ربي وأعصم فيه ديني، وإنه سيهديني إلى ما فيه صلاح ديني ودنياي، قال ابن عطية: وهذا دليل على وجوب الهجرة من المكان إلى المكان الآخر.. قال مقاتل ([2]): هو أول من هاجر من الخلق مع (لوط) و (سارة)، إلى الأرض المقدسة وهي أرض الشام ([3])، وقال الرازي في تفسيره لهذه الآية: " دلّت هذه الآية على أنّ الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته، وذلك لأنّ إبراهيم (عليه السلام) مع أنّ الله سبحانه خصّه بأعظم أنواع النصرة، لما أحسّ منهم العداوة الشديدة هاجر من تلك الديار، فلأَنْ يجب ذلك على الغير كان أولى " ([4]).

والهجرة في كل الأحوال لا تسعى إلى ممارسة العنف بين فئات المجتمع الواحد من الداخل ولا تتسبب فيه، بل تحاول أن تتلافاه. أما هجرة المفارقة التي تنتهي إلى تكوين أنظمة مواجهة مثل نظام مكة ونظام المدينة. فيكون الصراع بينهما هو حالة من أحوال الصراع الدولي- الخارجي- وينطبق عليه ما ينطبق من قواعد الصراعات بين الصفوات (النخب) والأنظمة السياسية المستقلة المتقابلة أي بعبارة أخرى بين الدول ([5]).

---

([1]) ينظر: عبدالكريم زيدان: المُستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج ١، ص ٢١١ .

([2]) مقاتل (...-١٥٠هـ /...-٧٦٧م): هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، أبو الحسن، من أعلام المفسرين، أصله من بلخ، انتقل إلى البصرة ودخل بغداد فحدّث بها، وتوفي بالبصرة كان متروك الحديث، من كتبه: التفسير الكبير، نوادر التفسير، الرد على القدرية، متشابه القرآن، الناسخ والمنسوخ، القراآت، الوجوه والنظائر. الزركلي: الأعلام، مج ٧، ص ٢٨١ .

([3]) القاسمي: محاسن التأويل، مج ٨، ج ١٤، ص ١١٦ . ابن عطية الأندلسي: المحرّر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ج ٢٣، ص ١١٣، ١١٦ .

([4]) الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ١٣، ج ٢٦، ص ١٥٠ .

([5]) ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ص ٨٩-٩١ .

# المطلب الرابع

## السُّنن الإلهية في معالجة الاستبداد

السّنن: جمع سُنَّة، والسّنة لغةً: الطريقة، والعادة، والمثال المتبع. والأَصل فيه الطريقة أو السِّيرَة مرضية كانت أو غير مرضية، والسَنن من الطريق: أي نهجه الواضح ([1]).

وَسُنَّةُ اللَّهِ تعالى قد تُقَالُ لِطَرِيقَةِ حِكْمَتِهِ وَطَرِيقَةِ طَاعَتِهِ، نحوُ:{**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**} (فاطر: ٤٣)، وسُنَّةُ اللَّه: حُكْمُهُ وأَمرُهُ ونَهيُهُ، وحُكْمُهُ في خليقته ([2]).

وسنة الله المقصود بها في هذا المطلب: هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة، فسنّة الله هي القانون العام حيث أنّ سنّة الله المتعلقة بأفعال البشر وسلوكهم هي طريقته المتبعة في معاملته للبشر، وما يترتب على ذلك من النتائج، فهذا يعني أنّ ((السنّة)) هو معنى (القانون العام) من حيث خضوع أفعال البشر وسلوكهم إلى أحكام هذه (السنّة) التي يمكن تسميتها بالقانون العام ([3])، والسنّة الكونية: " هي الطريقة المسلوكة العامة الشاملة من الكون، والمراد به جميع المكوّنات التي أخرجها الله تعالى من العدم إلى الوجود " ([4]).

### الأدلة على وجود السّنن الإلهية:

هناك نصوص عديدة في القرآن الكريم تؤكد على وجود نواميس وقوانين إلهية تسمى بـ ((**السُنَنْ**)) تبيّن وتظهر القانون العام، أي طريقة الله وسنّته في التعامل مع ما يقوم به البشر من أفعال وتصرفات، وما يترتب على ذلك من النتائج، ومن هذه النصوص:

قوله تعالى:{**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**} (آل عمران: ١٣٧)، وقوله:{**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ**} (الأنفال: ٣٨)، وقوله:{**لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلًا{مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ**

---

([1]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج ٦، ص ٣٩٥-٤٠٢ . مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٤٥٦ . جبران مسعود: الرائد، ص ٥٠٢-٥٠٣ .

([2]) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٢٩ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١١١٢-١١١٣. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٤٥٦.

([3]) ينظر: عبدالكريم زيدان: السنن الإلهية، ص ١٣ .

([4]) عبد الحميد محمود طهماز: السنن الإلهية في الخلق، ط١، ٢٠٠٠م، دار القلم، دمشق ، ص١٣

خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}(الأحزاب: ٦٠-٦٢)، وقوله:{اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}(فاطر: ٤٣)، وقوله:{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا}(الكهف: ٥٥).

هذه الآيات وغيرها بمجموعها تدل على أنّ هناك سُنَنْ انقضت في الأمم السالفة، وهي سُنَنُ الهلاك والاستئصال؛ لما قاموا به من الكفر والظلم والمكر والاستكبار والطغيان، بدليل قوله تعالى:{فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ} ([1]).

كما دلّ على وجود هذه السنن الإلهية آياته تعالى المبثوثة في الكون والوجود، وشواهد التاريخ البشري على الأرض ([2]).

ولهذه السُنَن (القوانين العامة) سمات وصفات تتصف بها، يمكن استخراجها واستنباطها من الآيات نفسها التي دلّت على وجودها، ومن هذه السمات والصفات:

١. أنّها ثابتة لا تتغيّر، قال تعالى:{وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا}(الفتح: ٢٣). وقال تعالى: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا}(فاطر: ٤٣). والمعنى أنه إذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها، فيهلكون كما هلك الأولون، وتلك سنة الله وطريقته، التي لا تتغير ولا تتبدل في كل مستكبر وماكر وظالم ([3]).

٢. أنّها مطردة لا تتخلف، والدليل على ذلك أنّ الله أمرنا بالاتعاظ والعبرة من قصص الأمم السابقة التي قصّها علينا، فلولا اطرادها لما أمكن الاتعاظ والاعتبار بها، قال تعالى:{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ}(آل عمران: ١٣٧)، وقال تعالى:{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ}(الحشر: ٢).

٣. أنّها عامة يسري حكمها على الجميع دون محاباة ولا تمييز، فهي تنطبق على كل البشر، وتشمل كل الناس، المؤمنين والكافرين، الصالحين والطالحين، قال تعالى:{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ }(آل عمران: ١٣٧)، قال

---

([1]) ينظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ٥، ج ٩، ص ١١-١٢ .

([2]) عبد الحميد محمود طهماز: السنن الإلهية في الخلق، ص ١٤-١٥.

([3]) ينظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ١٣، ج ٢٦، ص ٣٥ . وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ٢٢، ص ٢٨٣ .

مجاهد: " المراد سُنَنُ الله تعالى في الكافرين والمؤمنين " ([1])، وقوله تعالى: **{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ...وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}**(القمر: ٤٣ و ٥١). قال القرطبي ([2]): " أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم " ([3])، ([4]).

**سُنَنُ الله في الكون:**

القرآن الكريم يحث البشر على معرفة السنن والقوانين التي يسير عليه الكون، قال تعالى: **{قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}**(يونس: ١٠١)، وأهم شيء يحث عليه القرآن ومن أجله أنزل الله الكتب وأرسل الرسل (عليهم الصلاة والسلام) هو سُنّة وقانون ((**تغيير الأنفس والمجتمعات**))، قال تعالى:**{إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}**(الرعد: ١١)، فلهذا كان الأمر والإلحاح في القرآن الكريم لينظر الناس إلى سُنَنِ الذين خلوا من قبل (الأمم السابقة)، وعلى البشر أن يتفهموا هذه السّنن والقوانين التي تتحكم بالبشر وبالواقع، والأخذ بها لأنها سنن لا تتخلف، وهي طريقته ((سبحانه)) في معاملة البشر، لهذا يقول الله تعالى:**{قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ}** (الأنفال: ٣٨)، أي تجري عليهم سنته المطردة في أمثالهم من الأولين الذين عادوا الرسل (عليهم الصلاة والسلام) وقاتلوهم، بالتدمير والإهلاك، وهذا وعيد لهم بالدّمار...وإضافة السُنَّة إلى الأولين لملابستها لهم وجريانها عليهم ([5]). ويقول تعالى:**{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }**(آل عمران: ١٣٧). قال صاحب الظلال: " القرآن يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض... فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث... واطمأنوا إلى ثبات

---

([1]) الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج ٥، ج ٩، ص ١٢ .

([2]) القرطبي: (...-٦٧١هـ /...- ١٢٧٣م) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من أهل قرطبة، صالح متعبد ورع، طارحٌ للتكلف، قمع الحرص بالزهد والقناعة، من كبار المفسرين، رحل إلى الشرق، واستقر بمنية ابن خصيب في شمال أسيوط بمصر وتوفي فيها، من كتبه: الجامع لأحكام القرآن، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، التذكار في أفضل الأذكار . عبد الحي بن العماد، أبو الفلاح الحنبلي: شذرات الذهب، ٥/ ٣٣٥ . الزركلي: الأعلام، مج ٥، ص ٣٢٢ .

([3]) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٧، ص ١٠٤ .

([4]) ينظر: عبدالكريم زيدان: السنن الإلهية، ص ١٤-١٥ .

([5]) ينظر: محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم، ج ٩، ص ٦٦٥ . وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ٩، ص ٣٢٢ .

النظام الذي تتبعه الأحداث... ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بالأسباب... والسنن التي يشير إليها السياق، هي: عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ومداولة الأيام بين الناس، والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين والحق للمكذبين " ([1]).

فالنشاط البشري يخضع للسنن والقوانين التي بثها الله في هذا الوجود، وكل ما في هذا الكون مرتبط بمقدمات وأسباب، وأنه سبحانه خلقه بنظام وترتيب جُعلتْ فيه المسببات بقدرِ الأسباب ([2])، قال تعالى:{**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**}(القمر: ٤٩).

والقرآن الكريم مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب ومبدأ العقاب على الأسباب بطرقٍ متنوعةٍ، فيأتي بباءِ السّببيةِ تارةً، كقوله تعالى:{**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**}(الحاقة: ٢٤)، ويأتي باللام تارةً، كقوله تعالى:{**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**}(إبراهيم: ١)، ويأتي بذكر الوصف المقتضي للحكم تارةً، كقوله تعالى: {**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**}(الطلاق: ٢)، فالله تعالى (جلّت قدرته) اقتضت حكمته ربط المسببات بأسبابها ([3]).

**سنّة الله في الظلم والظالمين:**

ولله ((سبحانه وتعالى)) سنّة (قانون) في الظلم والظالمين، في الطغيان والطغاة، ألا وهي: **إنزال العقاب فيهم في الدنيا بالهلاك والتدمير**، بما كانوا يفسقون وبما كانوا يظلمون ويطغون، وهي سنّة ماضية لا تتخلف جرت على الطغاة السابقين، وستجري على الحاضرين والقادمين فلن يفلت أحد منهم من عقاب الله في الدنيا كما لا يفلت أحد منهم من عقاب الآخرة ([4])، وفي بيان هذه (**السنّة العامة**) أو (**القانون العام**) آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها:

١. قوله تعالى بعد ذكر طغيان فرعون ومن قبله:{**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**}(الفجر: ١٠-١٤)، جاء في تفسير قوله تعالى: {**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**} " مجاز عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه، فالصب يشعر بالدوام والسوط بزيادة الإيلام،

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ١، ص ٤٧٨ .

([2]) ينظر: عبد المنعم صالح العلي العزي: تهذيب مدارج السالكين، مج ٢، نشر إحسان، ايران، (د. ت ، د. ط)، ص ١٠١٤ .

([3]) ينظر: عبد المنعم صالح العلي العزي: تهذيب مدارج السالكين، مج ٢، ص ١٠١٣-١٠١٥ .

([4]) ينظر: عبدالكريم زيدان: السنن الالهية، ص ١٩٤ .

أي عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً، وأن الله يرصدهم، وأنهم لا يفوتونه وأنه عالم بما يصدر منهم وحافظه فيجازيهم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر " (١)، والآية وعيد للطغاة والظالمين، ووعيد لغيرهم، وأنّ الله يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به (٢).

٢. وقوله تعالى:{وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ }(الحجر: ١٣)، أي " مضت عادة الله بإهلاك المكذبين " (٣).

٣. وقوله تعالى:{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ}(الأنعام: ٤٥)، أي استئصالهم، ودابر القوم هو آخر واحد منهم، يدبرهم أي يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى! (٤).

٤. وقوله تعالى:{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ}(يونس: ١٣)، وكلمة (لما) ظرف يدل على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سبب له، وهذا يدل على وقوع الهلاك لوقوع سببه وهو الظلم، وهذا الظلم نوعان، **الأول:** ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسق والفجور والتظالم فيما بينهم. **والثاني:** ظلم الحكام، مما يجعل الأمة ضعيفة غير صالحة للبقاء، فيسهل على الأعداء الاستيلاء عليها ومحقها وفنائها (٥).

وكما هو معلوم فإنّ الله ((سبحانه وتعالى)) قد أهلك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنّة (القانون العام)، وفي عالمنا المعاصر أهلك الله امبراطوريات كبيرة، منها: امبراطورية النمسا والمجر (آل الهبسبرك)، وامبراطورية الروس (آل رومانوف)، والاتحاد السوفييتي، والعديد من الانظمة الدكتاتورية المستبِدَّة.

**عندما تستنفذ طاقات البشر:**

عندما تعجز القدرات البشرية في مواجهة الاستبداد والطغيان والظلم، وتستنفذ جميع طاقاتها وتأخذ بالأسباب التي أمر الله تعالى البشرية الإتيان بها في مسيرتها في هذه الحياة وفي صراعها مع الطغاة، من دون أن تستطيع تحقيق أهدافها أو الحفاظ على وجودها، وعندما يصل

---

(١) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٤، ص ٣٥٥ .

(٢) ينظر: الآلوسي: روح المعاني، مج ١٥، ج ٣٠، ص ١٥٩ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠، ص ٣٦ .
البغوي: معالم التنزيل، مج ٨، ص ٤٢٠ .

(٣) حسنين محمد مخلوف: كلمات القرآن، تفسير وبيان، ص ١٤١ .

(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٢ ، ص ١٠٩٠ .

(٥) ينظر: عبدالكريم زيدان: السنن الإلهية، ص ١١٩-١٢٠ .

الأمر بالمستبدّين الطغاة إلى تجاوز جميع الخطوط في العدوان والإفراط في الظلم، تتدخل القدرة الإلهية لحسم الموقف بين المستبدّين والمصلحين وذلك بإنزال عقابه وإهلاك المستبدّين، يقول سيد قطب حول هذا الموضوع: " لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان؛ ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال. وكانت النهاية واحدة، هذا خسف به وبداره، وذلك أخذه اليم هو وجنوده، و لم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة، إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حداً للبغي والفساد، حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد. ودلت هذه وتلك [الخسف والغرق] على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزاً والصلاح حسيراً؛ ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال، عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية، بلا ستار من الخلق، ولا سبب من قوى الأرض، لتضع حد للشر والفساد " ([1]).

نعم عندما يعجز الناس عن الوقوف أمام الظلم والاستبداد، تتدخل القدرة الإلهية لإنهاء هذه الحالة الشاذة في الحياة، قال تعالى:{فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}(الزخرف: ٥٥)، أي أسخطونا وأغضبونا أشدّ الغضب بأعمالهم فأفرطوا في المعاصي، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لا نحلم عنهم، فأغرقناهم أجمعين ([2]).

فالأمم الظالمة والحكام المستبدّين قبل بعثة النبي (ﷺ) أهلكهم الله بعذاب من عنده، وبمعجزات ومؤيدات خرقت قوانين ونواميس هذا الكون، قال تعالى:{فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}(العنكبوت: ٤٠)، وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله (ﷺ)، فهناك ألوان من العذاب باقية ([3])، قال (ﷺ): ((سألت ربي لأمتي أربعاً فأعطاني ثلاثاً، ومنعني واحدة: سألته أن لا يكفر أمتي جملةً فأعطانيها، وسألته أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يعذبهم بما عذّب به الأمم قبلهم فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)) ([4])، ودخل في قوله (ﷺ): ((بما عذّب به الأمم قبلهم)) الغرق

---

([1]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٥، ص ٢٦٧٤ .

([2]) ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٧، ص ١٥٤ . الزمخشري: تفسير الكشاف، ص ٩٩٤ . النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٤، ص ١٢١ . حسنين محمد مخلوف، كلمات القرآن، تفسير وبيان، ص ٢٩٤ .

([3]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٢، ص ١٠٩١ .

([4]) الطبراني: المعجم الأوسط، ٢٤١/٢ . الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٢٢٢/٧ .

كقوم نوح وفرعون، والهلاك بالريح كعاد، والخسف كقوم لوط وقارون، والصيحة كثمود وأصحاب مدين، والرجم كأصحاب الفيل، وغير ذلك مما عُذِّبت به الأمم عموماً ([1]).

فإن هلاك المستبِدّين والأنظمة الاستبدادية أمر كوني يسير وفق السنن والقوانين التي وضعها الله ((سبحانه وتعالى)) في هذا الوجود، ومن سنة الله في تدمير (الباطل) أن يقوم في الأرض (حق) يتمثل في (أمة) تدفع (الباطل)... ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق... ([2]).

إن الاستبداد في الأمة كالمرض في الإنسان يعجل في موته. فالاستبداد والظلم يعجل في سقوط النظام بما يحدثه من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكه واضمحلاله خلال مدة معينة يعلمها الله وهي الأجل المقدّر له، أي الذي قدّره الله تعالى له بموجب سننه العامة التي وضعها لآجال القرى بالتعبير القرآني – الأنظمة والدول والأمم – بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم، ويظهر أثرها – السقوط والفناء – بعد مضي مدة محددة يعلمها الله، قال تعالى:{**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**}(الأعراف: ٣٤) ([3]). أي: أنّ لكل أمة وقت معين مضروب لاستئصالهم ([4])، وهي تسير وفق سنّة وقانون مطرد لا يتغير ولا يتبدل.

---

([5]) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٢٢١/٨ .

([1]) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٢، ص ١٠٩١ .

([2]) ينظر: عبدالكريم زيدان: السنن الإلهية، ص ١٢٠-١٢١ .

([3]) ينظر: الآلوسي: روح المعاني، مج ٤، ج ٨، ص ١١٢ .

# المبحث الثالث

# التصور القرآني للنظام العادل الراشد

## المطلب الأول: المرجعية العليا للدولة ونظام الحكم العادل

### الفرع الأول: الشريعة هي المرجعية العليا في الدولة ونظام الحكم

### الفرع الثاني: الرئاسة العامة

## المطلب الثاني: أسس ومبادئ الدولة ونظام الحكم العادل

## المطلب الثالث: الحقوق والحريات في النظام العادل

# المبحث الثالث

## التصور القرآني للنظام العادل الراشد

في هذا المبحث نتحدث عن التصور القرآني للنظام العادل الرشيد من خلال النصوص القرآنية، ذاكرين أهم المبادئ والقواعد والأصول، التي ينبغي أن يقوم عليها الحكم أو النظام السياسي الإسلامي. في تمهيد ومطالب ثلاثة نتطرق فيها إلى المرجعية العليا للدولة ونظام الحكم في هذا النظام والرئاسة العامة، وأهم الأسس والمبادئ التي يقوم عليها، والحقوق والحريات المقررة والمصانة فيه للأفراد.

### تمهيد

من خلال استقراء الآيات القرآنية بشكل عام، والآيات المتعلقة بموضوع الحكم والولايات العامة والخاصة بشكل خاص، نرى أنّ المنهج القرآني العام حول موضوع أصول وقواعد الحكم أو النظام السياسي الإسلامي، يضع قواعد كلية وأصول ثابتة ومبادئ عامة، لا يمكن إهمالها في أي نظام حكم صالح، ولكن هذا المنهج لا يتدخل في التفصيلات والشكليات، ولم يضع شروطاً معينة لجزئيات أنظمة الحكم، وذلك وفق الخصائص التي اتصف بها، ومنها: خاصية المرونة ومراعاة مقتضيات ظروف البيئة أو الصالح العام، وخاصية التيسير ونفي الحرج. فالآليات والوسائل من الأمور المتغيّرة المتطورة بطبيعتها ([1])، وحتى تستطيع الأمة أن تصوغ دقائقها وفقاً لمقتضيات الزمان والمكان في كل زمان ومكان ([2]).

ومن الجدير بالذكر أنه لم ترد في المصادر الإسلامية سواءً كانت نصوصاً من القرآن والسنة، أم كانت فكراً من نتاج العقل والاجتهاد الإسلامي، أم كانت أنموذجاً وشكلاً من الواقع والتجربة التاريخية، شكلاً وأنموذجاً محدداً للحكم أو للنظام السياسي الإسلامي، فمن الواقع والتجربة كان الشكل متغيِّراً متعدّداً، وعليه لا نرى شكلاً محدداً للنظام السياسي الإسلامي، إلاّ أنّ التجربة في العهد الراشدي كانت أقرب وفق الرؤية المعاصرة إلى النمط الجمهوري الديموقرطي الرئاسي المعاصر، فالنظام لم يكن وراثياً، بل كان يتم اختيار البديل أو الخليفة من الأكفاء الذين ترتضيهم الأمة، وكان الاختيار على أساس الشورى والانتخاب العام، وكانت الصلاحيات بصورة عامة بيد الرئيس العام – الإمام أو الخليفة – كما في النظام الرئاسي المعاصر.

---

([1]) فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، مبادئ دستورية – الشورى، العدل، المساواة، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، دار الشروق، القاهرة، ص ١٢٧، (هامش رقم ٣) .

([2]) ينظر: محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص ١٤٦.

وفي المقابل نرى بأن المنهج القرآني فيما يخص هذا الموضوع يضع قيم عليا من مبادئ عامة وقواعد كلية وأصول ثابتة، ويؤكد عليها، وإذا كان القرآن الكريم يمتاز بالشمول... وإذا كان القرآن {تبياناً لِكُلِّ شَيء}(النحل: ٨٩)، فمن الطبيعي أن نجد فيه آيات تتعلق بالمسائل والأحكام الدستورية ولكننا لا نجدها بمصطلحات القرن العشرين، بل بلغة القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والعبرة إنما بالمسميات لا بالأسماء. فالحكم، والإمارة، والملك، والسلطان، والولاية، والسيادة، والقضاء، والحرب والسلم، والمعاهدة، وحقوق الأفراد وحرياتهم، وحقوق الحاكم، وحقوق أهل الذمة من المواطنين، والشورى في الحكم، مسائل مهمة أشار إليها القرآن الكريم، وقررها – صحيفة المدينة – قبل أن يوجد أي دستور مدون في الأرض ([1]).

فالحكم أو النظام السياسي الإسلامي ينبغي أن يقوم على المبادئ والقواعد والأصول، التي قررها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي بدونها لا يمكن أن نسميه بالنظام الراشد، بل يوصف بالحكم والملك العضوض والجبري ([2])، وذلك عند فقده إحدى أو بعض من هذه الأسس، كما ورد في الحديث النبوي: (( ستكون الخلافة بعدي ثلاثون... )) ([3]).

وأما ما يرد في كتب الفكر الإسلامي حول ((**ولاية الغلبة أو ولاية المتغلب**))، وما يرتّب عليه البعض، من الطاعة والاعتراف بإمامته ولو لم تتوفر فيه الشروط، فالفقهاء لم يرضوا بإمامة المتغلب، و لم يسكتوا عن الحكام الظلمة والفسقة، إلا اتقاءً للفتنة وخشية الفُرقة، وما علموا أنهم في الفتنة سقطوا بما رضوا من الخروج على أمر الله، وبما سكتوا عن إقامة أمر الله. وهذه الولاية يجب صرفها إن لم يترتب على صرفها فتنة أو كان في صرفها أخف الضررين، وإن السعي واجب دائماً لإزالتها عند الإمكان، ولا يجوز أن توطن النفوس على دوامها ([4])، وهي الاستثناء وليست القاعدة.

والمبادئ والقواعد والأصول، التي يمكن استقراؤها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بخصوص النظام السياسي الإسلامي، وما ينبغي أن تكون عليه، ذات أثر كبير في صياغة التصور الإسلامي للدولة ووظيفتها وخصائص نظام الحكم فيها. وانطلاقاً من هذه (( المبادئ

---

([1]) منير حميد البياتي: الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، ص ٤٩–٥٠ .

([2]) البيهقي: السنن الكبرى، ١٥٩/٨ . الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٨٩/٥ . أبو داود الطيالسي: مسند أبي داود الطيالسي، ص ٣١ . الطبراني: المعجم الكبير، ١٥٧/١ ، ٥٣/٢٠ ، ٢٢٣/٢٢ .

([3]) ابن حبان: صحيح ابن حبان، ٣٩٢/١٥ . ابن حبان:الثقات، ٣٠٤/٢ . الطبراني: المعجم الكبير،٨٩/١ ، ٨٤/٧ . جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير، ٦٣٨/١ . المتقي الهندي: كنز العمال، ٨٧/٦ .

([4]) ينظر: عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا السياسية، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د. ط ،د. ت)، ص ١٢٧–١٢٨.

والقواعد والأصول»، وتأسيساً عليها تبنى التفاصيل والجزئيات – التي قد لا يمكن حصرها – في نظام هذه الدولة وفي اختصاصات السلطات فيها، وفي قيود مُباشَرة هـذه الاختصاصـات ([1]). ويمكن تلخيص هذه المبادئ والقواعد والأصول في المطالب الثلاثة الآتية:

## المطلب الأول

## المرجعية العليا والرئاسة في الدولة ونظام الحكم

هذا المطلب يخص المرجعية العليا للدولة، وطبيعة الرئاسة العامة فيها، ويمكن تلخيصها في فرعين:

### الفرع الأول

### الشريعة هي المرجعية العليا في الدولة ونظام الحكم

لكل دولة ونظام حكم دستور وقانون عام تستند عليه، ويكون المرجع لها في كل مـا يتعلق بالحياة العامة في المجتمع وفي نظام الحكم. وفي دولة الإسلام تكون الشريعة هـي المرجـع الأساس للمجتمع وللنظام الحاكم، قال تعالى:{إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْـرُ الْفَاصِـلِينَ} (الأنعام: ٥٧) وقال تعالى:{وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ}(المائدة: ٤٩)، فالمرجعية والسيادة العليا تكون للشريعة ومبادئها في الحكم فهـي الدستور الذي لا يجوز تجاوزه أو الإغفال عنه.

ووجود الدستور – في فقه القانون العام – يعني إقامة نظام في الدولة وبيان قواعد ممارسة السلطة فيها ووسائل وشروط استعمالها، ومن ثَمّ يمنع كل استخدام للسلطة العامة لا تراعى فيـه هذه الشروط أو تلك القواعد ([2]).

فالدولة في الإسلام مدنية غير ثيوقراطية (دينية) ([3])، فهي تستند إلى دسـتور وقـانون، ويلتزم به الجميع حاكمين ومحكومين، أي أنها تعتقد بسيادة القانون، فالقواعد الفقهية التي تركن إليها الدولة تقتضي كون القانون فوق الجميع حاكماً أم محكوماً، فالسلطة ملزمة بتطبيق القانون

---

([1]) ينظر: محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص ١٤٧.

([2]) منير حميد البياتي: الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، ص ٤١ .

([3]) تم التعريف بمصطلح الثيوقراطية في ص ١٩ .

والسهر على سلامة تنفيذه لضمان العدالة ومنع الإضرار بمصالح الدولة، وبدون ذلك يتحول الحكم إلى تسلّط واستبداد وطغيان ([1]).

ونرى بأنّ «صحيفة المدينة» تجعل الفصل في كل الأمور، يعود إلى الله ورسوله (ﷺ)، فقد جاء فيها كنص يحدد المرجعية العليا للدولة الجديدة: « وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمد (ﷺ) » ([2])، وقال تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**} (النساء: ٥٩).

ولذلك نجد أنّ سيادة القانون المكتوب – ألا وهو (القرآن الكريم) – مبدأ تقوم عليه الدولة، وقانون ملزم للحكومة، وعليها تنفيذه بين الناس، والقيام بتوضيحه بكل السبل، وتوجيه الأمة إلى تربية النفوس والعقول والسلوك وفق قواعده وأصوله، وإشاعة روح التعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى:{**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**}(الأنعام: ١٩) ([3]).

## الفرع الثاني

## الرئاسة العامة في الدولة – الخلافة أو الإمامة العظمى –

الرئاسة العامة في الدولة القائمة على الإسلام عقد يبرم بين الحاكم والمحكومين، وهو مبدأ مبني على العهد أو الميثاق والذي يسمى بـ((**البيعة**))، وهذه البيعة مبنية على الرضا بمحض الإرادة والاختيار الحر. والرضا أساس كبير من أسس مجتمع الإسلام، ففي المعاملات، قال تعالى:{**لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ**}(النساء: ٢٩)، وفي العبادات، قال الرسول (ﷺ): ((ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً: رجلٌ أمَّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان !!)) ([4]). وكذلك الرئاسة

---

([1]) ناصر عبيد الناصر: ظاهرة الفساد، مقاربة سوسيولوجية–اقتصادية، سوريا – دمشق، ٢٠٠٢، دار المدى للثقافة والنشر، ص ٤٢ .

([2]) ينظر: علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص ٣٢٩ .

([3]) إسماعيل عبد الفتاح: القيم السياسية في الإسلام، ص ١٢٩ .

([4]) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ٣٣١/١ . أبو داود: سنن أبي داود، ١٤٢/١ . الترمذي: سنن الترمذي، ٢٢٣/١ ، ((بلفظ: ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم... وإمام قومٍ وهم له كارهون))، وقال: هذا حديث حسن . (متصارمان: متقاطعان)، ينظر: الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٠٤٠–١٠٤١ .

العامة – الخلافة أو الإمامة العظمى – أساسها ((الرضا)) فالأصل ألا تصح ولاية الأمة بغير رضا؛ لأنّها عقد وأساس العقود الرضا ([1])، وقد بحث السنهوري ([2]) طبيعة ((**عقد الإمامة**)) والواقعة القانونية المنشئة لاختيار الإمام بصفة خاصة كما عرضه فقهاء الشريعة، فقال عنه: إنه (عقد حقيقي). فـ((عقد الإمامة)) عقد مستوفٍ للشرائط من وجهة النظر القانونية، فهو مبني على ((الرضا))، وغايته أن يكون المصدر الذي يستمد منه الإمام سلطته، وهو تعاقد بينه وبين الأمة...فالحاكم يتولى سلطته من الأمة نائباً عنها نتيجة لتعاقد حرّ بينهما ([3])، وبدون هذا الشرط يعدُّ النظام غير شرعي ولا مبرر لاستمراره، ويوصف شرعاً بالملك العضوض والجبري – أي غير راشد –، وعليه فالحاكم في الدولة الإسلامية يختاره الشعب، وهو وكيل للأمة ونائب عنها، ولها حق المساءلة والمحاسبة والمعاتبة وحتى العزل وسحب الثقة عنه وردعه عندما يكون هناك إخلال بشروط المبايعة التي تثبت له، فهو مسؤول عن أعماله أمام الله والناس، وعليه احترام الرباط الذي يربطه بالأمة، والذي يفرض عليه التزامات عدة، ومنها تنفيذ الدستور والمحافظة عليه، والدفاع عن سلامة الأمة ووحدتها. والرئيس العام أو الحاكم واحد من الناس، وفرد عادي من الأمة يخضع لتعاليم الشريعة، يصيب ويخطئ، ويحسن ويسيء، ولا يكتسب أي صفة قداسة أو عصمة، فالدولة مدنية في الرؤية الإسلامية وليست ثيوقراطية ([4])، فالرئيس العام أو الحاكم يحكم بالشريعة ومحكوم بها، غير مستثنٍ من أحكامها.. فهو منفِّذ، ولا يعفيه الإسلام من أخطائه ولا يخفف من مسؤوليته، ولا يميزه عن أي شخص ([5])، لكونه رئيساً.

---

([1]) ينظر: علي جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، ص ٢١٥-٢١٦ .

([2]) السنهوري (١٣١٢-١٣٩١هـ / ١٨٩٥-١٩٧١م): هو عبد الرزاق بن أحمد السنهوري، الدكتور: كبير علماء القانون المدني في عصره، مصري، ولد في الأسكندرية، تخرّج بالحقوق في القاهرة (١٩١٧)، حصل على الدكتوراه في القانون والاقتصاد والسياسة في فرنسا (١٩٢٦)، تولى وزارة المعارف بمصر عدة مرات، ومنح لقب ((باشا))، واختير عضواً في مجمع اللغة العربية (١٩٤٦)، وعين رئيساً لمجلس الدولة بمصر (١٩٤٩-١٩٥٤)، واضطهد مدة، فصبر، وضع قوانين مدنية لعدة دول عربية، توفي بالقاهرة، من كتبه المطبوعة: أصول القانون، نظرية العقد في الفقه الإسلامي، الوسيط، شرح القانون المدني في العقود، مصادر الحق في الفقه الإسلامي. الزركلي: الأعلام، مج ٣، ص ٣٥٠ .

([3]) فتحي عثمان: دولة ((الفكرة))، ص ٦٥-٦٦ .

([4]) ينظر: خليل إبراهيم محمد: شخصية المسلم بين التراث والوافد/ضوابط ومعايير، ص ٢٧٢. غازي حسن صباريني: الوجيز في حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، ط١، ١٩٩٥، مكتبة دار الثقافة، عمان – الأردن، ص ٢٢ .

([5]) عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص ١٣٢ .

وعليه فالدولة في الإسلام ((**قانونية**)) أو هي دولة ((**قانون**)) أي أنها تخضع في جميع تصرفاتها وشؤونها للقانون، كما يخضع جميع الأفراد بما فيهم جميع المسؤولين في الدولة ومنهم رئيس الدولة في جميع تصرفاتهم وعلاقاتهم لهذا القانون بدون تمييز ([1]).

فالرئيس العام ينتخب من قبل الشعب وفق آليات تسمى بـ ((**الديمقراطية**)) بالمصطلح الحديث، وفي المصطلح الإسلامي بآلية تسمى بـ((**الشورى**))، فأهم أمور المسلمين وأحقها بالشورى هو أمر الحكم، ووظيفة الحاكم والحكومة التي تختارها الأمة هي القيام بالواجب المفروض عليها تجاه الدستور والشعب، عندها تعدّ نائبة عنها كلها وعن كل فرد منها. والحاكم يستمد سلطانه من النيابة عن الأمة وهو ممثل عنها، وتستطيع الأمة بما لها من حق اختيار النائب عنها أن توسع هذا السلطان أو تضيق فيه أو تقيده بقيود كلما رأت في ذلك مصلحة عامة أو ضماناً لحسن القيام على أمر الدستور وعدم الخروج عليه.. وعليه فمركز الحاكم في النظام السياسي الإسلامي هو مركز الوكيل والنائب عنها، لا المتسلط عليها، والمنَفِّذُ لأمرها لا المستبِدِّ به ([2]).

وهكذا قبل مجيء المفكر الفرنسي (جان جاك روسو) بنظريته في ((العقد الاجتماعي)) بقرون عديدة، التي بناها على حالة تخيّلها في عصور ماضية سحيقة ولا يوجد عليها برهان تاريخي، فالعقد الذي تكلم عنه كان مجرد افتراض لا غير، بينما نرى بأنّ ((نظرية العقد الإسلامية)) تستند إلى ماضٍ تاريخي ثابت: هو تجربة الأمة في خلال العصر الذهبي للإسلام. فالرئيس العام – الخليفة أو الإمام- في النظام السياسي الإسلامي إنما جُعِل ليقيم للناس الصلاة، ويقيم الأحكام والحدود... وهذه كلها عقود... ([3])، وعقد المبايعة من أعظم العقود في الشرع، وذلك لما يترتب عليها من تبعات ومسؤوليات كبيرة.. وهذا العقد في الإسلام مقيّد غير مطلق، وذلك لكي لا يفتح المجال لعشاق السلطة والكراسي أن يفعلوا بالأمة وفق أهوائهم ومصالحهم، فهو مقيّد بـ ((**المعروف**)) قال الرسول (ﷺ): ((إنما الطاعة في المعروف)) ([4])، ([5]).

---

([1]) ينظر: عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة، ص ٢٢٨ .

([2]) عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص ١٣٠-١٣١.

([3]) ينظر: فتحي عثمان: دولة ((الفكرة))، ص ٦٦-٦٧ .

([4]) البخاري: صحيح البخاري، ١٠٧/٥ ، ١٠٦/٨ ، ١٣٥/٨ ، (واللفظ له) . مسلم: صحيح مسلم، ١٥/٦ .

([5]) ينظر: محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم، ج ٩، ص ٥٣٥ .

## المطلب الثاني

## أسس ومبادئ الدولة ونظام الحكم العادل

هناك أسس ومبادئ عديدة يقوم عليها النظام السياسي في الإسلام والتي قررها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وفيما يلي نبذة عن كل واحدة منها:

### أولاً: العدل:

هذه القيمة تستند عليها مبادئ الشريعة وتنبع منها مبادئ وأسس عديدة أخرى. وهي سمة لازمة للمجتمع الإسلامي وخصيصة من خصائصه، والمجتمع المسلم جسد روحه العدل ([1])، ويعد من أهم المبادئ الدستورية التي قررها ودعا إليها القرآن الكريم في الأمور كلها وخاصة في الحكم، وقد ورد ذلك صريحاً في آيات قرآنية عديدة منها، قوله تعالى في ((آية الأمراء)):{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}(النساء: ٥٨)، فالأمر للحكام والحكومات بالعدل في الحكم، وذلك باعتبار كون مبدأ العدل قاعدة دستورية، وحق من حقوق الله أو ما يكون فيه حق الله غالب ([2])، ولهذه القيمة مساحة واسعة، وحيّز كبير في نصوص القرآن والأحاديث، لما لها من أهمية قصوى في الحياة الإنسانية التي بدونها تختل الموازين، وتضطرب الأمور، فهي «أعرف المعروف» لأنها أساس كل ما قرره القرآن من مبادئ كلية وقواعد عامة، فهي بحق نظام الله وشرعه، وعلى أساسه تستقيم للناس دنياهم وأخراهم، قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}(الحديد: ٢٥).

والمسلمون مأمورون بالعدل في الأحكام، قال تعالى:{فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }(الحجرات: ٩). وفي الأقوال، قال تعالى:{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}(الأنعام: ١٥٢)، وفي الأفعال، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(المائدة: ٨)، وفي الأخلاق، قال تعالى:{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ}(النحل: ٩٠)، كما هم مأمورون

---

([1]) ينظر: منير حميد البياتي: الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، ص ١٤٨-١٤٩ .

([2]) فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، ص ١٩٥ .

بالعدل في مجال السياسة وإمضاء سلطات الدولة على قاعدة العدل حكاماً ومحكومين، فالخطاب في ((**آية الأمراء**)) ليس قاصراً عليهم وإنما هو خطاب إلى جمهور الأمة يكمله ماجاء في الآية التالية لها، قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}** (النساء: **٥٩**) ([1]).

**فالعدل** يبلغ أن يكون **قرين التوحيد** في ميزان الله تعالى، وأنّ **الظلم** في شرعية الله سبحانه يبلغ **قرين الشرك.** ومن ثم كان الظلم مسقطاً كل شرعية عن أي نظام وإن زعم أنه مسلم..! ([2]).

والعدل الذي يأمر به الله ((سبحانه وتعالى)) ليس انتقائياً، فينبغي تحقيق العدل مع الجميع وللجميع، ولا يجوز أن تكون العداوة مانعة من إحقاق هذا العدل، وهذا النهي عام للأفراد والحكام، فالله يأمر المؤمنين بالعدل حتى مع الأعداء، قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}**(المائدة: ٨).

وعليه فالعدل قيمة أساسية يستند عليه النظام السياسي الإسلامي، وبانتفاء هذه القيمة تنتفي عنه صفة الإسلام، ويكفي أنْ نتذكر أنّ من أسماء الله الحسنى (**العدل**).

## ثانياً: الشورى:

كأصل ثابت من أصول الإسلام، وكمبدأ راسخ في التصور القرآني، ليس في مسألة الحكم والولايات العامة بل في جميع المسائل والقضايا المتعلقة بالحياة الإنسانية، ففي النسق القرآني تأسيس وتأصيل لمبدأ الشورى وعدّه أساساً للنظام السياسي، فالحكم في الإسلام يقوم على البيعة والتراضي والتشاور ([3])، والقرآن الكريم يأمر بالشورى ويمدح ويثني على المؤمنين المتصفين بهذه الصفة ([4])، قال تعالى:**{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}**(الشورى: ٣٨)، ولكنه لا يدخل في التفاصيل، وبذلك يعطي المجال للعقل الإنساني والتجربة

---

([1]) ينظر: فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، ص ١٩٨.

([2]) ينظر: علي جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، ص ١٦٩ .

([3]) ينظر: بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة / رؤية نقدية، ص ٥٤ .

([4]) ابن عطية الأندلسي: المحرّر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ج الأول، ص ٥٣٤ .

البشرية للوصول إلى الشكل والأسلوب أو الآلية المناسبة لتحقيق المقاصد التي تتوخاها هذه القيمة عملياً، ألا وهي ترسيخ مبدأ المشاركة العامة في المسؤولية، واهتمام المسلمين بأمورهم العامة، ونبذ الاستبداد، يعد قطب الرحى في النظام الإسلامي لأنه ضمان وتجسيد لدور الأمة الإيجابي في تأمين الحقوق والحريات من أي اعتداء يقع عليهم من الحكام المستبدين، مع امتلاكهم القدرة على تغيير الحكام إذا لم يفوا بشروط العقد بينهم وبين الأمة ([1]).

ومن جانب الآليات والصيغ العملية التي تحقق المقاصد والغايات من الشورى والديمقراطية، فإنها من باب التجارب والخبرات الإنسانية، وتقع تحت باب الاجتهاد البشري في ما يعد من المتغيرات، وتعد ثروة إنسانية يمكن الاستفادة منها، فالخبرة الديمقراطية التي أفرزت النظام النيابي، والتمثيل عبر الانتخابات، والضمانات الدستورية والأجهزة الرقابية، والفصل بين السلطات، والحريات العامة، وتعدد الأحزاب، ووعي الشعوب ونضجها في معرفة حقوقها والمطالبة بها وعدم التهاون فيها، ودورها في المشاركة السياسية وصنع القرار (مواجهة ومحاسبة الحكام)، تعدّ من التجارب الثرية في هذا الجانب، وتعدّ من أفضل الضمانات لمنع الاستبداد وتقليم أظافر المستبدين، وأفضل ما يعزز مبدأ الشورى، ويوطد دعائم العدل، وإتاحة الفرصة لتوسيع المشاركة الجماهيرية في تحمل المسؤولية، وأداء الأمانة ([2])، وهي مقاصد وغايات تتوخاها قيم الإسلام وشرائعه السمحة.

فالأمر شورى، وليس الظلم والتفرد والاستبداد بالرأي وإدعاء التفويض الإلهي، وقد سميت سورة بكاملها في كتاب الله بـ ((**الشورى**))، ويمكن في هذا السياق تذكر الآية التي تأمر رسول الله (ﷺ) بأن يشاور صحابته وأمته في الأمر، والآية التي تصف المجتمع المسلم بأن أمره شورى بينه.

### ثالثاً: المساواة:

كمبدأ من المبادئ الإنسانية، يتجلّى بوضوح في النص القرآني، فهو من مقتضى عدل الله وحكمه في خلقه، أو هو صورة من صوره، وأحكام القرآن ناطقة بتقرير ((**المساواة**)) على أكمل وجوهها، فكما أمر الله تعالى بالعدل، قرّر المساواة فيه بين الناس كافة، في السور المكية والمدنية ([3])، وهذه المساواة اتخذت جميع أبعاد الحياة البشرية، فهي حجر الزاوية في كل تنظيم عادل

---

([1]) ينظر: فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، ص ١٩ .

([2]) ينظر: خليل إبراهيم محمد: شخصية المسلم بين التراث والوافد/ضوابط ومعايير، ص ٢٧٧ .

([3]) ينظر: فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، ص ٢١٣ .

للحقوق والحريات وهي بمثابة الروح من الجسد، بغيرها ينتفي معنى العدل وينهار كل مدلول للحرية، فمبدأ المساواة مبدأ أساسي تخضع له جميع الحقوق والحريات لجميع المواطنين، والمساواة بين بني البشر والتي تتجلى في وحدة الأصل، فالبشر متساوون في أصل المنشأ، وفي أصل الكرامة الانسانية وفي أصل التكليف والمسؤولية دون تميّز، وهذا يقتضي عدم الالتفات إلى اختلافهم في الأجناس والألوان والأنساب، لأنّ الحكمة قد اقتضت أن يكون مقصود هذا الاختلاف التعارف والتعاون بين الأمم والشعوب، وأنّ التقوى هو مقياس التفاضل فيما بينهم ([1])، قال تعالى:{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**}(الحجرات: ١٣).

المساواة هي أساس القاعدة القانونية وأساس مبدأ الشرعية وأساس العدل، وإذا لم يحترم مبدأ المساواة تنهار في المجتمع قيم ومبادئ كثيرة، إحداها: الحرية، لذلك نستطيع أن نقول بأن المساواة هي أساس الحرية، وفيما يلي تقسيم الفقه الدستوري لمضمون مبدأ المساواة كما شرعه النظام الإسلامي:

١. **المساواة أمام القانون:** ومقتضاها أن يكون جميع المواطنين طائفة واحدة بلا تمييز لأحدهم على الآخر في تطبيق القانون، فلا امتياز بصفة ولا استثناء لسبب، فالجميع متساوون أمام القانون، حتى أنّ الرسول (ﷺ) قال لمن استشفع لامرأة من بني مخزوم سرقت: ((إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)) ([2]).

٢. **المساواة أمام القضاء:** ويقصد بها أنّ المواطنين جميعاً أمام القضاء سواء، من ناحية خضوعهم لولاية القضاء، وإجراءات التقاضي، وأصول المرافعة، وقواعد الإثبات، وسريان النصوص عليهم، وتنفيذ الأحكام الصادرة بحقهم، لا ميزة في ذلك لشريف، أو نبيل، أو طبقة، أو حزب، أو عشيرة، حتى رئيس الدولة نفسه عليه أن يحضر إلى ساحة القضاء التي يقاضي فيها أي مواطن عادي سواءً أكان مدعياً أم مدعى عليه، قال تعالى:{**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ**}(النساء: ٥٨)،

---

([1]) ينظر: فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، ص ٢١٤ . غازي حسن صباريني: الوجيز في حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، ص ٥٥.

([2]) ينظر: غازي حسن صباريني: الوجيز في حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، ص ١٩-٢٠ . والحديث أخرجه البخاري: صحيح البخاري، ٩٧/٥ ، ١٦/٨ ، ١٥٠/٤ ، ٢١٣/٤ . والنسائي: سنن النسائي، ٧٣/٨ . وأبو داود: سنن أبي داود، ٣٣٢/٢ . والدارمي: سنن الدارمي، ١٧٣/٢ .

فالآية عامة تشمل جميع الناس بدون تفريق وتمييز لأي سبب كان، بل حتى الأعداء ليظفرون بالمساواة الكاملة أمام القضاء الإسلامي والعدالة التامة في ساحته، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(المائدة: ٨).

٣. **المساواة أمام وظائف الدولة:** ومقتضى ذلك أن يتساوى جميع المواطنين في تولي الوظائف العامة وان يعاملوا المعاملة نفسها من حيث المؤهلات والشروط المطلوبة قانوناً لكل وظيفة، ومن حيث المزايا والحقوق والواجبات والمرتبات والمكافآت المحددة لها.

٤. **المساواة في التكاليف والأعباء العامة:** وهذه المساواة يفرعها علماء القانون إلى فرعين، الأول: المساواة أمام الواجبات المالية، ومنها: الزكاة، والضرائب – العادلة –، مع مراعاة القواعد الضريبية التي تكفل عدالتها، مثل: قاعدة عمومية الضريبة، وعدم ازدواجيتها وكونها شخصية. والثاني: المساواة في أداء الخدمة العسكرية ([1]).

٥. **المساواة في الرعاية والانتفاع بالخدمات العامة:** المساواة في رعاية الدولة وعنايتها، وانتفاع جميع المواطنين بالخدمات العامة التي تقدمها الدولة دون تمييز ([2]).

### رابعاً: التعددية والتنوع:

لقد خلق الله تعالى هذا الكون على سنة وقانون التعددية والزوجية، قال تعالى:{وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا}(الزخرف: ١٢). وجعل من آياته تنوع الأجناس وتعدد اللغات، قال تعالى:{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}(الروم: ٢٣)، ووضع قواعد وقوانين للمجتمع المسلم في التعامل مع الآخر المختلف معه في العقيدة، وهذا دليل على تقبل فكرة التعددية والتنوع داخل الدولة الواحدة، في ظل النظام السياسي الإسلامي، قال تعالى:{لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }(الممتحنة: ٨)، بل يأمر بالبرِّ إليهم والقِسْطِ معهم.

---

([1]) ينظر: منير حميد البياتي: الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، ص ١٤٨-١٥٥ . فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

([2]) ينظر فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، ص ٢٢٦-٢٢٧ . غازي حسن صباريني: الوجيز في حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، ص ٢٢٣-٢٢٩ .

عليه أصبحت من القواعد الشرعية والأساس في التعامل مع الآخر المختلف في الدولة في ظل النظام السياسي الإسلامي، قاعدة «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**».

وفي مقدمة «صحيفة المدينة» التي كتبها رسول الله (ﷺ) بينه وبين أهل المدينة التي يسميها كثير من الباحثين «دستور المدينة» نجد إعلاناً عن قيام وحدة سياسية إسلامية قائمة على التعددية، فهي تتألف من المهاجرين، والأنصار، وقبائل اليهود، وبعض مشركي العرب، ومما ورد فيها: هذا كتاب من محمد النبي (ﷺ) رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل يثرب)، ومن تبعهم فلَحق بهم وجاهد معهم، انهم أمة واحدة من دون الناس... وان من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، وهكذا اعتبرت الصحيفة اليهود جزءًا من مواطني الدولة وعنصراً من عناصرها، فهم أمة مع المؤمنين، والاختلاف في الدين ليس - بمقتضى أحكام الصحيفة - سبباً للحرمان من مبدأ «المواطنة» ([1]).

فالآخر موجود في ظل الدولة التي تقوم على الإسلام، وله مالنا وعليه ما علينا، وتعدد الأديان والمعتقدات كان حقيقة وواقعاً في ظل دولة الرسول (ﷺ)، ودولة الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم).

### خامساً: المسؤولية العامة والمشتركة:

أساس هذه المسؤولية العامة والمشتركة التي نستطيع تسميتها بـ «الرقابة المشتركة» جميع النصوص القرآنية الآمرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ([2]). وعليه فإنّ جميع الأفراد مكلفون ومسؤولون، كلٌّ حسب موقعه، ولا تقتصر المسؤولية على الحكام وحدهم، في النظام السياسي الإسلامي، بل تشمل المحكومين أيضاً، وهي المعبِّر عنها أحياناً بالأمانة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، قال تعالى:{**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا**}(الأحزاب: **٧٢**)، ويصف الرسول (ﷺ) ولاية الأمر بأنها «**أمانة**»، كما صرّح بذلك لأبي ذرّ (رضي الله عنه)، قال (ﷺ): ((يا أبا ذر إنها أمانة...)) ([3])، هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات جميعها العامة والخاصة، وذلك باعتبارها من

---

([1]) ينظر: علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص **٣٢٣-٣٣٤** .

([2]) ينظر: منير حميد البياتي: الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، ص **١٠٠** .

([3]) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، **٩٢/٤** ، (وقال: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه) . أبو داود الطيالسي: مسند أبي داود الطيالسي، ص **٦٦** .

((**الأمانة**)) التي حذّرنا منها (ﷺ) خوفاً من عدم القيام بحقها، لا سيّما إن كان في الإنسان ضعف أو عدم قدرة في القيام بوظائف الولاية المنوطة به ([1]).

فمسؤولية كل فرد في المجتمع، وحسب موقعه يعدُّ مبدأً عاماً كما قرّرته الآيات القرآنية، قال تعالى:{**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**}(الصافات: ٢٤)، وقوله (ﷺ): ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ..)) ([2])، وهذه المسؤولية التي يشعر بها كل فرد في المجتمع، وبأبعادها الإيمانية، لها الأثر الكبير على الحياة العامة، من جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الأمر الذي ينعكس في تقدير الواجب الواقع على عاتق كل واحدٍ منهم، بزيادة الوازع الداخلي، ورقابة الله تعالى، وتثري طاقة المجتمع وتقويه في الجوانب كلها، وترفع من الهمة والكفاءة نحو الإحسان والإتقان في الأداء من قبل الأفراد. والعمل على تأصيل هذا المبدأ في المجتمع وتقنينه، وذلك بتحديد المسؤوليات والاختصاصات في إطار المؤسسات، حتى تشكّل أرضية صالحة لتبلور الأصول والقواعد الكلية في النظام السياسي الإسلامي أمر في غاية الأهمية ([3])، وذلك لترسيخ العمل المؤسساتي المقنن في المجتمع المسلم، مما يؤدي إلى ديمومة الدولة واستمرارها واستقرار أوضاعها، ولتفادي الفراغ القانوني أو الدستوري الذي يؤدي إلى الفوضى والخلل في الأعمال، وخاصة عند الأزمات وتفاقم المشاكل، وحدوث الاضطرابات.

## المطلب الثالث

## الحقوق والحريات في النظام العادل

نظام الحقوق والحريات التي يتمتع بها الإنسان في القرآن الكريم قائم على أساس التفضيل الإلهي له، قال تعالى:{**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**}(الإسراء: ٧٠)، وبناءً على هذا التفضيل منحهم الله تعالى حقوقاً معينة ثابتة يتحقق بها التفضيل فعلاً على بقية المخلوقات من جهة، ويمكنهم بها عبادته تعالى بمعناها الواسع التي هي غاية الخلق أصلاً، وتكون بالخضوع الاختياري، ووسيلته أن يصوغ الإنسان فرداً

---

([4]) ينظر: يحيى بن شرف، أبو زكريا، محيي الدين، النووي الشافعي: صحيح مسلم بشرح النووي، المسمى (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، ط٢، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢١٠/١٢ .

([2]) سبق تخريجه: ص ١٥٩ .

([1]) ينظر: خليل إبراهيم محمد: شخصية المسلم بين التراث والوافد/ضوابط ومعايير، ص ٢٧٢-٢٧٣ .

أو جماعة، نفسه وسلوكه ونشاطه بما في ذلك استعماله لحقوقه وحرياته وفقاً لما شرعه الله تعالى وفصّله في شريعته. وتتميّز هذه الحقوق والحريات بجملة من الخصائص:

**أولها:** أنها مِنَح إلهية: أي أنها تستند إلى العقيدة وتستمد من الشريعة، فأساسها يظهر في الحق الإلهي الممنوح للإنسان بسبب خلق الله المستقلّ لعبده، ووجوده المستقلّ، وإيجاب الحفاظ على حق الحياة المقدس ([1])، فهي ليست حقوقاً طبيعية!!، فالله خلق الإنسان وبهذا الخلق منحه حقّ «الحياة»، وكرّمه وفضّله وبناءً على ذلك منحه حقوقاً وحريات ثابتة في شريعته، وجعله مريداً لتصرفاته وأفعاله، إذ خلق فيه الإرادة وجعله مسؤولاً عن هذه الإرادة التي بها يفعل، وبها يكف.

والقرآن الكريم يذكر مثلاً حق «الملكية» بوصفه منحة إلهية في قوله تعالى:**{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ}**(يس: ٧١)، وقوله تعالى:**{وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ }**(النور: ٣٣). وأشار إلى حق «**التكريم**»، بقوله تعالى:**{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}**(الإسراء: ٧٠). وأشار إلى حق «**الحياة**» بقوله تعالى:**{قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}**(الملك: ٢٣).

**وثانيها:** أنها شاملة لكل الحقوق والحريات، وعامة لكل المواطنين، والمقصود بالشمول: شمول هذه الحقوق والحريات سواءً ما يسمى بالحقوق والحريات التقليدية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. والمقصود بالعموم: أنها عامة لكل المواطنين دون تمييز بينهم.

**وثالثها:** أنها كاملة ابتداء وغير قابلة للإلغاء: أي أنها لم تمر بمراحل حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الكمال، بل إنها كانت كاملة ابتداءً، منذ أربعة عشر قرناً. وغير قابلة للإلغاء لأنها تشريع رب العالمين.

**ورابعها:** انّ الحقوق والحريات ليست مطلقة: أي أنّ حقوق الفرد وحرياته مقيدة بعدم الإضرار بمصالح الجماعة، وإلا نشأت الفوضى وصار المجتمع مسرحاً للأنانية والاستئثار وما ينتج عن ذلك من آثار وأضرار ([2]).

فالحريات منضبطة بضوابط الشرع بما فيه مصلحة الفرد والمجموع، التي تمنع التعدي على حقوق الآخرين وإحداث الفوضى في المجتمع. وهذه الضوابط ما هي إلا محددات للمحافظة على حرية وحقوق الأشخاص ومصلحة المجتمع ككل. والحريات بجميع أنواعها نرى بأنها مضمونة

---

([1]) ينظر: منير حميد البياتي: الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، ص ١١١-١١٤ .

([2]) ينظر وهبة الزحيلي: حق الحرية في العالم، ص ١٧ .

للإنسان في ظل المنهج القرآني، وأنها نابعة من مضمون المنهجية التي تنبني عليها، فالأصل في التصرف الإنساني قائم على التخيير (الاختيار) وليس التسيير (الإجبار)، وأكّد القرآن الكريم على أهم نوع منها ألا وهو ((حرية العقيدة)) بقوله تعالى:{**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**}(البقرة: **٢٥٦**).

والدولة التي أقامها الإسلام على ((**أمة**)) تقوم على الفكرة والعقيدة، كان لها سيادة قائمة على ((**الاختيار الحر**)) في اعتناق ((**الفكرة**)) من جانب الأفراد، قال تعالى:{**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**}(البقرة: **٢٥٦**)، وقال تعالى:{**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**}(الغاشية: **٢٢**) وقال تعالى:{**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**}(الإنسان: **٣**)، وفي الاجتماع لإقامة ((**الدولة**)) من جانب المجموع، ومن ثم تأسست سيادة على تقديس ((**الحرية الإنسانية**)) بحيث تكون هذه الحرية هي الأساس الفكري والقانون الأعلى للدولة ([1])، فقد أعلنت ((**صحيفة المدينة**)) أنّ الحريات مصونة، كحرية العقيدة والعبادة، وحق الأمن... الخ. كما نصّت على ذلك بنودها، ومنها: ((للمسلمين دينهم ولليهود دينهم)) ([2]).

فالحرية من القواعد التي جاء بها القرآن الكريم، وقرّر الحريات العامة على اختلاف أنواعها للأفراد والجماعات، وكلها وليدة التكريم الإلهي للإنسان التي يحيا الإنسان بمقتضاها حياة حرة كريمة في ظل النظام السياسي الإسلامي ([3]).

---

([1]) ينظر: فتحي عثمان: دولة ((الفكرة)) التي أقامها رسول الإسلام عقب الهجرة، تجربة مبكرة للدولة الايديولوجيّة في التاريخ، **١٣٩٤**هـ - **١٩٧٤**م، دار القلم، كويت، مطبعة الحرية، بيروت، ص **٢١-٢٢** .

([2]) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية ، ص **٣٣٢** .

([3]) ينظر: إسماعيل عبد الفتاح: القيم السياسية في الإسلام، ص **١٠٩** .

# الخاتمة

إنّ الاستبداد ظاهرة اجتماعية موجودة منذ القدم، وهي ذات أنماط متعددة، وتشمل جميع مجالات الحياة.

وله أسباب عديدة من أهمها: الاستعداد والقابلية للاستبداد من قبل الشعوب المغلوبة واستكانتها وخضوعها للمستبدين، إذاً فالاستبداد لن يكون له وجود إلاّ إذا وجدت أرضيته وتربته المناسبة لانغراس جراثيم هذا المرض الخطير.

ولما لهذا للنظام من آثار ونتائج مدمرة وخطيرة على الفرد والمجتمع والدولة. فكل الرذائل ترى موضع قدمها في ظله، وخاصة تدمير وتشويه الشخصية الإنسانية؛ ولهذا يرفض التصور القرآني النظام الاستبدادي رفضاً قاطعاً، وذكَره في معرض الذمِّ، وامتنّ على الأمة التي ذاقت الاستبداد بأنْ خلّصهم وحرّرهم منه، قال تعالى:{**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**}(القصص: ٥).

ومن خلال الرؤية القرآنية للنظام الاستبدادي يتبين أنه يقوم على أسس ومبادئ، منها: الفردية المطلقة، والجبروت، والتجرد من القيم، وانعدام الحرية، والترف، والتبذير. وله أدوات، منها: السلطة، والمال، والإعلام، والانتهازيون، وهناك دعائم يستند عليه هذا النظام، منها: جهل الأمة، وكثرة المنافقين فيها، وعدم التزامها بمنهج الله.

وقد عالج المنهج القرآني النظام الاستبدادي معالجة جذرية شاملة من حيث نشوء الفكرة والأسس والمبادئ التي يقوم عليها، وما ينبغي أن يتمتع به الأفراد في المجتمع من حقوق وامتيازات. فهو يبني نظاماً مدنياً متحضراً قائماً على أسس ومبادئ وأصول العدل والشورى والمساواة والحرية، وتقرير المسؤولية العامة للمجتمع، ومرجعية عليا يرجع إليها الجميع، وجعل الرئاسة العامة عقداً بين الحاكم والمحكومين. فالتصور القرآني للنظام الذي ينبغي أن يحكم ويسود، هو النظام العادل، القائم على دعامة الشورى.

وفي عملية الاصلاح والتغيير ينبغي التركيز الواضح على عملية التغيير الاجتماعي الشامل، بدأً بتغيير ما بالأنفس، فهي الأساس للتغيير المنشود، كما أكّدت عليه الآية:{**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**}، فلا تغيير من عند الله، إلاّ بتغيير ما في الأنفس. فالآية تعطي الإنسان القدرة على التغيير، وتضع المفاتيح في يديه وضمن إرادته، وتحدد مكان التأثير على وجه الدقة ((الأنفس))، وتربط بين تغيير الواقع من خلال تغيير ما بالنفوس أي تغيير نظام الأفكار (الوعي الاجتماعي) أو محتوى ((النفوس)). وهي ظاهرة إنسانية تنطبق على أي مجموعة بشرية

(القوم)، ثم هو قانون اجتماعي غير فردي (أنفسهم). والقرآن الكريم أسس منهجه في الحياة على أصول الحرية، وذلك برفعه كل سيطرة وتحكم على الإنسان، وفق مبدأ اللاإكراه. قال تعالى:{**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**}(البقرة: ٢٥٦)، وقال تعالى:{**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**}(الغاشية: ٢٢) وقال تعالى:{**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**}(الإنسان: ٣).

وأقر القرآن الكريم المقاومة المدنية والأسلوب السلمي، في عملية التغيير وفي المواجهة مع الأنظمة الاستبدادية الحاكمة داخل المجتمع والكيان السياسي الواحد. لأن اللجوء إلى العنف داخل المجتمعات المسلمة لا يؤدي إلاّ إلى المزيد من الدمار والشقاق والضعف، مما يسهل الأمر للأعداء الخارجيين الانقضاض على ما تبقى من مقومات الأمة والسيطرة الكاملة عليها، وبالنتيجة لن نجني سوى إعطاء المبررات للأنظمة الاستبدادية للقيام بالعنف والإرهاب المنظم (عنف وإرهاب الدولة)، مما يؤدي إلى المزيد من سفك الدماء وترسيخ أرجل الاستبداد في الواقع، فالسبيل لمعالجة الواقع الأليم الذي انتجته الأنظمة الاستبدادية في العالم الإسلامي هو إعداد العصبة المؤمنة لمواجهة الصعوبات والعوائق التي تعترض طريق الدعوة، والتحديات الخارجية، ثم إقامة دولة القانون ودولة المؤسسات القائمة على أسس الشورى والعدل والمساواة، وتقوية آليات ووسائل المجتمع المدني وتوعية الجماهير بحقوقها وكيفية المطالبة بها، ونشر ثقافة المشاركة وابداء الرأي، والقيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المستوى الفردي والجماعي.

لذا أوجد القرآن الكريم بنظرته الشمولية والواقعية البديل لهذه الأنظمة المتراكمة في استبدادها وفسادها بالبديل الأمثل الناجع الواقعي، وهو اقامة دولة القانون والمؤسسات.

## وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

# فهرس المصادر والمراجع

## بعد القرآن الكريم


١. ابدوريا: المدخل إلى العلوم السياسية – النظريات الأساسية في نشأة الدولة و تطور الأحكام والنظم والقوانين والدساتير في أهم دول العالم -، ترجمة، نوري محمد حسين، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، مطبعة عصام، بغداد.
٢. إبراهيم بن السري، أبو إسحاق، الزجّاج (ت ٣١١ هـ): معاني القرآن وإعرابه، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبد شبلي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، عالم الكتب، بيروت.
٣. إبراهيم دسوقي أباظة و د. عبد العزيز الغنام: تاريخ الفكر السياسي، ١٩٧٣، دار النجاح، بيروت، (د. ط).
٤. ابن هشام (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ): السيرة النبوية مع شرح أبي ذر الخشني، حققه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: همام عبد الرحيم سعيد، محمد بن عبد الله أبو صُعيليك، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، مكتبة المنار، الأردن – الزرقاء.
٥. أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب: محمد كاظم سباق، المطبعة الهاشمية، دمشق، (د. ط ، د. ت).
٦. أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤١ هـ): تفسير النهر الماد من البحر المحيط، تقديم وضبط: بوران الضناوي وهديان الضناوي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، دار الجنان - مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان.
٧. إحسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، الدار العربية للموسوعات، بيروت - لبنان.
٨. أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر، البيهقي (ت ٤٥٨هـ ): السنن الكبرى، دار الفكر، بيروت، (د. ط ، د. ت).
٩. أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت، (د. ط ، د. ت).
١٠. أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، أبو العباس، تقي الدين، الشهير بابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠، مكتبة المعارف، بغداد.
١١. أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، أبو العباس، تقي الدين، الشهير بابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ، مطابع الرياض.
١٢. أحمد بن علي بن المثنى، أبو يعلى الموصلي التميمي (ت ٣٠٧ هـ): مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، (د. ط ، د. ت).
١٣. أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي، شهاب الدين، أبو الفضل العسقلاني، الشهير بابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الطبعة الرابعة، إحياء التراث العربي، (د. ت).

١٤. أحمد بن علي، أبو عبد الرحمن، النسائي (ت ٣٠٣ هـ): السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .
١٥. أحمد بن علي، أبو عبد الرحمن، النسائي (ت ٣٠٣ هـ): سنن النسائي، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ -١٩٣٠م، دار الفكر، بيروت.
١٦. أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد، أبو بكر الشيباني، المعروف بـ ابن أبي عاصم (ت ٢٨٧هـ): الآحاد والمثاني، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م، دار الدراية، السعودية - الرياض.
١٧. أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد، أبو بكر الشيباني، المعروف بـ ابن أبي عاصم (ت ٢٨٧ هـ): كتاب السنة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان.
١٨. أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين، القزويني، الرازي (ت ٣٩٥ هـ): معجم مقاييس اللغة، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب والآنسة فاطمة محمد أصلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٩. أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، المعروف بالإمام الثَّعلبي (ت ٤٢٧ هـ): الكشف والبيان، المعروف بتفسير الثَّعلبي، دراسة وتحقيق: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان .
٢٠. أحمد بن محمد بن علي، أبو العباس، المقري الفيّومي (ت ٧٧٠ هـ): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، الطبعة الأولى في ايران، ١٤٠٥هـ، مؤسسة دار الهجرة، ايران - قم.
٢١. أرسطو طاليس (ت ٣٢٢ ق. م): السياسة، ترجمة: أحمد لطفي السيد، منشورات الفاخرية بالرياض بالاشتراك مع دار الكاتب العربي في بيروت، (د. ط ، د. ت).
٢٢. إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، أبو يعقوب المروزي، المعروف بـ ابن راهويه (ت ٢٣٨هـ): مسند ابن راهويه، تحقيق: عبد الغفور عبد الحق حسين برد البلوسي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.
٢٣. أسعد السحمراني: الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبي والإبراهيمي، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار النفائس، بيروت.
٢٤. إسماعيل بن حماد، أبو نصر، الجوهري (ت ٣٩٣ هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، الطبعة الرابعة، كانون الثاني/يناير ١٩٩٠م، دار العلم للملايين، بيروت.
٢٥. إسماعيل بن كثير، عماد الدين، أبو الفداء، القرشي الدمشقي، الشهير بابن كثير (ت ٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، خرّج أحاديثه: محمود بن الجميل، وليد بن محمد بن سلامة، خالد بن محمد بن عثمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دار الإمام مالك - الجزائر، مكتبة الصفا - القاهرة.
٢٦. إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت ١١٦٢م): كشف الخفاء ومزيل الإلباس، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٧. إسماعيل عبد الفتاح: القيم السياسية في الإسلام، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، الدار الثقافية للنشر، القاهرة.

٢٨. إسماعيل نوري الربيعي: الثقافة والاستبداد: مفارقات القوة والعنف والشقاق، مقال منشور في كتاب (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الأولى، تموز/يوليو ٢٠٠٥، لبنان - بيروت.
٢٩. أندرو فنسنت: نظريات الدولة، ترجمة، مالك أبو شهيوة ومحمود خلف، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، دار الجيل، بيروت-لبنان، ودار الرواد، طرابلس - الجماهيرية الليبية.
٣٠. بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة / رؤية نقدية، العدد ٨٦، ذو القعدة ١٤٢٢هـ، السنة الحادية والعشرون، من سلسلة كتاب الأمة، يصدره مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر.
٣١. بشير محمد الخضرا: النمط النبوي-الخليفي في القيادة السياسية العربية والديموقراطية، الطبعة الأولى، أيار/مايو ٢٠٠٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان.
٣٢. تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٤، نحو الحرية في الوطن العربي: المكتب الإقليمي للدول العربية، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المطبعة الوطنية، ٢٠٠٥، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية.
٣٣. توفيق الشاوي: فقه الشورى والاستشارة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م، دار الوفاء، المنصورة.
٣٤. ثامر كامل محمد الخزرجي: النظم السياسية الحديثة والسياسات العامة (دراسة معاصرة في استراتيجية إدارة السلطة)، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دار مجدلاوي، عمان - الأردن.
٣٥. ثناء فؤاد عبد الله: آليات الاستبداد وإعادة إنتاجه في الواقع العربي، مقال منشور في كتاب (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الأولى، تموز/يوليو ٢٠٠٥، لبنان - بيروت.
٣٦. ثناء فؤاد عبد الله: قراءة في أوراق اللقاء الرابع العاشر لمشروع دراسات الديمقراطية، خلاصة تنفيذية، منشورة في كتاب (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الأولى، تموز/يوليو ٢٠٠٥، لبنان - بيروت.
٣٧. جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت - لبنان، (د. ط ، د. ت).
٣٨. جبران مسعود: الرائد، وبذيله: منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، الطبعة الأولى، شباط/فبراير ٢٠٠٣، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.
٣٩. جوتيار عادل محمود: شرعية النظم السياسية في الشرق الأوسط (العراق نموذجاً) دراسة تحليلية مقارنة، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية القانون والسياسة في جامعة صلاح الدين، أربيل، ٢٠٠٣م.
٤٠. جودت سعيد: كن كابْن آدم، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الفكر، دمشق - سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، (د. ط).
٤١. جودت سعيد: مذهب ابن آدم الاول – مشكلة العنف في العمل الاسلامي – ط٥، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار الفكر المعاصر، لبنان- بيروت.
٤٢. جوردون مارشال: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة: مجموعة من المترجمين، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، (المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة).

٤٣. جوليان فروند: ماهي السياسة، مراجعة عبد اللطيف قطيش، مقال منشور في الفكر العربي: مجلة الانماء العربي للعلوم الإنسانية، تصدر عن معهد الانماء العربي في بيروت، تشرين الأول و تشرين الثاني ١٩٨١م، العدد الثالث والعشرون، السنة الثالثة.
٤٤. جيفر روبرتس واليستاير ادواردس ( Geoffre Roberts And Alistair Edwards ): المعجم الحديث للتحليل السياسي، ترجمة: سمير عبد الرحيم جلبي، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، الدار العربية للموسوعات.
٤٥. حسان محمد شفيق العاني: الأنظمة السياسية والدستورية المقارنة، ١٩٨٦م، مطبعة جامعة بغداد، منشورات دار الحكمة، (د. ط).
٤٦. حسن عبد الحميد عويضة: النظم الإسلامية والمذاهب المعاصرة/ دراسة مقارنة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، دار الرشيد، الرياض.
٤٧. حسنين محمد مخلوف، كلمات القرآن، تفسير وبيان، أشرف على طباعته وتدقيقه: عصام فارس الحرستاني، طبعة خاصة، (د. ط ، د. ت).
٤٨. الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ): معالم التنزيل (تفسير البغوي)، حقّقه وخرّج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، دار طيبة، الرياض.
٤٩. خالد أبو الفتوح: الإسلام واللبرالية (حقيقة التوجه الأمريكي وإمكانية الالتقاء الفكري)، مقال منشور في مجلة البيان: السنة العشرون، العدد ٢١٩، ذو القعدة ١٤٢٦هـ -ديسمبر ٢٠٠٥م، ص ٦٠-٦١، وهي: (مجلة إسلامية شهرية جامعة تصدر عن المنتدى الإسلامي-المركز الرئيس، لندن).
٥٠. خالص جلبي: قوانين التغيير، دار المنبر، (د. ط ، د. ت).
٥١. خليل إبراهيم محمد: شخصية المسلم بين التراث والوافد/ضوابط ومعايير، ط١، ١٤٢٩ هـ -٢٠٠٨م، مركز البحوث والدراسات الاسلامية – ديوان الوقف السني، العراق.
٥٢. الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ): ترتيب كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، تصحيح أسعد الطيب، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ، مطبعة باقري - قم، انتشارات أسوة (التابعة لمنظمة الأوقاف والأمور الخيرية).
٥٣. خير الدين الزركلي (ت ١٤١٠ هـ): الأعلام، (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، الطبعة الخامسة، أيار/مايو ١٩٨٠م، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.
٥٤. دينكن ميشيل: معجم علم الاجتماع، ترجمة: إحسان محمد الحسن، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، دار الرشيد للنشر، دار الحرية للطباعة، بغداد، (د. ط).
٥٥. الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ): مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ، انتشارات ذوي القربى، قم - إيران.
٥٦. رشدي محمد عليان و د. قحطان عبد الرحمن الدوري: أصول الدين الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، مطبعة الإرشاد، بغداد.
٥٧. سعدي أبو جيب: القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً، طبعة مصححة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، دار الفكر، دمشق - سورية، (د. ط).
٥٨. سعيد حوّى: الأساس في التفسير، الطبعة السادسة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، دار السلام، القاهرة - مصر.

٥٩. سعيد سليمان سعيد: الشخصية الإنسانية المشوهة، ثمرة من ثمار الدكتاتوريات البغيضة في العالم الثالث، مقال منشور في مجلة الحوار، العدد ٢٦، التاريخ أيلول/٢٠٠٤، مجلة شهرية سياسية - ثقافية عامة يصدرها الاتحاد الإسلامي الكوردستاني، كوردستان العراق/ أربيل.
٦٠. سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ ): مسند الشاميين، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.
٦١. سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ): المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
٦٢. سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ): المعجم الأوسط، تحقيق: ابراهيم الحسيني، دار الحرمين، (د. ط ، د. ت).
٦٣. سليمان بن الأشعث، أبو داود، السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥ هـ): سنن أبي داود، تحقيق: سعيد محمد الحمام، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار الفكر، بيروت.
٦٤. سليمان بن داود بن الجارود، الفارسي البصري، الشهير بأبي داود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ): مسند أبي داود الطيالسي، دار الحديث، بيروت-لبنان، (د. ط ، د.ت).
٦٥. سيد قطب (ت ١٣٨٧هـ-١٩٦٦م): في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية الرابعة والثلاثون، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دار الشروق، القاهرة.
٦٦. الشريف علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦ هـ): كتاب التعريفات، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٦٧. شكيب أرسلان (ت ١٩٤٦م): لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم؟، بعناية حسن السّماحي سُويدان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، دار القلم، دمشق - الدّار الشامية، بيروت.
٦٨. شمس الدين الكيلاني: مفاهيم حقوق الإنسان في المذاهب الإسلامية، بحث منشور في كتاب (حقوق الإنسان في الفكر العربي، دراسات في النصوص، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية) الطبعة الأولى، نيسان/ابريل ٢٠٠٢، بيروت - لبنان.
٦٩. صالح جواد الكاظم و د. علي غالب العاني: الأنظمة السياسية، ١٩٩١م، مطبعة دار الحكمة، بغداد، (د. ط).
٧٠. صلاح الصاوي: منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق، ١٩٩٨، دار نهضة مصر، (د. ط).
٧١. صلاح عبد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، دار المنار للنشر والتوزيع، فرع عمّان.
٧٢. صلاح عبد الفتاح الخالدي: لطائف قرآنية، من كنوز القرآن (٨)، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، دار القلم، دمشق.
٧٣. الضحاك بن مزاحم، أبو القاسم، البلخي الهلالي (ت ١٠٦ هـ): تفسير الضحاك، جمع ودراسة وتحقيق: محمد شكري أحمد الزاويتي، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، دار السلام، القاهرة - مصر.
٧٤. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق- بيروت، ٢٠٠٩.
٧٥. عادل سعيد بشتاوي: تاريخ الظلم العربي في عصر الأنظمة الوطنية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٧٦. عامر رشيد مبيض: موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، مصطلحات ومفاهيم، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، دار القلم العربي، سوريا - حلب.
٧٧. عباس محمود العقاد: عبد الرحمن الكواكبي (الرحالة ك)، ١٩٦٩، دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، (د. ط).
٧٨. عباس مهدي البلداوي: الانسجام في النفس والمجتمع، ١٩٨٠م، مطبعة عصام، بغداد، (د. ط).
٧٩. عبد الإله بلقريز: المعارضة والسلطة في الوطن العربي، أزمة المعارضة السياسية العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان.
٨٠. عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢ هـ): المحرّر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٨١. عبد الحميد أحمد أبو سليمان: العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، دار الفكر، دمشق - سورية.
٨٢. عبد الحميد محمود طهماز: السنن الإلهية في الخلق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت .
٨٣. عبد الحي بن أحمد ابن عماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩ هـ): شذرات الذهب من أخبار من ذهب، المكتب التجاري، بيروت - لبنان، (د. ط ، د. ت).
٨٤. عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢م): طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، منشورات دار الجمل، ط١، كولونيا (المانيا)- بغداد ٢٠٠٦.
٨٥. عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ): الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، الطبعة الأولى،١٣١٠هـ، دار الفكر، بيروت.
٨٦. عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج، جمال الدين، ابن الجوزي القرشي البغدادي (ت ٥٩٧هـ): زاد المسير في علم التفسير، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية . والطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق.
٨٧. عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، والمعروف بمقدمة ابن خلدون، تحقيق وفهرسة: سعيد محمود عقيل، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، دار الجيل، بيروت.
٨٨. عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، اعتنى به محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
٨٩. عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، مكتبة المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، (د. ط).
٩٠. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: معارج التفكّر ودقائق التدبّر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، دار القلم، دمشق .
٩١. عبد الرزاق بن همَّام بن نافع، أبو بكر، الحميري، اليمني الصنعاني (ت ٢١١ هـ): تفسير القرآن، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، مكتبة الرشد، الرياض .

٩٢. عبد الغني بسيوني عبد الله: النظم السياسية، أسس التنظيم السياسي/الدولة-الحكومة-الحقوق والحريات العامة، ١٩٨٥م، الدار الجامعية، بيروت، (د. ط).
٩٣. عبد القادر عودة (١٣٧٤ هـ): الإسلام وأوضاعنا السياسية، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د. ط ، د. ت).
٩٤. عبد القهار بن طاهر بن محمد، البغدادي (ت ٤٢٩ هـ): الفَرق بين الفِرق، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د. ت ، د. ط).
٩٥. عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة، الطبعة التاسعة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.
٩٦. عبدالكريم زيدان: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، الطبعة الأولى في ايران، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، دار إحسان، طهران - إيران.
٩٧. عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة القدس، بغداد.
٩٨. عبدالكريم زيدان: المُستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان.
٩٩. عبد الله بن أحمد بن محمود، أبو البركات، النسفي (ت ٧١٠ هـ): مدارك التنزيل وحقائق التأويل المسمى (تفسير النسفي)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، (د. ط ، د. ت).
١٠٠. عبد الله بن بهرام، أبو محمد، الدارمي (ت ٢٥٥ هـ): الجامع الصحيح المعروف بـ (سُنن الدارمي)، مطبعة الاعتدال، دمشق، (د. ط ، د. ت).
١٠١. عبد الله بن يوسف بن محمد، أبو محمد، جمال الدين الزيلعي الحنفي (ت ٧٦٢هـ): نصب الراية لأحاديث الهداية، تحقيق: أيمن صالح، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٢م، مطبعة دار الحديث، القاهرة.
١٠٢. عبد الله علي العليان: الإسلام والاستبداد: مقاربة نقدية لمقولة ((المستبد العادل))، مقال منشور في كتاب (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الأولى، تموز/يوليو ٢٠٠٥، لبنان - بيروت.
١٠٣. عبد المجيد صبح: تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، دار الوفاء، المنصورة.
١٠٤. عبد المنعم صالح العلي العزي: تهذيب مدارج السالكين، نشر إحسان، ايران، (د. ط ، د. ت).
١٠٥. عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مركز الطباعة الحديثة، بيروت - لبنان.
١٠٦. علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، الشهير بـ المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني، صفوة السقا، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، (د. ط).
١٠٧. علي بن أبي بكر، نور الدين، الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ): موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ط ، د. ت).
١٠٨. علي بن أبي بكر، نور الدين، الهيثمي (ت ٨٠٧هـ): بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، تحقيق، مسعد عبد الحميد محمد السعدني، دار الطلائع، (د. ط ، د. ت).
١٠٩. علي بن أبي بكر، نور الدين، الهيثمي (ت ٨٠٧هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (د. ط).

١١٠. علي بن أبي طالب (□) (ت ٤٠ هـ): نهج البلاغة، تحقيق: محمد عبده، دار المعرفة، بيروت، (د. ط ، د. ت).
١١١. علي بن احمد، أبو محمد، المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ): الفِصل في الملل والهواء والنحل، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١١٢. علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، أبو القاسم الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ): تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، دراسة وتحقيق: علي شيري، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م، دار الفكر، بيروت - لبنان، (د. ط).
١١٣. علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي (ت ٧٣٩ هـ ): صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة.
١١٤. علي بن عمر الدار قطني (ت ٣٨٥هـ): سنن الدار قطني، تحقيق: مجدي بن منصور الشوري، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١١٥. علي جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، دار الوفاء، المنصورة.
١١٦. علي شريعتي: النباهةُ والاستِحْمار، ترجمة هادي السيد ياسين، دراسة وتعليق، عبد الرزاق الجبران، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت - لبنان.
١١٧. علي كمال: النفس انفعالاتها وامراضها وعلاجها، الطبعة الرابعة، ١٩٨٨م. دار واسط، بغداد،
١١٨. علي محمد الصلابي: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١١٩. عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.
١٢٠. عماد الدين خليل: مدخل إلى الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٥م، الناشران: الدار العربية للعلوم، لبنان - بيروت، والمركز الثقافي العربي، المغرب - الدار البيضاء، ولبنان - بيروت.
١٢١. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، المطبعة: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، (د. ط ، د.ت).
١٢٢. عمر عبد الحي: الفكر السياسي في العصور القديمة، الإغريقي –الهلنسي-الروماني، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
١٢٣. عمر عبيد حسنة: كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ في مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، المكتب الإسلامي.
١٢٤. عمرو خالد: إني جاعل في الارض خليفة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ -٢٠٠٦م، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١٢٥. عمرو خالد: خواطر قرآنية/ نظرات في أهداف سور القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، الدار العربية للعلوم، بيروت - لبنان.

١٢٦. غازي حسن صباريني: الوجيز في حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، مكتبة دار الثقافة، عمان - الأردن.
١٢٧. غاستون بوتول: فن السياسة، نصوص مختارة، جمع وتلخيص وتعريب: أحمد عبدالكريم، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، الأهالي، سورية - دمشق.
١٢٨. فاروق السامرائي: حقوق الإنسان في القرآن الكريم، بحث منشور في كتاب (حقوق الإنسان في الفكر العربي، دراسات في النصوص، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية) الطبعة الأولى، نيسان/ابريل ٢٠٠٢، بيروت - لبنان.
١٢٩. فاضل الانصاري: قصة الاستبداد، أنظمة الغلبة في تاريخ المنطقة العربية، ٢٠٠٤، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، مطابع وزارة الثقافة، دمشق. (د. ط).
١٣٠. فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، ١٩٨٩، دار الكتب للطباعة والنشر/جامعة الموصل، (د. ط).
١٣١. فاضل صالح السامرائي: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، عمان - الأردن، (د. ط ، د. ت).
١٣٢. فتحي عثمان: دولة ((الفكرة)) التي أقامها رسول الإسلام عقب الهجرة، تجربة مبكرة للدولة الايديولوجيّة في التاريخ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، دار القلم، كويت، مطبعة الحرية، بيروت، (د. ط).
١٣٣. فرنسيس واوليفر Francois Chatelet And Olivier Duhamel: تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة: خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، بيروت، (سلسلة غير دورية، تصدر عن مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، رئيس التحرير رضوان السيد).
١٣٤. فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، مبادئ دستورية-الشورى، العدل، المساواة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، دار الشروق، القاهرة.
١٣٥. قصي الحسين: الفساد والسلطة-أركيولوجيا المنشأة المزدوجة التمفصل الوقائعي للسلطة في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
١٣٦. كمال المنوفي: أصول النظم السياسية المقارنة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، الناشر: شركة الربيعان للنشر والتوزيع - الكويت.
١٣٧. كمال المنوفي: نظريات النظم السياسية، طبعة أولى، ١٩٨٥، الناشر: وكالة المطبوعات، الكويت.
١٣٨. مالك بن نبي (ت١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م): القضايا الكبرى- مشكلات الحضارة ، إعادة طباعة ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، دار الفكر، دمشق - سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان.
١٣٩. مالك بن نبي (ت١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م): شروط النهضة، تحقيق: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩، دار الفكر .
١٤٠. مانع بن حماد الجهني (إشراف وتخطيط ومراجعة): الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض.
١٤١. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية-القاهرة.

١٤٢. محسن عبد الحميد: العقائد الإسلامية في ضوء العلم والعقل والوحي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، (دون الاشارة إلى المطبعة أو دار النشر).
١٤٣. محسن عبد الحميد: منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، مكتبة القدس، مطبعة الزمان، بغداد، (د. ط ، د. ت).
١٤٤. محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ): أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، عالم الكتب، بيروت، (د. ط ، د. ت).
١٤٥. محمد البهي:الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، الناشر: مكتبة وهبة، دار غريب للطباعة، القاهرة.
١٤٦. محمد الغزالي:الإسلام والاستبداد السياسي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م، الناشر: نهضة مصر، مدينة السادس من أكتوبر .
١٤٧. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٧٢١ هـ): مختار الصحاح، عني بترتيبه: محمود خاطر بك، راجعته وحققته: لجنة من علماء العربية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، دار الفكر، بيروت - لبنان، (د. ط).
١٤٨. محمد بن أبي بكر، أبو عبد الله، شمس الدين، الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيّم الجوزيّة (ت ٧٥١ هـ): الطرق الحكمية في السياسة الشرعية أو الفراسة المرضية في أحكام السياسة الشرعية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د. ط ، د. ت).
١٤٩. محمد بن أحمد بن عثمان، أبو عبدالله، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ): تذكرة الحفاظ، مكتبة الحرم المكي، (د. ط ، د. ت).
١٥٠. محمد بن أحمد بن عثمان، أبو عبدالله، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: على محمد البجاوي، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١٥١. محمد بن أحمد بن عثمان، أبو عبدالله، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ): سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، حسين الأسد، الطبعة التاسعة، ١٤١٣ هـ ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٥٢. محمد بن أحمد، أبو عبد الله، الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١ هـ): الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٥م، طبع دار البيان الحديثة، مكتبة الصفا، القاهرة . وطبعة دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م، بيروت، (د. ط).
١٥٣. محمد بن ادريس، أبو عبد الله، الشافعي (ت ٢٠٤ هـ): كتاب المسند المسمى بـ(مسند الإمام الشافعي)، تحقيق: مطبعة بولاق الأميرية، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د. ط ، د. ت).
١٥٤. محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله البخاري (ت ٢٥٦ هـ): الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ، مؤسسة الكتب الثقافية.
١٥٥. محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله، البخاري (ت ٢٥٦ هـ): صحيح البخاري المسمى بـ (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه)، ١٤١٠هـ، مطبعة دار الطباعة العامرة باستنبول، نشر دار الفكر، بيروت، (د. ط).
١٥٦. محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تقديم: خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، دار الفكر، بيروت - لبنان، (د. ط).

١٥٧. محمد بن جعفر، أبو عبد الله الكتاني (ت ٣٤٥هـ): نظم المتناثر من الحديث المتواتر، تحقيق: شرف حجازي، الطبعة الثانية، دار الكتب السلفية، مصر، (د. ت).
١٥٨. محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم التميمي البستي، الشهير بابن حبان (ت ٣٥٤هـ): كتاب الثقات، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، مطبعة: مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن- الهند، نشر: مؤسسة الكتب الثقافية .
١٥٩. محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم التميمي البستي، الشهير بابن حبان (ت ٣٥٤هـ): كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، تحقيق: محمد إبراهيم زايد، (د. ط ، د. ت ، دون ذكر دار النشر).
١٦٠. محمد بن عبد الرحمن، شمس الدين، السخاوي (ت ٩٠٢ هـ): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، (د.ط ، د.ت).
١٦١. محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ): فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، حققه وخرج أحاديثه وفهرسها: أبو حفص سيّد بن إبراهيم بن صادق ابن عمران، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، دار الحديث، القاهرة.
١٦٢. محمد بن عمر بن حسين، أبو عبد الله، فخر الدين، الطبرستاني الرازي (ت ٦٠٦ هـ) : التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).
١٦٣. محمد بن عيسى بن سورة، أبو عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ هـ): سنن الترمذي، المسمى بـ (الجامع الصحيح)، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت.
١٦٤. محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ): إحياء علوم الدين، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت – لبنان.
١٦٥. محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ): الاقتصاد في الاعتقاد، قدم له وعلق عليه وشرحه: علي بو ملحم، الطبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٣م، بيروت.
١٦٦. محمد بن محمد، أبو عبد الله، الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ): المستدرك على الصحيحين، تحقيق: يوسف المرعشلي، ١٤٠٦هـ، دار المعرفة، بيروت، (د. ط).
١٦٧. محمد بن مكرم بن منظور، أبو الفضل، جمال الدين، الإفريقي المصري (ت ٧١١ هـ): لسان العرب، نسقه وعلّق عليه ووضع فهارسه: علي شيري، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٦٨. محمد بن يزيد، أبو عبدالله، القزويني، الشهير بابن ماجه (ت ٢٧٥ هـ): سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، (د. ت ، د. ط ).
١٦٩. محمد بن يعقوب بن محمد، أبو طاهر، مجد الدين، الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ): القاموس المحيط، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٧٠. محمد جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ): محاسن التأويل المسمى (تفسير القاسمي)، وقف على طبعه وتصحيحه ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه وعلّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م، دار الفكر، بيروت.
١٧١. محمد جمال طحّان: الاستبداد وبدائله، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، دار النهج، حلب.

١٧٢. محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ -١٩٣٥م): تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت-لبنان، (د. ت).
١٧٣. محمد زكريا الندّاف: الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية في القرآن والسنة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، دار القلم، دمشق.
١٧٤. محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، طبعة دار الشروق الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، دار الشروق، القاهرة.
١٧٥. محمد شحرور: المجتمع والأسرة وحقوق الإنسان في التنزيل الحكيم، بحث منشور في كتاب (حقوق الإنسان في الفكر العربي، دراسات في النصوص، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية) الطبعة الأولى، نيسان/ابريل ٢٠٠٢، بيروت - لبنان.
١٧٦. محمد شحرور: دراسات اسلامية معاصرة/ الدولة والمجتمع، ١٩٩٤، دار الأهالي، دمشق، (د. ط).
١٧٧. محمد طه بدوي: أصول علوم السياسة /علم أصول السياسة -دراسة منهجية -، ١٩٦٧م ، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، الإسكندرية، (د. ط).
١٧٨. محمد عبد الرؤوف، زين الدين، المناوي، القاهري (ت ١٠٣١ هـ): فيض القدير شرح الجامع الصغير، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ-١٩٧٢م، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١٧٩. محمد عمارة: الإسلام والأمن الاجتماعي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، دار الشروق، القاهرة.
١٨٠. محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان/ ضرورات.. لا حقوق، ١٩٨٥، سلسلة عالم المعرفة، ٨٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (د. ط).
١٨١. محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، القاهرة، دار نهضة مصر، مارس ١٩٩٧، (د. ط).
١٨٢. محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بحاشية المصحف الشريف، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، دار الحديث، القاهرة.
١٨٣. محمد فتح الله كُولَنْ: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ترجمة: أورخان محمد علي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، دار النيل، استانبول/تركيا.
١٨٤. محمد فتح الله كُولَنْ: النور الخالد محمد (ﷺ) مفخرة الإنسانية، دار النيل، القاهرة - جمهورية مصر العربية، (د. ط ، د. ت).
١٨٥. محمد كاظم المشهداني: النظم السياسية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، (د. ط).
١٨٦. محمد هلال الخليفي: قراءة تاريخية في مفهوم الاستبداد وتفسيره وآليات تكريسه، مقال منشور في كتاب (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الأولى، تموز/يوليو ٢٠٠٥، لبنان - بيروت.
١٨٧. محمود بن عبد الله، أبو الفضل، شهاب الدين، الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، دار الفكر، بيروت -لبنان، (د. ط).
١٨٨. محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، أبو القاسم، جار الله، الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨ هـ): تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

١٨٩. مركز دراسات الوحدة العربية، إسماعيل الشطي وآخرون: الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية، الطبعة الأولى، كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
١٩٠. مسلم بن الحجاج بن مسلم، أبو الحسين القشيري (ت ٢٦١ هـ): صحيح مسلم المسمى بـ (الجامع الصحيح)، دار الفكر، بيروت، (د. ط ، د. ت).
١٩١. مصطفى الخشاب: النظريات والمذاهب السياسية، مطبعة لجنة البيان العربي، (د. ط، د. ت).
١٩٢. مصطفى الزلمي: أصول الفقه الاسلامي في منهجه الجديد. الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل - العراق.
١٩٣. مكتب الثقافة والأعلام، القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي: تعريفات ببعض المصطلحات، (د. ط ، د. ت).
١٩٤. ملا علي القاري (ت ١٠١٤ هـ): شرح مسند أبي حنيفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٥١٧، (د. ط ، د. ت).
١٩٥. منير البعلبكي: المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة الخامسة والثلاثون، ١٩٩٦م، دار المشرق، بيروت.
١٩٦. منير البعلبكي: موسوعة المورد: دائرة معارف انكليزية-عربية مصورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، دار العلم للملايين، بيروت.
١٩٧. منير الغضبان: التربية القيادية: السابقون الأولون من الأنصار- المنهج التربوي للسيرة النبوية (٥)، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م، دار الوفاء، المنصورة.
١٩٨. منير حميد البياتي: الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي ((دراسة دستورية شرعية وقانونية مقارنة))، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، الدار العربية للطباعة، بغداد.
١٩٩. موريس دوفرجيه: مدخل إلى علم السياسة، ترجمة: سامي الدروبي و جمال الأتاسي، دار دمشق، دمشق، (د. ط ، د. ت).
٢٠٠. نبيل هلال هلال: اعتقال العقل المسلم ودوره في انحطاط المسلمين، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥، دار الكتاب العربي، دمشق ، القاهرة.
٢٠١. نبيل هلال هلال: الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م، دار الكتاب العربي، دمشق ، القاهرة.
٢٠٢. نخبة من العلماء: الموسوعة العربية الميسرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٢، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين، مصر - القاهرة.
٢٠٣. نخبة من العلماء: معجم العلوم الاجتماعية، اشرف على إخراجه: مجمع اللغة العربية بالتعاون مع مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة ومع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ط ، د. ت).
٢٠٤. نصر محمد عارف: الأبعاد الدولية للاستبداد السياسي في النظم العربية، جدلية الداخلي والخارجي، مقال منشور في كتاب (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة، إعداد: مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الأولى، تموز/يوليو ٢٠٠٥، لبنان - بيروت.
٢٠٥. نعمان عبد الرزاق السامرائي: دراسة في المعرفة، الثقافة-القيم-المجتمع، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، أنوار دجلة، بغداد، (د. ط).
٢٠٦. نور الدين بن عبد الهادي، أبو الحسن الحنفي الأثري، المعروف بالسندي (ت ١١٣٦ أو ١١٣٨ هـ): سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف

بالسندي، حقق أصوله وخرّج أحاديثه على الكتب الستة ورقمه حسب المعجم المفهرس وتحفة الأشراف: الشيخ خليل مأمون شيحا، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
٢٠٧. نيقولو مكيافيللي: الأمير، ترجمة: خيري حماد وتعقيب: فاروق سعد، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٢٠٨. هارولد ج . لاسكي: الحرية في الدولة الحديثة، ترجمة: أحمد رضوان عز الدين، الطبعة الثانية، حزيران/يونيو، ١٩٧٨م، دار الطليعة، بيروت - لبنان.
٢٠٩. هارون بن موسى القارئ (ت نحو ١٧٠ هـ): الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: حاتم صالح الضامن، سلسلة خزانة دار صدام للمخطوطات (٢)، وزارة الثقافة والإعلام/ دائرة الآثار والتراث، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، دار الحرية للطباعة، بغداد، (د. ط).
٢١٠. هشام علي حافظ وجودت سعيد وخالص جلبي: كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، طبعة ثانية منقحة ومزيدة، آذار/ مارس٢٠٠٢، رياض الريس للكتب والنشر، لبنان - بيروت.
٢١١. هشام علي صادق: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، الطبعة الثانية، ١٩٨٢، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت.
٢١٢. هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية، الجمهورية العربية السورية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، مؤسسة الصالحاني للطباعة.
٢١٣. ول وايريل ديورانت (ت ١٩٨١م): قصة الحضارة: نشأة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨م، دار الجيل، بيروت، (د. ط).
٢١٤. وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سورية.
٢١٥. وهبة الزحيلي: حق الحرية في العالم، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان ، دار الفكر، دمشق - سورية.
٢١٦. ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، أبو عبد الله، شهاب الدين، الشهير بياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ): معجم البلدان، الطبعة الثانية، ١٩٩٥، دار صادر، بيروت - لبنان.
٢١٧. يحيى بن شرف، محيي الدين، أبو زكريا، النووي الشافعي (ت ٦٧٦هـ): صحيح مسلم بشرح النووي، المسمى (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢١٨. يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، ١٣٠٨هـ-١٩٨٨م، الدوحة، (د. ط ، عدم ذكر دار النشر).
٢١٩. يوسف القرضاوي: من فقه الدولة في الإسلام، مكانتها..معالمها..طبيعتها، موقفها من الديمقراطية والتعددية والمرأة وغير المسلمين، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، دار الشروق.
٢٢٠. يوسف القرضاوي: من هدي الإسلام، فتاوى معاصرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، المكتب الإسلامي، بيروت.

# فهرس المحتـــــويـــات


| الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|
| الإهداء | ٣ |
| المقدمة | ٤-٥ |
| الفصل الأول: ماهية الاستبداد وعوامله، وفيه مبحثان | ٦-٦١ |
| المبحث الأول: ماهية النظام، وفيه، مطالب ثلاثة | ٧-٢٧ |
| المطلب الأول: التعريف | ٨-٢٢ |
| الفرع الأول: تعريف النظام لغةً واصطلاحاً | ٨-١٥ |
| الفرع الثاني: تعريف الاستبداد لغةً واصطلاحاً | ١٥-٢٢ |
| المطلب الثاني: الإطار التاريخي لنشوء الدولة والنظام | ٢٢-٢٧ |
| المطلب الثالث: أنواع الأنظمة | ٢٧-٣٥ |
| المبحث الثاني: أسباب وعوامل الاستبداد (رؤية قرآنية)، وفيه مطلبان | ٣٦-٦٠ |
| المطلب الأول: شخصية الإنسان المستبَدّ به وقابليته واستعداده للاستبداد | ٣٧-٤٨ |
| الفرع الأول: الاستعداد والقابلية للاستبداد | ٣٧-٤٤ |
| الفرع الثاني: أهم السمات والصفات التي يتصف بها الشخص المستبَدّ به. | ٤٥-٤٨ |
| المطلب الثاني: شخصية الإنسان المستبِدّ، وأهم أسباب وعوامل استبداده | ٤٩-٦٠ |
| الفرع الأول: شخصية الإنسان المستبِدّ | ٤٩-٥١ |
| الفرع الثاني: أهم أسباب وعوامل استبداده وطغيانه | ٥٢-٦٠ |
| الفصل الثاني: أدوات النظام الاستبدادي وخصائصه (رؤية قرآنية)، وفيه مبحثان | ٦١-١٠٦ |
| المبحث الأول: أدوات النظام الاستبدادي، وفيه مطالب خمسة | ٦٢-٨٣ |
| المطلب الأول: السلطة | ٦٣-٦٦ |
| المطلب الثاني: المال | ٦٦-٦٨ |
| المطلب الثالث: الإعلام | ٦٩-٧٣ |
| المطلب الرابع: الجهل | ٧٤-٧٨ |
| المطلب الخامس: الانتهازيون | ٧٩-٨٣ |

| | |
|---|---|
| المبحث الثاني: خصائص النظام الاستبدادي (رؤية قرآنية)، وفيه مطالب ستة | ٨٤-١٠٦ |
| المطلب الأول: الفردية المطلقة (التأله) | ٨٥-٨٩ |
| المطلب الثاني: الجبروت (ظلم وطغيان وإرهاب) | ٨٩-٩٤ |
| المطلب الثالث: التجرد من القيم (الفسق والفجور) | ٩٥-٩٧ |
| المطلب الرابع: انعدام الحرية | ٩٧-٩٩ |
| المطلب الخامس: الاحتكار والاستغلال | ١٠٠-١٠٢ |
| المطلب السادس: الترف والتبذير والإسراف | ١٠٣-١٠٦ |
| الفصل الثالث: أنماط الاستبداد وآثاره، وفيه مبحثان | ١٠٧-١٤٥ |
| المبحث الأول: أنماط الاستبداد، وفيه مطالب خمسة | ١٠٨-١٢٥ |
| المطلب الأول: الأسري | ١٠٩-١١٢ |
| المطلب الثاني: الاجتماعي | ١١٣-١١٤ |
| المطلب الثالث: الديني | ١١٥-١١٩ |
| المطلب الرابع:السياسي | ١٢٠ |
| المطلب الخامس: الاقتصادي | ١٢١-١٢٥ |
| المبحث الثاني: آثار ونتائج النظام الاستبدادي، وفيه مطالب ثلاثة | ١٢٦-١٤٥ |
| المطلب الأول: آثاره ونتائجه على الفرد | ١٢٨-١٣٤ |
| المطلب الثاني: آثاره ونتائجه على المجتمع | ١٣٥-١٣٩ |
| المطلب الثالث: آثاره ونتائجه على الدولة | ١٤٠-١٤٥ |
| الفصل الرابع: معالجة القرآن الكريم للنظام الاستبدادي، وفيه مباحث ثلاثة | ١٤٦-٢٣٣ |
| المبحث الأول: المبادئ الأساسية لمعالجة الاستبداد (رؤية قرآنية)، وفيه مطالب أربعة | ١٤٧-١٨٠ |
| المطلب الأول: إعلاء قيمة الحياة والإنسان | ١٤٩-١٥٣ |
| المطلب الثاني: إعلاء قيمة الحرية | ١٥٤-١٥٩ |
| المطلب الثالث: إعلاء قيمة العدل والمساواة | ١٦٠-١٧١ |
| المطلب الرابع: إعلاء قيمة الشورى | ١٧٢-١٨٠ |
| المبحث الثاني: المعالجة التطبيقية للنظم الاستبدادية (رؤية قرآنية)، وفيه مطالب أربعة | ١٨١-٢١٧ |
| المطلب الأول: المواجهة الفكرية | ١٨٢-١٨٨ |

| | |
|---|---|
| المطلب الثاني: الإعداد و البناء | ١٨٨-١٩٣ |
| المطلب الثالث: المواجهة العملية | ١٩٣-٢١٠ |
| المطلب الرابع: السنن الإلهية في معالجة الاستبداد | ٢١١-٢١٧ |
| المبحث الثالث: التصور القرآني للنظام العادل الراشد، وفيه مطالب ثلاثة | ٢١٨-٢٣٣ |
| المطلب الأول: المرجعية العليا للدولة ونظام الحكم العادل | ٢٢١-٢٢٤ |
| الفرع الأول: الشريعة هي المرجعية العليا في الدولة ونظام الحكم | ٢٢١-٢٢٢ |
| الفرع الثاني: الرئاسة العامة في الدولة | ٢٢٢-٢٢٤ |
| المطلب الثاني: أسس ومبادئ الدولة ونظام الحكم العادل | ٢٢٥-٢٣١ |
| المطلب الثالث: الحقوق والحريات في النظام العادل | ٢٣١-٢٣٣ |
| الخاتمة | ٢٣٤-٢٣٥ |
| فهرس المصادر والمراجع | ٢٣٦-٢٤٩ |
| فهرس المحتويات | ٢٥٠-٢٥٢ |